الكتاب الماسي

أنفاس الصباح

بقلم
محمد حسن عبد الله

اهـــداء

الى وطنى الصغير .. الوديع ... الجميل .. الذى اعشق فى جماله ووداعته .. وطنى الكبير .. الى المنصورة .. اهدى نبضـــة من كفاح وطنى العظيم ..

- ١ -

بعد المنصورة — الى الشمال الشرقى منها ، وعلى مسافة عشرة اميال ، قرية صغيرة اسمها القباب ، تحوطها الحقول الخضراء من كل جانب ، ويظللها النخيل ، وترتفع فيها ابراج الحمام الذى ينتشر فى سمائها كسحابات بيضاء وكأنه رايات سلام ، وتبدو بيوتها ملاصقة لحافة بحر اشمون وكأنها ترتوى منه .

وفى مدخل القرية — قريبا من النهر — دار العايدى مبنية بالآجر لكنها من غير طلاء ، وتبدو نوافذها من بعد مثل نوافذ القلاع الصغيرة فى العصور الوسطى .. وأمامها مصطبة كبيرة نظيفة وقناة ضيقة تبدأ بعدها حديقة الدار الصغيرة .. وسطح دار العايدى مثقل بحطب القطن مما يوحى بشيء من الرغد أو لين العيش .

***

كان العايدى الكبير يجلس على المصطبة امام داره ، يدخن النارجيلة فى تراخ لذيذ كمـا يحلو له ان يفعل كل أصيل بعد أن يؤدى صلاة العصر ، وكان يفترش سجادة صلاة ناعمة اتخذها من صوف غنمه ، وكان يضع الى جانبه بعض الكتب التى تشتمل على أشعار المتصوفة مثل بردة البوصيرى ، وديوان ابن الفارض ، يسرى بما فيها عن نفسه ، ويجدفى سطورها عزاء قلبه المؤمن ، وربما قرأ أبياتا تمدح النبى ، أو تدعو الى الفناء فى الله ، فلا تلبث يد الرجل أن تتراخى بالكتاب ، وتهيم نظراته فى الأفق البعيد المترامى وراء حديقة الدار .. وكأنها تبحث عن معنى تائه فى المجهول ، ثم يعود اليه طرفه زويدا رويدا حتى يلتقى بأشجار الحديقة وقد أثقلتها ثمار الفاكهة فبدت كالمصابيح المضيئة ، فلا يلبث ان يمصمص شفتيه فى عرفان عميق بنعمة الله .

واسترسل الرجل مع خواطره المؤمنة الهائمة ، ولم يفق منها الا على صوت رفيع هادىء يهمس له : « القهوة يا ابى » .

فانتبه الرجل والتفت الى صاحبة الصوت الناعس ، وخفق قلبه حنانا وحبا وهو يفتح لها ذراعيه ، وقد انبسطت قسماته ، وقال : « أسعد الله مساءك ياسماح » .

فقالت الفتاة وقد اكتسي وجهها بشعاع الغروب فزاد تضرجه بحمرة الحياء جمالا وسحرا : « أسعد الله مساءك يا أبى » .

وسارعت فوضعت القهوة الى جانب سجادة الصلاة ، ثم جلست على حافتها ، وتركت يد عمها تطوقها فى حنان وهى تلوذ بجانبه وتزداد التصاقا به .

واخذ الرجل يعبث بضفيرتها المرسلة من خلفها وقال : « هل انتهت عمتك من صنع العشاء ؟ » .

فالتفتت اليه الفتاة فى حماس تدافع عن عمتها : « لاتتعجل عمتى .. فخزائننا تعانى نقصا فى اللبن .. ان الاجراء الذين يعملون فى جمع قطننا قد استنفدوه .. أو كادوا .. »

فقال الشيخ وعلى فمه ابتسامة حزينة :

— « فهل تفضلين الا نقدم لهم طعاما ؟ » .

فصمتت الفتاة قليلا .. ثم قالت فى أسي بالغ :

— « لا يا أبى .. انهم فقراء .. لقد رايت بعضهم لايجد ما يغمس فيه خبزه الجاف .. بل رايت احدهم يقتلع البصل من بين شجيرات القطن ويخفيه فى ثيابه ليتغدى به .. فأوشكت أن اعيره باللصوصية ، واخبر جلال الدين .. ولكنى تأملته .. فأجهشت بالبكاء .. وانصرفت » .

واختنق صوت سماح الصغيرة ، وازدادت التصاقا بعمها ، فربت الرجل ظهرها فى حنان أبوى دافق ، وقال وهو يحاول أن يبتسم لها ليبدد حزنها .

— « وماذا أبكاك يا صغيرتى ؟ » .

قالت — وما زال صوتها محتبسا :

— « كانت ثيابه ممزقة ، وكانت تكشف عن صدر أجرب متهرىء الأديم » .

فقال الرجل فى عجلة من يرغب فى انهاء الحديث :

— يلطف الله بهم ... أين اخوتك ؟

فمسحت الفتاة دمعة انحدرت على خدها بطرف كمها ، وقالت :

ــ سليمان فى دار « سيدنا » وجلال الدين مازال فى الحديقة .

فقال العايدى وهو يمد يده لتناول . قدح القهوة :

ــ اذهبى فنادى جلال الدين .

وانسلت الفتاة من جانب عمها ، وجرت خطوات ثم قفزت القناة الضيقة وسريعا ماغابت بين الاشجار ، وانطلق صوتها باحثا ينادى ابن عمها جلال الدين .

وارتشف الشيخ من القدح فى استمتاع ، ولكن بذهن شارد وراء الفتاة ... كم هى رقيقة تحمل كل طباع والدها الذى تركها له بنت سبع سنوات .. لكنها الآن فوق العـــــاشرة .. عامان أو ثلاثة وتصير عروسا .

وتنبه الشيخ على وقع اقدام تنكسر تحتها اعواد الحطب المتناثرة حول الدار من بعيد ، فرأى « سليمان » مقبلا فى جلبابه الابيض النظيف الفضفاض وكأنه طيف ملاك ، وتحت ابطه مصحف وكتاب .

وتهلل وجه الرجل لمرأى ابن اخيه وهش له ، فأسرع الفتى ، وتقدم مادا يده ، واحتضن يد عمه فقبلها ، والرجل يحاول جذبها فى رقة وهو يقول محييا :

ــ العفو يا شيخنا .. لقد كبرت .. ونحن نتبرك بك .

ــ انت بركتنا ياعمى .. اطال الله عمرك .

فقال الرجل :

ــ اطال الله عمرك أنت يا سليمان حتى تحيى ذكرى أبيك وتفتح بيته ، وتعلى ذكرنا بعلمك .

وعقد الحياء لسان الفتى فلم يدر ماذا يقول ، ثم خرج من صمته فسأل عمه :

ــ اين جلال الدين ؟ .. لقد سأل عنه سيدنا .

فقال الشيخ فى اختصار :

ــ لقد ذهبت سماح لتبحث عنه .. لكن ماذا قال لك سيدنا ؟

فحدس الفتى أن عمه قد علم مقدما ما أخبره به سيدنا ، فلم يستطع

أن يدارى فرحته وهو ينهى الى عمه ما قاله له استاذه منذ ساعة «لقد أصبحت شيخا يا سليمان ، حفظت القرآن وقرات البردة ،والاجرومية، والاربعين حديثا النووية » فتماوجت ظلال من الفرح والاسي على وجه الرجل وسأل :

— وماذا تنوى ان تفعل ؟

فقال الفتى بصوت خافت :

— ما تأمرنى به ياعمى .

فوضع الشيخ يده على عاتق ابن اخيه وقال :

— يجب أن تعد رحالك لتتوجه الى الازهر فى أقرب فرصة .. تلك وصية أخى وهو على فراش الموت .

فانقبض قلب الفتى للذكرى وقال بصوت مختلج من الانفعال :

— أننى أرغب فى البقاء الى جانبك لاساعدك فى الاشراف على حقلنا ..

فقال الشيخ جادا :

— أنت لا ترغب فى ذلك يا سليمان .. ولكن رقة شمائلك هى التى تدعوك الى هذا .. واننى بحمد الله أستطيع الاشراف على اعمال الحقل، وسيبقى جلال الدين الى جانبى يساعدنى فاذا انتهى الى منزلتك فى العلم بعد عامين الحقته بك فتشرف عليه هناك ..

فقال الفتى فى أسى :

— لكنك فى حاجة الى من يقف بجانبك ياعمى ..

فقال الشيخ بصوت حاول أن يكون قويا .

— نعم يابنى .. نحن دائما فى حاجة الى اليد التى تدفع عنا ظلم الملتزم ، وعسف الآغا وجور عماله وفرسانه ، ولكنى ادخرك لما هو اهم . يجب أن ننظر الى بعيد ، فلا يشغلنا الظلم الحاضر عن ايامنا المقبلة ، ستذهب فى رعاية الله الى القاهرة .. وستصير فيها شيخا مرموقا بعد عدة سنوات ، وسيلحق بك جلال الدين حالما ينتهى من الدرس عند سيدنا ، وستمهد له الطريق بصلاحك وعلمك ، ويومها سأغمض عينى راضيا .. واثقا بأنكم بعيدون عن ضربات السوط القاسية ، ولذعات الجوع المدمرة ، يومها أطمئن على نفسي واستشعر القوة ، ويومها يبعث

اخى حيا من جديد وهو يسخر من الذين اهانوه كثيرا حتى هده الظلم واودى به وهو فى ريعان شبابه .

وتدبر الفتى كلمات عمه ، وهو يراها مجسدة .. لكنه ما لبث أن تساءل هامسا :

ــ وسماح !!

فانطبقت يد الشيخ على كتف الفتى تضغطها وهو يقول :

ــ سليمان !! كن كما عهدتك .. هل كنت تقول ذلك لو أنها كانت فى بيت اخى رحمه الله ؟

فانحدرت دموع الفتى من التــأثر ، واحتضن يد عمه بين راحتيه وغمرها بالقبل وهو يهتف من قلبه : اطال الله عمرك ياعمى .

***

ولم يلبث جلال الدين أن اقبل ، وكان فى الخامسة عشرة ولكنه كان فارع الطول عريض المنكبين ، وبرغم بنائه المتين كان واضح القسمات صبوح الوجه .. فيه رقة محببة .

وكان يحمل عن أبيه قوة الايمان ورقة الاحساس .. لكنه كان يتدفق حيوية مما جعله كجواد جموح .. لايبقى على حال .. فهو دائما يعمل أو يتكلم أو يفكر .. وقد حداه ذلك أن يزج بنفسه فى مشكلات البيت ، والحقل والحديقة ، ويناقش تصرفات الملتزم ، ومدى عدالة الضرائب التى يدفعها أبوه على هيئة محاصيل ونقود ، وحق اغا الأقاليم فى تســخير عمالهم بلا أجر . وكم خشي العايدى على ولده وحال بينه وبين الحديث فى مثل هذه الامور ووجهه بخشونة نحو التعليم ، ولكن الفتى كــان يجيب اجابة واحدة : « ان كل ما يصادفنى فى حياتى يذكرنى بالمماليك .. فاذا ذهبت الى سيدنا لم اقرأ فى القرآن الا ما ينفرنى من الظلم ويحبب الى العدل والقوة » .

وقفز جلال الدين القناة الصغيرة وفى يده سلة مملوءة بالفاكهة .. واقبل على مجلس والده تتبعه سماح .

ــ أين كنت ياجلال ؟

فقال الفتى وهو يلهث

ــ كنت أجمع بعض الفاكهة .

فقال الشيخ فى صوت غاضب رزين :
— وماذا كنت تفعل قبلها ؟
— كنت أرقب الطريق !
فقال الشيخ متعجبا .
— ترقب الطريق ! ممن يافتى ؟
فقال الفتى فى حدة لاتناسب ما على وجهه من براءة .
— مر بعض فرسان الاغا على جسر النهر . . وخشيت أن يدهموا الشجر .

فقال الرجل وبوادر غضب مكبوت تلوح فى لهجته .
— وما شأنك أنت ؟
فنسي الفتى نفسه ورفع صوته محتدا .
— انها حديقتى .

فصمت العايدى والتفت عن ولده ، وطال الصمت فاستخذى الفتى وادركه الندم على ما بدا منه ، لكنه لم يدر ماذا يفعل،فظل واقفا وعضلات وجهه تختلج من الارتباك والخجل .

وقطع الصمت صوت سماح الهامس الناعس وهى تقبل نحو عمها وكأنما عز عليها غضبه :

— لماذا تغضب يا أبى اذا كان جلال الدين يحرس الحديقة ؟

فالتفت الشيخ اليها وقربها منه قائلا : لان ذلك ليس من عمله ياسماح .

قالت الفتاة فى ضراعة :انه لن يفعل بعد اليوم ما يغضبك يا أبى .

وقال جلال الدين فى رجاء : لن ترى منى الا ماتحب يا أبى . . ولن اهمل كتبى بعد اليوم .

فقال الشيخ : يجب ان تذكر ان سليمان ابن عمك سيسافر بعد أيام الى القاهرة وانك يجب أن تلتفت الى دروسك لتلحق به .

فقال سليمان مهدئا : جلال الدين فتى ذكى ياعمى . وبرغم حبه لاعمال الحقل فانه لايقل عنى مكانة فى العلم .

فزحفت سماح الى عمهـــا وقالت فى تودد وهى تتطلع اليه : هل رضيت عنه يا أبى ؟

فابتسم الشيخ وهو يحوطها بيده فى حنان فياض وقال :

من اجلك ياسماح رضيت عنه .

كان المساء قد بدأ يهبط على القرية .. وعلى الحديقة .. فبدت اشجارها كثيفة الظلمة كأنها اشباح تتهامس .. وما لبث القمر أن ظهر من ثغرة بين اشجار الجوافة التى عبق الجو برائحتها الشهية ، وظهرت ثمارها لامعة فى ضوء القمر كأنها قناديل صغيرة .. وكانت اشرعـــة القوارب فى النهر تبدو من خلف الاشجار تخفق بالهواء ، وينعكس عليها نور القمر .. ونقيق الضفادع واصوات الجنادب تأتى اليهم مختلطة بغناء البحارة والصيادين فى القوارب .. وسرت برودة الجو المنعشـــة فى تلك الساعة التى تتلو الغروب ممتزجة بروائح الفواكه ، ورقة ضوء القمر ، فهدات من عواطف الجالسين ، وغمرتهم بمشاعر ناعمة رقيقة ، وسبح خيال كل منهم فى سبيل ، فكان كل منهم يفكر فى غده .. الا العايدى الكبير ، فانه كان يفكر فى غد أولاده جميعا ، ويتطلع الى السماء بقلب خاشع ويتمتم فى صلاة صامتة ترتجف أمام احساسه بســـلطان القدر : اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه .

وهنا تناهى اليهم صوت الأم تقول وهى على باب الدار : هل نسيتم ان اللبن بالسكر لا يحلو الا ساخنا ؟

***

- ٢ -

مضت الايام سراعا ، وحمل سليمان كتبه وودع اهله ، ورحل الى القاهرة لطلب العلم فى الازهر ، وقد أوصي ابن عمه جلال الدين بالاهتمام بالعلم وبالمحافظة على زيارة « سيدنا » والاخذ عنه ،حتى تتسنى له الاقامة فى القاهرة « أم الدنيا » ، وحتى يصـــير شيخا مهيبا يعمل له الف حساب . واظهر جلال الدين الموافقة لابن عمه اذ كان مقتنعا بصدق حديثه وجدوى نصائحه ، والقى باهتمامه الى « سيدنا » بضعة أسابيع ، ولكن طبعه الثائر المتقلب ما لبث أن تغلب عليه ، فعادت حياته قسمة غير عادلة يقضي القليل منها بين الكتب وعند سيدنا ، ويقضي اكثرها فى جدال مع والده حول الملتزم والاغا ... وكان الوالد يخشي عليه هذا الاندفاع المبكر ، فكان الجدال ينتهى كل مرة الى غضب الاب ، وندم الابن، ووعد صادق بالامتناع عن مثل هذا الكلام .. ويقبل يده تائبا ولكن طبعه لايلبث ان يغلبه فيعود للحديث .. والصياح .. ثم الندم .

لكن أحلى ساعات عمره حقا كانت تلك التى يقضيها فى الحديقة ، أو حول الحقل يلاعب ابنة عمه ويداعبها ، أو يتركها تعاونه فى تشذيب أشجار الفاكهة .

وكان العايدى يحب فى وحيده هذا الطموح وتلك الرغبة المبكرة فى العمل والاعتماد على النفس ، ومن ثم فقد ترك له أمر الحديقة الا ان يشير عليه أو يعاونه ان اراد .

الا أن موقف العايدى قد تغير بعد أن صارت الحديقة تشغل وحيده عن القراءة والحفظ والذهاب الى بيت سيدنا ، وهو لايريد لولده باية حال أن ينشأ فلاحا .. فقد كانت كلمة (الفلاح) تعنى العبودية للمماليك ، والسخرة فى حقولهم ، وتعنى الفقر والجوع والهوان والتشرد ، من اجل ذلك أخذ الاب يحول بين ابنه وبين الحديقة رويدا رويدا .. ولم يكن يتركه الا حينما يلاعب الصغيرة (سماح) اذ كان الشيخ يكره أن تشعر ابنة اخيه بأنها يتيمة .. أو انها — بعد أن سافر اخوها — وحيدة .

اما سماح فقد كانت مصدر سعادة لكل من فى البيت : كانت نحيلة مديدة القامة بالنسبة لعمرها ، وكانت بشرتها بيضاء مشربة بحمرة ، وكان ذلك يكسبها رقة وضعفا وكأنها دمية ، وكان وجهها يفيض بالطلاقة والحيوية ، وكان شعرها الاسود الفاحم الذى ارسلته فى ضفيرة واحدة من خلفها يكون اطارا يزيد وجهها المنير اشراقا ، وكانت عيناها الزرقاوان الواسعتان تظللهما اهداب طويلة تحمل الذى يحدق فيها على الاغضاء ..

وقد كان يومها يمضي بين معاونة زوجة عمها — أو عمتها كما تدعوها — فى اعمال الدار واعداد الطعام لعمال الحقل ، ثم تحمله اليهم وتتركه فى الحجرة الصغيرة فى زاوية الحديقة ، وتظل تلهو هناك مع ابن عمها بين الاشجار او على شاطىء الجدول الممتد ازاءها .. الى أن ينتهى العمال من طعامهم فتحمل الصحاف الفارغة .. وتعود .

ولم تكن سماح فى براءتها وطفولة روحها واحساسها تفطن الى ما يعترى جسدها من تغير تدريجى ينتقل بها من الطفولة الساذجة الى الصبا الفاتن .. فقد اعتادت أن تجرى .. وأن تلعب .. وأن تحمل الطعام الى الحقل .. وأن تسابق ابن عمها هناك بعد أن تنتزعه من بين كتبه .

اما جلال الدين فقد كان اكثر احساسا برجولته .. وباكتمال قوته ونضج قامته وخشونة صوته .. وقد لاحظ بعين مغرمة يقظة ما يطرأ على ابنة عمه من تغير .. وما يتبع هذا التغير من جنوح وتطور فى احاسيسه نحوها .. وانتقل انتباهه بالتدريج ، مع ملاحظة نعومة صوتها وخفة حركتها ، الى التطلع الى زرقة عينيها وبضاضة جسدها والتفافه ، والاستماع الى حديثها الذى يجد فى الانصات اليه راحة نفسية عميقة تجعله ينسي كل شيء من حوله ويود لو استرسلت بلا انقطاع ، وكان يجد فى الشيء الذى يتناوله من يدها لذة ومتعة لايكاد يجدها فى شيء آخر .

ولكن سماح ظلت بعيدة عن التجاوب معه فى عاطفته الجديدة .. كانت أحاسيسها البريئة وأحلامها الصبيانية .. تطغى على كل احساس آخر .

هكذا ظلت سماح غير منتبهة الى القلب الملتهب بحبها ، والذى أصبح يترصدها فى حرمان وشغف ، وينتظرها فى الحديقة يحدوه الشوق والامل فى أن تبادله الحب .. وهى تكن له اعجابا وحبا فطريا بريئا لاتكاد تحسه .

الى أن كان يوم ..

كان ذلك فى الحديقة ذات أصيل .. حين امسكت سماح بحجر وتراهنت مع جلال الدين على عدد البلحات التى سيسقطها الحجر ، ووقف جلال الدين الى جانبها يرقبها ، وطوحت الفتاة بظهرها الى الخلف فى حركة خبيرة محنكة ، ومدتساعدها الى أقصاه ، وجمعت كلقوتها فى ذراعها ، ثم طوحت بالحجر فى اتجاه عنقود البلح ، وانطلق الحجر الى غايته بينما اختل توازنها فاستدارت نصف دورة عنيفة لترتطم بابن عمها الذى أخذته اللهفة عليها وخشي سقوطها على الارض فسارع الى احاطتها بيديه .. فثبتت على قدميها جزعة ضاحكة من المفاجأة. وبعد أن استعادت توازنها واستوت واقفة توانى فى افلاتها لحظة وظل يحيط خصرها بيديه وكأنه فقد القدرة على تحريكهما .. لكنها نظرت اليه فى خوف وقد أحست بغرابة الوضع فتركها على الفور .. وتجمدت سماح فى مكانها لاتدرى ماذا تفعل أو تقول ، أما جلال الدين فلم يبد عليه اى انزعاج او احساس بالالم .. وانما ظل واقفا مكانه ورشقها بنظرة تائهة والهة .. وكان صدرها اللطيف يعلو ويهبط من الانفعال .. وابتلع ريقه فى صعوبة وقال هامسا :

— سماح .. هل ..

ولم يستطع جلال الدين أن يكمل تساؤله .. أو أن يجاهر بمايحس، فقد احتبس صوته وغشيه ارتباك شديد ، فألقى بنظرته الى الارض . ولكن (سماح) التى لم تر مثل نظرته تلك من قبل أحست بالمعنى الذى يكمن وراءها .. وتحرك قلبها لأول مرة حركة فجائية قوية،فذاقتذلك الاحساس الحلو الذى تتفتح له الحواس والمشاعر فتفور به وكأنما انسكب فيها مزيد من الحياة والقوة لقد عرفت سماح ماكان جلال الدين يود أن يقوله واكمله قلبها .. « هل تحبيننى » ؟ يالها من كلمة حلوة .. لكنها جديدة عليها .. فخافت منها .. وارتجفت لاحساسها بمعناها .. وتمثلها خاطرها فى صورة جلال الدين وقد عقد يديه حول خصرها حين أوشكت أن تهوى الى الارض ، فبكت .. وكأن البكاء هو المهرب الوحيد من حرج الموقف وفوران العاطفة .

واستدارت لتنصرف فى خطوات متعثرة وما زالت دموعها تسيل على خدها ، وشهقات مكبوتة يهتز لها جسمها تكشف عما تعانى من حيرة وارتباك .

وتبعها جلال الدين مستخذيا وهو يتدبر الموقف فلا يجد له حلا ،

وعند حافة الحديقة ، وقد أوشكا ان يفترقا سألها جلال الدين هامسا فى رجاء :

ـ سماح .. هل أغضبتك ؟؟

وتوقفت سماح على الفور .. ومسحت دموعها بطرف كمها وهى تنظر الى جلال الدين فى خجل وعاد يسألها : هل أغضبتك ياسماح ؟

ـ لا

ـ فما يبكيك اذن ؟ اننى .. اننى ..

ـ لا أدرى ماذا انتابنى .. بل لا ادرى ماذا حدث لكلينا ..

ـ ان بكاءك يؤلمنى ياسماح .. فهل ترغبين فى ايلامى ؟

فقالت فى نبرات مرتجفة : كلا .. كلا لن ابكى .. دعنى اذهب.. لقد تأخرت . ومسحت دموعها وانطلقت الى البيت ..

اما جلال الدين فقد استلقى على حافة القناة ، والقى بكتابه الى جانبه .. وأخذ يحدق فى السماء .. ويستعيد الموقف عشرات المرات بشغف وهيام .

***

فى ذلك المساء قال العايدى : لم يعد ضروريا أن تذهبى الى الحقل بمفردك ياسماح ، لقد كبرت على ذلك ، وسيحمل الخادم الطعام الى الاجراء ، واذا شئت رؤية الزرع فسيكون ذلك فى صحبة عمتك أو صحبتى .

وعادت سماح لتقضي أيامها فى أعمال المنزل ، ولكنها كانت منصرفة بأفكارها دائما الى ذلك الاحساس الجميل الذى تولد فى نفسها ذات أصيل تحت النخيل حين حاولت اسقاط البلح الاحمر فسقط قلبها فى شراك الحب .

اما جلال الدين فانه كان يلحظها من بعيد ، ويتمنى لحظة انفراد ليبسط أمامها قضية قلبه .. حتى اذا تهيأت له الفرصة توقف لسانه عن الحركة وان تضاعف فى قلبه الخفقان !

وهكذا مضت أيامهما مشحونة بحب حبيس مكبوت لا يجد له متنفسا .. ولكن « سليمان » ما لبث أن جاء من القاهرة ، وقد ازداد بهاء ورقة وعلما ، فاستقبله كل أفراد الاسرة بآيات الحنين والشوق ،

ووجد جلال الدين فى ابن عمه الزائر فرصة كريمة للتنفيس عن عواطفه المحرومة فبالغ فى الحفـــاوة به وملازمته .. ووجدت سماح فى أخيهـــا مسلاة وتغييرا تهرب فيه من أفكارها المعذبة وحبها المحروم .

***

وقضي سليمان فى « القباب » شهرا كان جلال الدين قد انتهى فى غضونه من تلقى العلم عن « سيدنا » ، وأصبح واضحا أن جلال الدين سيرافق ابن عمه عائدا الى القاهرة ، فكانت أيامه الأخـــيرة فى البيت مملوءة بالحركة والنشاط والتوقع .. ولكنه قضي الايام يتحرق شـــوقا الى لحظة مثل التى عاشها فى الحديقة دون جدوى .. وعندما مرت العربة التى سيركبان فيها أخذ الاب يوصي ولده بالمداومة على تلقى العلم، وبالتزام الهدوء ، وبالاستماع الى نصائح سليمان وطاعته . ولكن الفتى كان فى شغل عن ذلك كله .. كانت سماح تنظر اليه من خلال ستائر العربة التى تجرها الخيول ، وكانت موجة من الدمع تكاد تطفر من عينيها ويحبسها الحياء ..

***

وقضي جلال الدين ساعات الطريق الطويلة منصرفا عن ابن عمه.. يفتح كتابا دون أن يقرأ حرفا ، أو يحملق فى سقف العربة ، أو يحـــاول التلهى بالنظر الى الحقول من الشباك .. لقد كانت صورة واحدة تملأ خياله وتسد الافق أمامه وكأنها تنبع من نور عينيه فيراها على صـــفحة الكتاب ، وفى سقف العربة ، وفى الارض الخضراء المبســـوطة من حوله .. تلك هى صورة وجه سماح .. الوجه الوديع الرقيق وقـــد أحاطت به هالة الشعر الاسود فزادته رقة وجمالا .. والعينان الزرقاوان الواسعتان بأهدابهما الطويلة التى تحمل الناظر اليهما على الاغضاء .. وموجة الدمع التى تكاد تطفر منهما لولا الحياء .

وعندما أشرفت العربة على القاهرة قال جلال الدين فى نفســـه : هأنذا مقبل على حياة جديدة ، لقد كانت الحديقة متنفسي الوحيد الذى أخلو فيه مع أفكارى ، وكانت سماح نغما حالما يهدىء من ثورتى فماذا أنا فاعل بدونهما ؟

صحب سليمان ابن عمه الى الأزهر ، واجلسه فى زاوية المبتدئين ..
ودهش جلال الدين للحياة الجديدة ، ولكنه مالبث ان اندمج فيها ، واتخذ الصحاب والرفاق من المبتدئين مثله ، وحين انس الى وضعه الجديد عاد يتذكر بشوق وحنين حياته فى القرية ، وساعة الحديقة ، ولحظة الوداع..
وتساءل فى حب واله : متى يدور العام واعود لزيارة القباب ؟
ولم يكن يدرى انه فى نهاية ذلك العام على موعد مع الموت !

***

- ٣ -

استيقظ حى « الخيامية » عقب اغفاءة الفجر مثلما يفعل كل يوم..
كانت بيوت الحى متقاربة ومتلاصقة يحتضن بعضها بعضا وكأنها تتهامس
فى نجوى .. وكانت تمتد على الجانبين فى سير غير منتظم ولا مستقيم..

وحى الخيامية يبدأ حياته مع أنفاس الصباح الاولى .. عند الفجر..
فما يكاد النداء للصلاة يتصاعد من مئذنة الازهر فتردده مآذن مسجد
الغورى وقايسون وابن طولون وغيرها .. حتى تنفض القاهرة عن نفسها
أردية النوم وتتمطى لاستقبال يوم جديد ، فيعود الرجال الى الشوارع
فى طريقهم الى المساجد .. وتنتشر التسابيح والادعية فى ظلام الشارع
الممتد فتبدو كعلامات الامان فى صحراء موحشة ..

وما تكاد تنتهى الصلاة حتى تكون السماء قد اكتست بزرقة فيروزية
شفافة يمازجها احمرار خفيف ، واكتست الارض بنور رمادى باهت ..
يسمح بالرؤية .. فيقصد الرجال الى دكاكينهم وقد امتدت شعاعات
الشمس من خلف الافق واستنار الطريق .. ولا تمضي الدقائق الا وقد
فتحت المحلات على مصاريعها ، وقصدها السقاءون بقرب الماء فرشوه
امامها على هيئة رذاذ خفيف .

ومع أبخرة الصباح الندية تعبق الشوارع بالدخان المتصاعد من
قماقم البخور التى حشاها أصحابها بالند وأعواد العنبر ووضعوها فى
مداخل محالهم أو حملها المرتزقة من الفقراء وساروا يستجدون الناس
فى عرض الطريق .

وكان سليمان العايدى يأخذ طريقه فى شارع الخيامية فى تلك
الساعة المبكرة والى جانبه ابن عمه ، وكانا قد أديا صلاتهما فى مسجد
الحى ثم عادا الى حجرتهما فى أعلى دار فى نهاية الخيامية ، فرتبا كتبهما
وحملا منها ما يحتاج اليه درس اليوم ، وقصدا الى دكان « الفطايرى »
فأكلا على عجل .. وجلسا فى انتظار الشاى ، وهنا مر بهما عم حنفى

الدمقاء ورآهما فقصدهما ، ووقف أمامهما منحنيا تحت القربة التي يحتضنها بيده ، من خلفه ، وقال باسما :

ــ اسعد الله صباح شيوخنا .

فالتفت اليه سليمان وقال متجاوبا مع ابتسامة الشيخ ذى اللحية البيضاء والوجه المتفضن . أسعد الله صباحك أنت يا ماء حياتنا .. ضع عنك القربة وهلم الى كوب الشاى الاخضر ..

ــ لقد سبقتكما والحمد لله .

فاعتدل الآخر فى جلسته وقال وهو يرمى الشيخ بنظرة لا تخلو من خبث :

ــ لقد سبقتنا الى العمل ، ولكنى اقسم أنك لم تشرب شايك حتى للساعة ، وآن لك أن تشاركنا .

فقال الشيخ فى غير مكابرة وهو يسقط حمائل القربة عن كــاهله ليضعها جانبا :

ــ ليس بى حاجة الى قسمك ياشيخ جلال الدين ، هات الشاى ، مادمت ستدفع ثمنه فانى لن أرفضه .

وضحك الشيخ فاكتسي وجهه الصبوح باشراقه حلوة ، واتســع فمه فظهرت أسنانه المبعثرة فى جوانبه ، وجلس وهو يتحسس ظهره حيث تستقر قربة الماء من قبل . ولم تمض لحظات حتى حضر الشاى ، ورشف عم حنفى رشفة طويلة .. ثم نظر الى سليمان نظرة ذات معنى وقــال فى شبه همس :

ربما لم تكن بكما حاجة الى حضور الدرس اليوم .

فانتبه جلال الدين من استرساله وقال وكأنه أدرك كل شيء فى لمحة :

لماذا ؟

فلم يلق الشيخ بالا الى لهفته وقال متوجها بحديثه الى سليمان :

السيف اصدق انباء من الكتب .. فى حده الحد بين الصدق واللعب .

فتمهل سليمان قليلا وقد فهم مايعنى الشيخ .. لكنه قال :

انك تلحن ياعم حنفى .. ان البيت يقول : فى حده الحد بين الجد واللعب .. ولا يستقيم المعنى الا هكذا .

فرشف الشيـــخ رشفة من كوبه ومسح على ذقنه بيد بيضـــــاء هزيلة كأنها من الشمع وقال :

— ولماذا لا الحن ..؟

ليس من يبكى ليومين كمن انما يبكى ليوم ينجلى

فقال جلال الدين مستطلعا :

الا تستطيع أن تترك الشعر قليلا وتحدثنا بجلية الامر !؟

فقال الرجل ولم يزايله هدوءه :

لقد حدثتك بكل شيء !!

وكان قد انتهى من ارتشاف الشاى فحمل قربته وحيا الشابين .. ومضي . ولم يلبث الشابان أن غادرا مجلسهما وقصدا الازهر وكأنهما مجذوبان اليه بلا ارادة .

***

طال الصمت بين الرفيقين .. وكان عند سليمان كلام كثير يود أن يقوله لابن عمه ، وأراد أن يلتمس الفرصة ليبدأ الحديث ، فما أن انتهى الى مدخل الغورية حتى بدا الازهر عن كثب . فقال سليمان وكان رؤية الازهر هى التى ذكرته :

— الى اى مدى قرأتم بالامس ؟

فقال جلال الدين فى اختصار وكأنه يستغرب السؤال :

فى الفقه انتهينا من الجزء الثانى فى « الاقناع » وفى النحو أوشكنا أن ننتهى من « قطر الندى » .

فقال سليمان باسطا الحديث :

والتفسير والاصول ؟ و ..

فقاطعه جلال الدين قائلا :

لم نقطع فى ذلك شيئا كثيرا .

فقال سليمان :

بقى لى عام ، وبقى لك ثلاثة اذا عملت بنشاط .. ثم ..

فقاطعه جلال الدين وهو يلقى ببصره الى التجمعات التى تبدو حول الازهر :

طول العمر يبلغ المراد !

فاستوقف سليمان ابن عمه والقى بيده على عاتقه فى محبة وقال :

هذا ما أريد ان يحدث لكنك لا تترفق بنفسك .. ولا بأسرتك .

فقال جلال الدين وهو يغضي ببصره محاولا مداراة ثورته :

— وهل حدث منى ما يغضب أسرتى ؟

فقال سليمان فى لهجة هادئة :

ان عمى لايعرف شيئا مما تفعله ها هنا .. انه يظنك منصرفا الى دروسك .. ولو عرف أنك تشغب على الحكام وتتحزب ضدهم فانه لن يتوانى فى اعادتك الى القرية .

قال جلال الدين :

ومن هؤلاء الحكام الذين اشغب عليهم فيغضب والدى ؟ اليسوا هم المماليك الظلمة ؟

فقال سليمان متمهلا وهو يكبح غيظه :

اننا الآن لا نبحث قضية المماليك ، فأنا مثلك أعرف انهم ظلمة ، وجهلاء ، ويحتقرون الشعب ويذلونه . أنت تحس هذا ، وأنا أيضا احسه ، ولكن باقى الشعب لايتحرك . هذه قضية تخص كل الناس .. أما قضيتنا الخاصة فما يجوز أن تنسي أنك الابن الوحيد لابويك ، وانني الاخ الوحيد لاختى اليتيمة ، وانني بعد ذلك ابن عمك وأخوك وصهرك بعد أن تقترن بسماح .

وعند ما سمع جلال الدين اسم سماح مقترنا باسمه لاحت له صورة الوجه الرقيق الضارع .. والدموع التى تكاد تطفر من العينين الزرقاوين ويمسكها الحياء .. ولكنه عاد الى عناده قائلا :

— اننى لن أكون كما تريدنى الا اذا انقشعت المظالم .

فقال سليمان محتدا وهو يقبض بكفه على كتف ابن عمه :

ان المظالم خالدة خلود العدالة ذاتها ومحال ان تختفى .. ولكن لعبتك الآن خطرة .. ووجه خطرها أنك فى قلة ، فكل مصرى هنا يعرف أن المماليك ظلمة ولصوص ، ولكنه يخافهم ، وينافقهم ولا يعترض عليهم .

فقال جلال الدين وهو يتخلص من قبضة ابن عمه :

اننى أعرف السبب .. أننا لسنا قلة ولكننا مفككون .. اننا لانقلد حكامنا .. ان المماليك فيهم الألفية والمرادية والابراهيمية ، ولكنهم اذ يختلفون فيما بينهم يتحدون ضدنا ويجتمعون على ظلمنا .

ومضت لحظة صمت زام بعدها جلال الدين فى غيظ يتفجـــــر بالثورة .

***

بلغ الرفيقان مداخل الازهر وهما يلتزمان الصمت ، وكان الطلاب متناثرين من حوله فى حلقات .. وهناك افترقا ، وقصد كل منهما الباب الذى يدخل منه الى حيث يجلس شيخه .. وكان سليمان يقـــــول فى نفسه : ان هذا الفتى سيدمر نفسه أو سيتحول الى بطل وطنى . لم يمض على حضوره غير عام واحد وقد صار معروفا بين كل الطلبة ، يحبونه ، ويجتمعون من حوله ويطيعونه .. وهذا موطن الخطر . وكان جلال الدين يقول فى نفسه ، محال أن أطيع ابن عمى فى التزام الهدوء ، لماذا لابهدأ عدونا ؟ يذكرنى بسماح .. بالحياة الرغيدة العطرة .. فيجعلها سبيلا الى تسكين احساسي العميق بكبريائى الجريحة .. فما معنى الرجولة ان لم تكن شهامة وحماية ؟

وعمد الى جماعة من المتحلقين فسألهم عن سر التجمع فأنهـــــوا اليه جملة ماحدث من عسف المماليك وهجومهم على حى بيت القــــاضي وانتهابهم مافى الدكاكين من نقود وبضائع بحجة تقصير التجار فى دفـــع الضرائب ، وقد قصد التجار ساحة الازهر واستنهضوا المشايخ بعد أن اغلقوا محلات حى الازهر أيضا ، واعلنوا الثورة .

كان جلال الدين يستمع الى حديث رفاقه وهو يجز على أسنانه من الغيظ ولم يفق الا على وقع أقدام فرس يعدو بكل قوته مندفعا فى اتجاه بيت القاضي ، الحى الذى أعلن الثورة ، وكان يمتطيه فارس مملوكى ملثم والى جانبه بندقية طويلة ، وفى يده سوط قد ثناه أمامه . وفى لمحة خاطفة اقترب من المتحلقين واوشك أن يدهم جلال الدين على حين تناثرت أوحال الطريق بفعل أقدام الفرس على وجه جلال الدين وثيابه ، فألقى على الفارس الذى كبح جواده نظرة تضطرم بالحقد ، وبكل قوته اختطف محبرة زميله وألقى بها فى وجه الفارس .

وتوقف الجواد على الفور ، واستدار به الفارس قاصــــــدا جلال الدين وتنبه الطلبة فى سرعة خاطفة الى ماحدث ، وعندما رأوا الفارس وقد تلوث وجهه بالحبر ، وسال الدم من جبهته أسرعوا الى زميلهم فتحلقوا من

حوله ، وتنادوا مع من فى ميدان الازهر .. وهنا مسح الفارس الحبر والدم بطرف عباءته ثم ثنى عنان جواده ، وقفل راجعا من حيث أتى .

ولم تمض ساعات قلائل حتى أعلن الطلبة الاضراب العام ، تضامنا مع التجار ، واغلقوا طريق الازهر والحسينية ومدخل الغورية ، فاذا لاح فارس من المماليك فى تلك الاماكن قذفوه بالاحجار ، فلا يجسـر على مبادأتهم أو الرد عليهم ، وعندما بلغ الامر مسامع مراد بك بعث الى كبار المشايخ ليعتذر اليهم عما حدث ، معلنا أن مرتكبى الحادث ليسوا من اتباعه ، لانهم ابراهيمية يتبعون ابراهيم بك الغائب فى الصعيد .. ولكن المشايخ ابوا الاستجابة اليه ، وقاطعوا اجتماعه ، ومزقوا رسالته على مرأى من حاملها .

ومضت الساعات بطيئة ، والنفوس متحمسة متحفزة ، والمشايخ ثابتون على موقفهم العدائى مما حمل مراد بك على النزول بنفسه الى دار الشرقاوى واسترضاه ، وكتب وثيقة أمان وتوبة . ولكن الطلبة لم يرضهم هذا الحل الذى ارتضاه شيخهم ، فقد جربوه كثيرا ، فلم يكن الا علاجا وقتيا تعود بعده المظالم وأعمال النهب أشد عنفا واستهتارا .. فتجمعوا فى مظاهرة صاخبة ، وقصدوا دار الشرقاوى ثائرين ، مطالبين برفض الصلح واجبار الناهبين على رد ما نهبوا واخراجهم من القاهرة ، فحدثهم الشيخ فى رفق وظل يهدىء من ثورتهم حتى استمعوا اليه ، فأخبرهم بأن المنهوبات سترد ، وليس عليهم من بأس اذا جربوا وعود مراد مرة أخرى .. فربما صدق ..

واذا لم يتحقق ما أرادوه عادوا الى الاضراب وتأليب الناس .

وهكذا انتهى هذا اليوم العاصف أمام دار الشرقاوى ، وبدأ الطلبة يتفرقون ، ولكن جلال الدين انتحى جانبا بثلاثة من رفاقه وأخـــذوا يتهامسون ، ثم تفرقوا .

كان الظلام قد بدأ يهبط على المدينة ، حين أخذ جلال الدين سبيله الى منزله ، وكان مشغولا بالتفكير فى أحداث هذا اليوم ، وبما عساه أن يسمع من تقريع ابن عمه ، وبدفاعه عن تأخره .. وحينئذ كان قد بلغ باب الدار . ولم يكد يضع يده على المزلاج حتى انطلقت رصاصة واحدة ، واستقرت فى كتفه فتهاوى على الارض .. بينما سمعت أصوات أقدام فرس يعدو .

وتنبه سليمان الى صوت الرصاصة فأطل من النافذة ، فوجد جلال

الدين ملقى على ظهره وقد سارعت امرأتان فى الشارع الى محاولة حمله. على حين تحاول احداهما ايقاف الدم النازف من الجرح بطرف خمارها .

كانت الاصابة قاسية،وان لم تكن قاتلة ، وقد استطاع الطبيب اخراج الرصاصة بعد مشقة .. وبقى جلال الدين يهذى من قسوة الحمى خمسة أيام . وما كاد يسترد بعض صحته حتى حمله سليمان حملا على العودة الى القرية .

وعاد الشابان الى القباب . واستقبل العايدى ولده بجزع مشوب بفرحة النجاة . وفى فورة خوفه وحرصه أقسم بأن ولده لن يعود الى الازهر وأنه سيبقى ليزرع الارض ، ويتزوج (سماح) لينجب له احفادا .. واستسلم جلال الدين للواقع الجديد ، تاركا للايام الكلمة الاخيرة .

وعاد سليمان وحده الى القاهرة . وقضي جلال الدين فى فراش المرض أسبوعين كانت سماح فيهما لاتفارق حجرته لحظة ، ولا يكاد يغمض لها جفن ، كأنما كانت تخشي عليه مطاردة عدوه الذى ضربه من خلف ، وكانت تسرى عنه بما تسرد من حكايات القرية ، وأحداث حياتها فى غيابه ، وربما تطرقت الى ذكر شيء من مشاعرها نحو عمها أو عمتها فتتوقف عن الحديث فجاة وكأنها تخشي أن تفلت منها عواطفها فتتحدث عن مشاعرها نحوه !

وكان جلال الدين يفكر فى أيامه المقبلة التى رسمها أبوه فيجدها مملوءة بالكفاح والعرق ، ومملوءة بالاحاسيس العذبة التى تشوق اليها كثيرا فى القاهرة ، وعذبه البعد عن مصدرها .. وذابت نفسه حنانا وهو يذكر كلمة والده عن تزويجه بسماح .. سيأتى الى أبيه بالاحفاد الذين يتوق اليهم . وتقلب فى فراشه فى خدر لذيذ نغصه عليه الم الجرح الذى ما زال يتحرك فى داخله. .فساءل نفسه فى حرارة : هؤلاء الاحفاد الذين يريدهم أبى هل تستقر فى ظهورهم أيضا رصاصات المماليك ؟

فى تلك اللحظة دخلت سماح وفى يدها اناء يتصاعد منه بخار شهى الرائحة وقالت :

هذه بواكير تفاح الحديقة ، قد اثمر عندما اتيت .. انه مسلوق فى ماء السكر والليمون .

فاعتدل جلال الدين فى فراشه وتناول منها الاناء واخذ منه ملعقــة واحدة ، ورمقها بنظرة طويلة حنون اخجلت الفتاة التى تضرج وجهها بحمرة خفيفة .. فذكرت على الفور يوما عاشت على ذكراه اعواما ، وهنا لم تستطع البقاء فى الحجرة فغادرتها لتطلق لعواطفها وخيالاتها العنان .

أما جلال الدين فقد همهم : لن يطول بى الامر على هذا الوضع ، اننى احبها بكل كيانى . ثم عاد الى اصطياد قطع التفاح الدافئة من الاناء .

***

لم يستطع الفارس ان ينسي ماحل به من اهانة وما لحقه من سخرية الطلاب حين قذفه جلال الدين بدواة الحبر ، وكان يعرف انه أعجز من أن يمس طالبا ازهريا بسوء فى أى مكان بالقاهرة ، وبذلك انسحب مهزوما وقلبه يضطرم بالحقد والغضب ، واضمر الانتقام السريع .

وتوارى عن الانظار واخذ يرقب الموقف بصبر وجلد حتى اذا ترك جلال الدين رفاقه وصار فى مكان خال قرب بيته أطلق عليه النار .

واستطاع الفارس بطريقته الخاصة فى التجسس أن يعرف أن رصاصته لم تصب من غريمه مقتلا ، وانه رحل الى قريته . لقد ابتعد الحمل عن القطيع واصبح افتراسه ميسورا ، أما الثأر فانه لن يموت .

وكتب الفارس الى اغا المنصورة يخبره عن وقاحة أحد رعاياه ، واعلمه باسمه وبقريته ، وبانه — وان كان شيخا صغيرا فى الازهر — الا انه معروف للطلبة ، ولذلك يجب التخلص منه فى قريته .

أما العايدى فقد كان سعيدا حقا بنجاة ولده . كان يعرف انه سيجلب لنفسه المتاعب بتهوره وعدم مبالاته ، وانه ربما دفع حياته ثمنا لذلك ولكنه ظن أن صحبة سليمان له ستحول بينه وبين ما يخشي عليه ، فلما عاد اليه مضروبا بالرصاص مهددا بالموت ، لم تكن لديه الشجاعة ليعيد التجربة مرة أخرى ، وحمد الله على عودة ابنه حيا وحال بينه وبين القاهرة ، وظن أن هذا الدرس القاسي سيكون سببا فى خلق الحذر والتحفظ عند جلال الدين .

وهكذا عاد جلال الدين الى الحياة الطلقة الحرة التى يهواها وعاش عن كثب من « سماح » تلك التى يتعبد قلبه فى محراب حبها ليل نهار ، واصبح ينتظر ، وتنتظر معه العائلة ، مرور العام حتى يتخرج سليمان شيخا فيتم زفاف سماح الى جلال الدين .

وذات أصيل كان العايدى وابنه يجلسان فى مدخل الحديقة بينما

كانت سماح وعمتها تسيران بين الشجر وهما تتحدثان عن بعض شئون الدار اذ سمعتا وقعجوافر خيل كثيرة علىالطريق . ومالبثنا أن رأتا الخيل تقتحم الحديقة من الخلف وتجوس خلال الشجيرات الغضة بلا احتراس ، تحطمها أو تقتلعها من جذورها وتأكل ماتشاء من ثمارها . وانطلقت العمة فى ذعر تتبعها سماح عائدتين الى حيث يجلس الرجلان ، وما كادتا تبلغانهما وتحكيان لهما ما رأتا حتى كانت الخيل قد أحاطت بهم جميعا وهى تعصف وتدمر دون أن يعبأ راكبوها بالواقفين !

ونظر العايدى حواليه فى حنق وهو يرى الخيل توشك ان تدوس امرأته وصغيرته دون أن تعبأ بأحد . ولكنه فهم الامر كله فى لحظة ، فوجه الى ولده نظرة تحذير الا يتكلم .. وقال فى رجاء لاحد الفرسان الذين لا يلتفتون اليه :

اذا كان ضروريا أن تأكل الخيل من الحديقة فأهلا بها .. ولكنى كنت أحب أن أوفر عليها مشقة اقتلاع الشجر وأحمل اليها ماتشاء من الاغصان وهى على الطريق .

ووضع الفارس المملوك يده على مقبض سيفه وهو يقول باستهتار :

— هل عرفت خيل من هذه ؟

— انها خيل سيدنا مافى ذلك من شك ، وغاية التكريم ان تنزل حديقتى ، ولكنى كنت أود الابقاء على الشجر لتأكل منه مرة أخرى حين تشاء .

— ليس لك أن تقترح على فرسان شاهين اغا .

— شاهين اغا ؟ لقد حسبتها خيل الملتزم .

فقهقه الفارس فى وحشية واستهتار وهو يقول :

يالك من رجل أحمق . انك بذلك توجه اهانة شديدة لاغا المنصورة الذى لاتمثل القباب فى ملكه الا احقر بقعة .

— معذرة ياسيدى الف معذرة .. لقد شرفتم القباب ، الحديقة تحت تصرفكم ، اننى سعيد برؤيتكم .. هذا شرف كبير .

طوى الفارس عنان فرسه فى غير حرص حتى كاد يدهم « سماح » ، وقال ساخرا :

ـ وهل احتجنا الى اذنك ؟

كان جلال الدين واقفا الى جانب امه التى تعلقت به فى جزع وقد احس قلبها بما سيحدث . وكانت سماح الى جانبه من الناحية الاخرى .. وكان يقف محتقن الوجه قاسي النظرات يرتعد حنقا وغضبا ، ولكن تحذير أبيه ألجم لسانه ، لكنه حين سخر الفارس من أبيه ، وأوشك أن يدهم ابنة عمه أفلت صبره فقال محتدا :

حتى لو كانت هذه الخيل لشاهين أغا فانه لا يحق له أن يدهمنا مادمنا ندفع له المستحقات كلما شاء جشعه .

ونظر الفارس خلفه فى غضب وثنى عنان فرسه فى قسوة وشمل جلال الدين بنظرة نارية ، ثم هوى بسوطه على وجهه فى سرعة خارقة . وانطلقت صرخة ملتاعة من الام ، وارتعدت سماح تحت الضربة وكأنها مست قلبها .. وأحاط العايدى ولده بيديه وقد رأى أثر الضربة على رقبته، اذ رسمت ندبة حمراء داكنة ، أما جلال الدين فقد أخذ بالسرعة التى تصرف بها خصمه ، ورأى نفسه وحيدا أعزل فجمدت يداه الى جانبه دون أن يتحسس الضربة أو يظهر علامة الم .

وحاول العايدى أن يأخذ أسرته وينصرف تاركا الحديقة لمن فيها ، ولكنه قبل أن يفعل عاد الفارس نفسه وقادهم بسيفه الى الطريق المحاذى للنهر حيث كان شاهين أغا ممتطيا جواده .

***

كان شاهين أغا شيخا فى الخمسين ، ضخم الجثة ، أحمر الوجه غليظ القسمات ، له شارب أبيض كث ، وحاجبان أبيضان نافران يزيدان منظر عينيه البراقتين الضيقتين بلا أهداب ، رهبة وقسوة ، كما كان شرس الطباع ، أحمق جشعا لا يرعى لاحد حرمة ولا حقا ، وقد سبب بتهوره ثورة عارمة فى بلبيس كادت تقضي عليه لولا أن لجأ الى الفرار ، ثم عين حاكما لاقليم بحر اشمون بادئا بالمنصورة الى دكرنس . فلما أتته رسالة الثأر من القاهرة وجدها فرصة سانحة للاعلان عن قوته وجبروته ، وارواء نفسه الشريرة المتعطشة دائما لرؤية الدماء .

ولم يكن جلال الدين يظن أن شاهين أغا نفسه موجود مع فرسانه ، فلم يكن من عادة الحكام أن يخرجوا كثيرا للتجول ، وكان يكفيهم أن يرسلوا جنودهم فتنتشر فى البلاد مثل كلاب الصيد تخطف وتفترس وتمزق .. لذلك لم يكد يسمع سخرية الفارس من أبيه ، ويراه يوشك

ان يدهم حبيبته حتى اعلن انه ليس لجنود الاغا ان ينزلوا الحديقة .

ونظر شاهين اغا الى جلال الدين فى احتقار حاقد ، وهز قدمه فى الركاب مستخفا وهو يقول فى نفسه « أهو انت » ؟ ومد يده الى بندقيته ولكن نظرته ماكادت تصل الى سماح وهى تسير فى آخر الموكب الذليل حتى أعاد يده .

ومضت لحظة صمت رهيبة ..

ونظر جلال الدين الى الاغا خفية فادرك الى اين تتجه نظـــــراته الشرسة .

وكانت عينا الام وعينا سماح تحيطان بجلال الدين ، وكأن سياج الحب الذى تصنعه نظراتهما قادر على هزيمة الحقد والجبروت الغاشم. اما العايدى فقد كان ينظر الى السماء ..

وفجأة انفرجت اسارير الوجه الاحمر المكتنز الجـــــامد ، وتراقص الشاربان الكثيفان النافران ، وقال وهو يداعب لحيته فى انبساط وكأن شيئا ما لم يكن يزعجه : آه .. القباب فيها كل هذه الشهامة ،لم أكن أظن ان فى مصر كلها شابا مثلك . ما اسمك يافتى ؟

ــ جلال العايدى .

ــ انت شجاع ياجلال الدين . وانا فارس اقدر الشجعان ، ومكانك ليس فى الحقل ، انه عمل الاوغاد والعبيد ، اما انت فأليق مكان بك هو ظهر الحصان والسيف حيث يخدمك الناس ولا تخدم الناس .

وصمت الرجل برهة ثم عاد يقول :

ساجعلك من رجالى ، واعلم انها منحة لا يتطلع اليها فـــــلاح فى احلامه .

وظل جلال الدين جامدا فى مكانه وهو يحاول أن يتعرف مكمن الغدر فى كلام الرجل . ولكن فارسا دفعه بمؤخرة بندقيته دفعة قوية وهو يقول :

لقد انعم عليك سيدنا بمالا يطمع فيه فلاح فى مصر ، وخليق بك ان تتقدم فتقبل ركابه من ان تظل جامدا كالصنم .

وهنا دار رأس جلال الدين .. هل يفعل ؟ هل يقبل ركاب رجل من اعدائه ؟ والقى نظرة سريعة الى أمه والى جانبها سماح ، فرأى نظرة

الرعب والتوسل تطل من عيونهما .. فتقدم ولامس بشفتيه ركاب الرجل فابتسم شاهين أغا فى رضا ، وأشار الى فرسانه بمغادرة الحديقة ، وأمر جلال الدين بالسير خلفه .

وهكذا مضي الموكب بجلال الدين ، وظلت الاسرة فى مكانها ترمقه من بعيد وهو بين الرجال .. وقد تحقق للجميع أن شخصا كان يدعى جلال الدين قد اختفى من حياتهم الى الابد .

***

ومضت امسيتان لم يأت فيهما جديد ينير الطريق الى جلال الدين ولم ينقطع فيهما الدمع من دار العايدى ، وكان الحزن يخيم على ارجاء الدار كلها ، ولكن حزن سماح كان قاتلا .. كانت تشعر بغريزتها انها بعض مأساته ، فان الاغا قرر اصطحابه بعد ان رآها ليتخلص منه .. ثم يتجه اليها ! واقشعر جلدها حين لاح هذا الخاطر الذى تقبض له قلبها ، وساءلت نفسها : ماذا أنت فاعلة ياسماح ان أصاب الحبيب شر ؟ ما معنى الحياة اذا كنا لانستطيع أن نشعر فيها بالامان ؟ يجب أن أموت .. كلا .. يجب أن أقتل الاغا أولا ، لكن كيف ؟ ربما سقطت فى يده دون أن اتمكن مما اريد !!

كان مجرد التفكير فى هذا الامر والانتهاء به الى هذه الغاية يسحق قلبها سحقا ويحمل اليها الموت ، لكن أشياء أبشع من الموت كانت تنتظرها، فما كادت الامسية الثالثة تقبل بوجهها الاغبر حتى دهمت دارهم كوكبة من فرسان الاغا ، وكشفوا ثياب عمها عن ظهره أمامها وأمام عمتها ، ثم سألوه عن مكان ولده وهو على هذه الهيئة !! فلما جاوبهم بأنه لايعرف عنه شيئا بعد أن اخذوه انهالوا عليه بالسياط ، لكنه كتم أنفاسه ، وعلى الرغـــم منه تهاوى فاقد الوعى دون أن يند منه صوت . أما الجنود فقد نهبوا مافى الدار من غلال وثياب وحلى .. وانصرفوا .

وعرف العايدى أن جلال الدين قد تمكن من الهرب ، وانهم عجزوا عن معرفة مكمنه ، فاختلط فى قلبه الخوف على مصير ابنه بالفرح بنجاته من قبضة أعدائه ، وتمنى لو أن الفرحة تتم بعجزهم النهائى عن العثور عليه . ولعله تساءل : وما النهاية ؟ لكنه كان يستسلم لشعور الارتياح بهروب ولده ليخدر لذعات السياط التى تكوى ظهره .

وتكرر هذا الامر بعد يومين آخرين ..

وفى المرة الثالثة قال رئيس الفرسان :

لقد وجدنا ولدك أيها الشيخ فاحمد الله انه لم يمت ، واذا شئت ان يعود اليك فاننا سنعيده دون ابطاء .

فقال العايدى فى استكانة ممزوجة بالشماتة اذ يعرف كذبهم وعجزهم :

وماذا تريدون ثمنا لذلك ؟

فقال رئيس الجند وابتسامة خبيثة تبدو على وجهه الشرس :

آه .. أنت رجل عاقل .. وجدير بأن يتحدث المرء اليك ، لانك تعرف أن لكل شيء ثمنا ، أما ثمن ابنك فهو تلك الجميلة ، واعلم أنها ستكون سيدة ذات شأن فى قصر الاغا ، انه سيتزوجها .. فهل ترد يده ؟!

— ولكننى .. لا أملك حق التصرف فيها !

— لماذا ؟

فقال على البديهة :

— لانها ليست ابنتى !

— ليست ابنتك !!

— نعم .. ولو انها كانت ابنتى لاخذتها بنفسي واهديتها الى سيدى الاغا

— فمن هى اذن هذه الفتاة ؟

— أنها زوجة ابنى الذى اخذتموه .. زوجة جلال الدين .

— زوجة ابنك !

وهمس الرجل فى خيبة امل :

كان يجب أن افهم ذلك ..

ثم أردف :

فنحن نوصلها اليه اذن .. انه وقد صار فارسا فى جيش الاغا يريد امراته الى جانبه . أنت تعرف كم هى حياة الفرسان شاقة . وهم فى حاجة دائمة ليد ناعمة تمسح عنهم قسوة المعارك .

فقال الشيخ وهو يحاول جاهدا اخفاء سخريته وقد اطمأن لنجاح خطته :

كم أحب ذلك وأسعد به ، انكم امناء عليها لانكم سادتنا وحكامنا ،

ولكن الدين .. الدين الذى تؤمنون به وتحترمونه لايبيح للمراة ان تسافر بغير صحبة زوجها !! .. حتى اسالوا العلماء !!

ـــ العلماء .. العلماء . الدين والعلماء .. هذا شيء يثير ..

ـــ ياسيدى ليس لنا كلمة بعد الدين .. آتنى بشيخ من علمائنـــا يجيز ما أردتم وسأفعل على الفور .

ـــ ولكن العلماء مخرفون . منعنا الغلال عن الحجاز وقلنا فقراء مصر اولى بها فثار علماؤكم وقالوا غلال الحرم يجب أن تذهب ، انهـــا مال الله .. والآن يقولون لاتسافر امراة الا مع زوجها !

ـــ ياسيدى .. ليس لى فى الامر حيلة .

فقال الفارس فى وحشية وقد ضاق بحديث الشيخ واصراره :

ولكن لى فى هذا الامر الف حيلة .

ولفح الشيخ بسوطه ثم ركب حصانه ومضي يتبعه فرسانه ..

وهكذا استهدفت دار العابدى للازعاج الدائم ، ولم يسلم الحقـــل من التخريب .

***

لم يكن جلال الدين يجهل المصير الذى ينتظره على يد شاهين اغا ، فقد رأى بنفسه امثلة كثيرة لمثل حالته ، وكانت النهاية الاليمة تنتظر من عثرت به قدمه فى طريق المماليك .

انه يعرف انهم غرباء عن الوطن ، شأنهم فى ذلك شأن الاتراك انفسهم الذين يقاسمونهم السلطة فى مصر ، والوافد الغريب لا يمكن أن يكون شفيقا ولا عادلا ..

أما شاهين اغا فانه — على غير عادته — تمهل فى الفتك بجـــلال الدين ، ولعله رأى أن الاحتفاظ به ورقة رابحة يتاجر بها ويجعلها وسيلة للتزلف عند حكام القاهرة . وربما أراد التخلص منه دون شـــــبهة فى قتله ..

وقد حدث بعد موقف الحديقة ان ظل جلال الدين يجرى لاهثا خلف حصان الاغا يحيط به حرسه الخاص ، حتى بلغ الموكب مشارف المنصورة حيث يقع قصره وثكنات جنوده على أرض فسيحة . وهناك انضـــم جلال الدين الى فرسان الاغا الذين أتاحوا له ركوب الخيل فى ميدان التدريب ، وهم فى انتظار اشارة سيدهم ليركبوه (الجربوع) ذلك الفرس الهائج الشرس الجامح الذى لم ينج من ركابه فارس قط ! ثم يلقون بجثته الى أهله دون ريبة أو شك ، وتصفو للاغا .. تلك الجميلة التى استولت على لبه فى الحديقة .

ولكن الاغا اخطأ التقدير هذه المرة ، فقد أيقن جلال الدين أن أسرع الخصمين حركة وانتهازا للفرص هو الغالب فى تدبيره . فلم يدع الوقت يسرقه ، ولا الهدوء المصطنع من حوله يخدعه ، بل استغل الحرية المقيدة التى أتيحت له فى ميدان التدريب للتعرف على مداخل الثكنات وسراديبها وما يحيط بها من رواصد وعيون .

ومضي يوم ويوم .. وللموت رائحة لايخطئها الواقع فى فخ .. وبينما هو يعدو بفرسه قريبا من احدى القرى المتناثرة حول المنصورة ،

وكان يسبقه بعض فرسان الاغا ، اذ لمح ثيابا نسائية مطروحة في الشمس على كومة من الاحطاب تطلب الجفاف . وكومض البرق لاحت له فكرة وتحقق من نجاحها ، وبطرف رمحه التقط عباءة وخمارا ، وانطلق فى الاتجاه المضـــاد وهو يخفى الثياب فى كنانته وجرابه .. وفى غبش الغروب .. فى اللحظات الرمادية التى يعجز المرء فيها عن تمييز الالوان والقسمات ، رأى حراس الباب امراة محجبة ، تتعثر فى مشيتها وتسير الى جانب السور من خارج ، فنهرها احدهم لتبتعد .. ولم يفطن اى منهم الى أن (المراة) كانت قد قفزت السور منذ لحظات هاربة من موت محقق !

ولما اكتشفت الحيلة فى الصباح هدر الاغا كالجمل الهائج ، وجلد حراس الباب والفارسين الموكلين بجلال الدين فخــدعهما . وبعـــث الى والده من سامه سوء العذاب وحول داره الى قطعة من جهنم ، ولم يتنازل عن رغبته فى امتلاك سماح ، واخذ يفكر فى حيلة جديدة ...

أما جلال الدين فقد ظل هائما على وجهه بضعة أيام .. وكـــان رائده فى هربه أن يبتعد ما امكن عن منطقة نفوذ الاغا .. وكان فى انطلاقه الذى لايعرف له غاية سوى الفرار من الموت ، يفكر فى تلك الاحداث القاسية التى تواردت على حياته فى سرعة مذهلة .. حديقته التى نما فيها حبه ، والقاهرة ، ورفاقه فى الازهر ، وسليمان ، وســماح ، وقطع التفاح الدافىء .. ها هو ينجو بحياته ويتركهم لرحمة الاعداء .. فما اقسي الحياة !!

واخيرا بلغ مدينة رشيد ، ورأى لاول مرة ، ماء أزرق شفافا يمتدالى حيث لايحده شاطيء آخر ، واعجبه منه أنه لا يخضع للمماليك ، ولا يقع فى حوزة الاتراك . العاملون فى البحر أحرار كأمواجه السابحة . وهكذا انضم الى عمال قارب صيد كبير يأخذ طريقه كل فجر بين رشـــــيد والاسكندرية .

ولكن كم ذكرته زرقة البحر بعينين حبيبتين رأى فيهما صــــورة حبه .. وكم أهاجته ومضات النجوم فى السماء الحالكة بينما القارب منطلق يجر الشباك وراءه ، كم أهاج ذلك أشواقه وسارع من دقـــات قلبه ، فذكر على الفور موقفا فريدا ذات أصيل عند مدخل الحديقـــة وصبية نضرة كالزهرة تقذف بحجر ، لعله أن يخدع عن حقيقة حاله فيرمى ببصره الى أعلى ليرى موقع الحجر من عنقود البلح ، فلا يجد الا الصارى الضارب فى الظلام والراية المصرية من فوقه خفاقة .. ولا يملك الا أن

ينكب على الاعمال اليدوية الشاقة ملتمسا العزاء فى انهاك بدنه .. لعل جراحات الجسد تطغى على جراحات القلب .

***

لم يكن يؤنس قلبه الموحش فى غيبة احبابه الا وجود « عطية الدمنهورى » ، ذلك الشاب الذى يقضي ليله كله قابعا الى جوار الدفة يطلق الآهات والليالى فى رقة تشف عن قلب هائم ، ويتحدث فى مواويله عن « شلبية » التى سلبت قلبه ولا سبيل اليها ، وقال له جلال الدين مازحا :

ــ اليس عجيبا ان تعجز عن صيد شلبية وانت شيخ الصيادين !؟

فعقد عطية يديه على ذراع الدفة وكأنه يعتصره من الاسي وتغنى فى نبرات حزينة تثير الشجن .

فايت على قنطرة لعب السمك فيها
نزلت اصطاده شكتنى شلابيها
اصطدت شلباية وقلت:العصر أشويها
ضحكت ولعبت ، ولا وقع النصيب فيها..

ولاحظ جلال الدين ان صوت رفيقه حين ردد كلمة (النصيب) قد اختنق بالبكاء ، فكبرت فى راسه هذه الكلمة ، وراى (النصيب) وكأنه شبح ضخم متسلط على مقادير البشر .. فزحف على ركبتيه حتى التصق بصاحبه وهو يتمتم :

ــ انى جريح مثلك ياعطية ، انه النصيب أيضا ..حكمتك يارب .. !!

فانحدرت دمعة سخينة على وجنة عطية لحظها صاحبه برغم الظلام ، فربت كتفه فى حنان وهو يقول وكأنه يعزى نفسه :

ــ هون عليك ياصاحبى . فهذه طبيعة الحياة ، اشياء تسقط فى شباكك ، واخرى تسقط فى شباكها ..

وقال جلال الدين فى نفسه : اى ظروف غريبة جمعت بينى وبين هذا الفتى !! كلانا مصاب ، وكلانا بحث عن سلواه فى حياة البحر الشاقة ..

ومنذ ذلك المساء صار عطية الدمنهورى صديقا لجلال الدين .

وفى امسية ظلماء لاحت بداية سرب ضخم من السردين النادر ، اكتشفه عطية القابع عند الدفة ، وانهى خبره الى « ريس » القارب ، فحثهم على تتبعه . كان البحر هائجا والظلام كثيفا ، والسرب يتجه نحو الشمال الى عرض البحر ، فخاف الرجال ، ولكن مكافأة ضخمة جعلتهم يبذلون جهدهم ، وفى ساعات حرصهم على النصر نسوا انهم ابتعدوا عن الشاطىء كثيرا ، ولكنهم ادركوا ذلك فجأة حين رأوا سفينة ضخمة تتجه اليهم متسربلة بالظلام ، ثم تضيء فجأة فتغمرهم بنور باهر يغشي أعينهم ويجعلهم عاجزين عن تغيير اتجاه قاربهم . وأدركوا على الفور ماهم مقبلون عليه . وفى لحظات خاطفة انتقل الصيادون الثمانية الى سفينة قرصان مالطة الذين جعلوا دابهم خطف المصريين .

* * *

وفى احدى سفن القراصنة ظل جلال الدين ورفاقه منكبين على المجاديف سبعة أشهر كاملة يعملون بلا توقف . وفى تلك الاشهر التعسة صمت عطية الدمنهورى عن ارسال « مواويله » وآهاته ، وعن مناجاة الشلبية التى وقع فى شباكها .. ولم يكن جلال الدين يحدثه عنها ، لانه لم يكن فى منفاه وحيدا .. كانت صورة وجه سماح تملأ صفحة البحر امامه .. لكن وجهها لم يكن فى تلك الايام على صورته النضرة الضاحكة التى رآها فى الحديقة .. كان وجها باكيا حزينا .. كانت الامواج العاتية تتمثل على صفحة البحر الذى ملأه وجه الحبيبة وكأنها دموع تتفجـــر فتنبىء عن قلب أحرقه الحب الحزين ، وقد استأثر هذا الخيال بلب جلال الدين حتى انه لم يحس بلذع السياط التى تنهال عليه وعلى رفاقه وهم يعملون ، ولم يرعشه التوعد بالاحراق من أولئك الحاقدين .

وفى أمسية حالكة ، مثل التى وقعوا فيها فى الاسر ، افاق الربان على عدد لايحصي من السفن الحربية الضخمة يحيط به وبجزيرته فاقبل على الرجال متوسلا اليهم أن يدافعوا عن السفينة ، فأعرضوا عنه .. الم يكن هو سبب نكبتهم ؟! لكنهم اذ يذكرون تلك النهاية بالامس يذكرون سببها .. لقد اتسع لهم صدر البحر حين ضاقت بهم ســـهول وطنهم ونجاجه بفعل المشردين من شـــــذاذ الارض أو الطامعين من اتباع آل عثمان .

واستسلم قائد السفينة .. ثم استسلمت الجزيرة للمنتصر .

* * *

بعد ساعات من سقوط الجزيرة وقف القائد الظافر يتحدث الى الاسرى العرب :

« ان جمهوريتنا قامت على الحرية والعدل وتريد ان تنشر ذلك فى كل بلاد العالم ، وانا مسلم مثلكم .. وهذا القرآن فى يدى ، وانا اومن بالله واحد وانا احترم نبيكم وسلطان المسلمين ، وانا الآن متجه الى مصر لأحررها من المماليك الظلمة الذين اهانوا رعايا الجمهورية ، وسآخذكم معى ، فقولوا للناس ان الفرنسيين مسلمون ويحبون الخيــــر لوطننا ، ويكرهون المماليك ويحكمون بالعدل ولن ينالكم منهم أى شر » .

« اى دجال كبير هذا الرجل » !؟ هكذا قال جلال الدين فى نفسه وهو يستمع الى خطاب الجنرال بونابرت ويحاول أن يصل الى ما وراء السطور ، ولم يجد فى كل ذلك الا معنى واحدا : ان بونابرت قد حررهم من أسر قرصان مالطة ويريد منهم الثمن .

واخذ جلال الدين مكانه فى السفينة التى تقصد مصر وهو يعجب لهذا الجنرال القصير الذى يخدع نفسه ويظن ان المصريين هم المخدوعون!!

ومضت السفينة الفرنسية التى تحمل المصريين تتبختر بين قطع الأسطول لتريهم مدى قوة الجيش الذى سينزل بلادهم ليكونوا منذرين لاهليهم بسوء المصير ان هم فكروا فى المقاومة .

وكان جلال الدين يرقب السفن المتتابعة وهى تموج بالجنود ، والمدافع الضخمة الرهيبة . وانقبض قلبه لما يرى من قوة العدو الجديد ، وساءه ان يحس بالضآلة امام خصمه ، فرمى المدافع بنظرة ساخرة وهو يقول فى نفسه : متى حاربت مصر وكان عدد المحاربين موضع الاعتبار !؟ ان المماليك لايزيدون على عشرة آلاف ومع ذلك فقد اكلوا خيرات البلـــد واذلوا اهله وحرموه العلم والقوة .. وها هو وطنى يستهدف لشر اعظم من شر المماليك والاتراك معا ، واذا كان الغزاة الجدد يحاولون قهرنا بقوة العلم فاننا سنقاومهم بقوة هى فوق قوة العلم : بقوة الايمان ..

وجاءه عطية الدمنهورى باسما ، فزجره جلال الدين قائلا :

اترى ان الوقت ملائم « للمواويل » السخيفة !؟ فانطفأت الابتسامة التى كانت على وجه عطية وقال فى أسي :

ــ سامحك الله ياصديقى .. وهل سمعتنى اغنى منذ أسرتنا سفينة القرصان ؟ ان قلبى يعيش فى مأتم كبير ..

ــ فما معنى هذه الابتسامة البلهاء اذن ؟

فقال (وقد أسترد شيئا من طبيعته المرحة) ــ آه .. انها التعليق على للخطبة البليغة التى قالها الجنرال !

ــ فقد أعجبتك اذن ؟

ــ جدا .. أما رأيت الشهامة التى استولت على القائد الشاب ؟ لقد جاء من فرنسا ليزيل عنا ظلم المماليك حبا فينا !

فاطمأن جلال الدين الى أن الحيلة لم تجز على أحد من رفاقه . وبعد ساعات أخذت السفن طريقها الى مصر ، ومشاعر متضاربة كثيرة تعتلج فى قلب جلال الدين .. انه عائد .. لكن على نحو لم يخطر لهبال! ترى ما مصير هذه العودة ؟ وهل سيلتقى بسماح ؟

—*—

بعد أن انتهى بونابارت من خطابه ، أمر بنقل المصريين الى احدى السفن ، وبتوزيع المنشورات عليهم وبأن تمر سفينتهم حول أسطوله ، وقد اعتبر انه بذلك حقق نصف النصر ، فأحس بالرضا عن نفسه وهو يستدير راجعا الى جناحه الخاص فى سفينة القيادة ومن خلفه ياوره « جينو » ، ومن حوله أركان حربه وضباط قيادته .

وعندما وصل اعاد القرآن الى مكانه فى مكتبة السفينة وقال لضباطه وهو يشير اليه :

ان لهؤلاء القوم تقاليد ومثلا قد لانرضي عنها ولكن يجب أن نراعيها فلا نعتدى عليها ، انهم — ونحن نقترب من القرن التاسع عشر — مازالوا يحرمون على المرأة أن تتخذ لنفسها خليلا ، ويرون ذلك فضيلة وتدينا .

ثم قال بعد لحظة صمت :

اننا أبناء الثورة سنقنعهم بمبادئنا ، ولكن يجب أن نسايرهم فى بادىء الامر ليطمئنوا الينا .

ووقف بونابرت فوقف الضباط جميعا ، وادوا التحية وانصرفوا .. وبقى الجنرال وحده ، والملازم جينو واقف بالباب .

واستلقى الجنرال على أريكة فى طرف الديوان الواسع ، واتخذ وضعا مريحا مسترخيا .. وبعد لحظات خدر جسمه وصار فى حال بين اليقظة والنوم . ورأى نفسه قد نزل شواطىء مصر ، وأطلق أسرى مالطة ، فمهدوا لقدومه بما اذاعوا عن مبادئه واغراضه وبما حدثوا عن قوة جيشه وضخامة عتاده ... ورأى حقول مصر الممتدة وقراها المتناثرة والناس يهرعون اليه فى جماعات تحيى الظافر ، فيقضي على المماليك فى ضربة واحدة ثم يزحف الى الشام ، ثم يفتح تركيا ، ثم الهند .. وحينئذ يكون قد ضرب انجلترا الضربة القاضية ، ويكون الطريق مفتوحا أمامه لسيادة ممالك أوربا .. وبذلك يستطيع العودة الى باريس عن طريق فيينا ؟

ورأى نفسه فى مصر وقد ارتدى الثياب العربية الفضفاضة ، ووضع على راسه عمامة من حرير الشام ، وركب جملا اشهب ، واخذ يجرى به حول الهرم والناس من حوله تهتف له ، ومصحف فى يمينه قد الفه هو وآمن به الشعب .

ورأى نفسه يجوس خلال ممرات الهند على فيل ضخم والعمامة اللامعة كالهالة المضيئة فوق راسه ، وعلى جبهته ماسة ضخمة يخطف بريقها الابصار ، والمهراجات ينزلون عن عروشهم ليعلنوا له الولاء !

وبعد أن عاد الى باريس تملكته حيرة عظيمة ..

من أين يحكم العالم ؟

« سأحكم العالم من مصر ! سأكون أول حاكم أوربى لها فى تاريخها العربى ، وهذا حلم داعب خيال الملوك منذ الحروب الصليبية » . وعاد الى مصر ، وبنى له عرشا بين قدمى أبو الهول « ان تمجيد تاريخ هؤلاء الناس يمكن أن يأتى بثمار مدهشة » . وكانت قوائم العرش من أرز لبنان ، وكسوته من مخمل دمشق ، وشعار التاج فوقه من ذهب مهراجات الهند . وفى يوم التتويج الاعظم اجتمع حكام الممالك جميعا للاعتراف به سيدا للعالم ، وجلس على العرش ولبس التاج تحيط به ابهة الملك وعزة الانتصار ، ولكنه عندما قام ليبدأ موكب التتويج سيره فوجىء بمسمار خبيث يظهر من ثنايا المخمل الدمشقى ويتعلق بردائه فيشقه من خلف الى نصفين !!

ويظهر الارتباك على وجه بونابرت وتتملكه حيرة عظيمة ، ويخشى أن يشيع الامر ، وينظر الى قواده المصطفين خلفه لعلهم يوارونه حتى ينسحب ، ولكنه يجدهم مستغرقين فى ضحك مرتفع وكأنهم فى حانة ! ويراهم بثيابهم العسكرية الانيقة فيشملهم بنظرة مغيظة ولكنه يفاجأ بأن أقدامهم عارية ، وبأن قبعاتهم العسكرية فى أيديهم وقد امتلأت بالخمر يتقاذفون بها فى استهتار ماجن !! .. ويحمى غضبه فينسى موقفه ، ويستدير اليهم ليصفعهم ، ولكنه فى حركته الفجائية تلك يستيقظ من اغفاءته وعلائم الانزعاج تلوح على وجهه المتقع ، فلا يملك الا أن يهتف بياوره جينو أن يدركه بشربة ماء ..

وتعجب بونابرت للرحلة الطويلة العنيفة التى قام بها .. ولاح له خاطر مقبض .. ما معنى هذا المسمار ؟ .. « لعله الموت يعقب بلوغ المنى ويهدم اللذات فى ذروتها .. وأى ضير على بونابرت فى أن يموت بعد أن يسجد له العالم !؟ » .

وبعد لحظات كان جينو قد اقبل بكوب الماء فشربه الجنرال دفعة واحدة ، ثم التفت الى ياوره — وكان لايزال يحس بانقباض تجمدت له قسمات وجهه — قائلا :

— تعال ياجينو الى جانبى اننى فى شوق الى حديثك .. اجلس .

وجلس الياور وقد انبسطت أساريره لما يلقى من مودة قائده ، واستطرد بونابرت متمازحا وهو يهش له :

— حدثنى عن آخر الانباء الضاحكة فى جيشي .

— ان جنودنا مصرون على أن يحشوا مدافعهم بزجاجات الخمر ، ويرون أن المصريين حين تتساقط الزجاجات عليهم سيسرعون الى جمعها وشربها ، ويدعون أصدقاءهم شجعان فرنسا الى نخب الصـــداقة الجديدة .

وضحك الجنرال ضحكة مصطنعة وفكر مليا . ثم قال :

ان جنودنا لايفهمون عدوهم كما ينبغى ، ان المعركة بيننا وبين المصريين معركة التقدم العلمى وكفاية القيادة .. ان مدافعهم لاتطلق الا فى الاعياد .. تلك جناية تركيا ينفذها المماليك و ..

وتنبه القائد الى أنه وقع فيما حاول النجاة منه ، وهو الحديث عن الحرب والقتال ، فاستدرك متراجعا الى طريقه الاول :

— كان على مدير توريدات الجيش أن ينبهنا الى ذلك لنســتبدل بالبارود براميل العصير السحرى !!

فانتقل جينو الى حديث آخر ، وقد أدرك أن قائده لم يســـتجب بترحيب للمزحة الاولى .

— وهناك نبأ آخرقد يهمنا!! .. أعنى .. قد يهم« رجال» الجيش!.

— فهو نبأ معطر اذن ؟

— نعم ياســـيدى .. ولكنه يشيع بين الجنود بحـــذر وتكتم شديد .

ثم خفض صوته برغم خلاء القاعة وقال هامسا :

مرجريت زوجة الضابط مونتى وابنته الجميلة جوليا تنكرتا فى ثياب الجنود ورحلتا معنـــا من طولون ، ويزعم بعضهم أن كثيرات جدا من

معشوقات الضباط فعلن مثل ذلك ، وانهن لن يسفرن عن وجودهن الا فى مصر !

— أى مونتى فى ضباطى الذى تتحدث عنه ؟

— ذلك الشاب المتحمس دائما لمبادىء الجمهورية ، الذى يقسم أن القديسة جان زارته ووعدته بأن يصير ملكا فى بيت لحم .

— أوه .. عرفته ، انه الذى يسير دائما برفقة الضابط جوليان .

— هو بعينه يا سيدى .. انهما لا يفترقان .

— جميل .. ولكن الا يخشي ضباطنا علىنسائهم من فتكالمصريين ؟ انك خليق بأن تحذرهم ذلك ، وقد ارتكبوا خطأ كبيرا بفعلهم هذا .

— يا الهى .. ان هذا آخر ما نتوقع سماعه منك يا سيدى الجنرال اننا لا نتوقع من المصريين فتكا ، وجميع ضباطنا يعتقدون انهم مقبلون على رحلة جميلة فى بلاد الف ليلة وليلة ، وأولى بضباطنـــا أن يخافوا على نسائهم فتك السهرات الماجنة فى باريس .

ولاح لبونابرت خاطر مقبض .. ففى حين يشجع الضباط نساءهم على مصاحبتهم حرصـــا على حمايتهم ، ويتعرضـــون بسبب ذلك لخطر المحاكمة العسكرية ، ترك هو جوزفين هناكبعد أن فاحت رائحة سهراتها ابان حربه فى ايطاليا .

— بقى الشطر الثانى من النبأ يا سيدى الجنرال .

وتنبه الجنرال من شروده قائلا :

مــــــاذا ؟

— هناك جماعة من الضباط الذين لم يتزوجوا او لم يصحبوا زوجاتهم الفوا جمعية لخطف الزوجات حالما علموا بالنبأ ، ومونتى ، بدوره ، اخضع زوجته لحراسة شديدة ، ووعد صديقه جوليان بزواج ابنته جوليا ليثير حميته فى الدفاع عنها .. انه مضطر الى استدعاء قوات الاحتياطى لأن هجمات المغامرين كثيرة وحيلهم عجيبة .

— وهل بلغت جوليا سن الرواج ؟

— يا الهى .. انها عصفورة فى الرابعة عشرة ، اشهى من كأس خمر فى ليلة قمرية على سطح زورق يجرى فى السين الفضي !!

— الى هذا الحد ..؟

وتمهل قليلا ثم اردف مقطبا :

اذا التقيت بالضابط مونتى ابلغه ان اسرته تحت حمايتى وليهـدأ باله . ثم اكمل لنفسه وقد انبسطت قسماته : الآن كملتمعدات الحملة.. لقد تكهن هذا الرجل بما ينقصنى .

***

بعد بضعة ايام لاحت شواطىء مصر لسفن الغزاة ، وهلل الجنود وعانق بعضهم بعضا . وهلل المصريون الأسرى وعانق بعضهم بعضا ! وقلوبهم تجيش بمعنى واحد هو الحنين للوطن والفرحة بلقائه ..

وظلت السفن سائرة ازاء الشاطىء الى انبلغت مشارفالاسكندرية من الغرب فتوقف الأسطول ، وواصلت سفينة المصريين سيرها لتنزلهم أمام الاسكندرية مباشرة .

وفى غروب اليوم الثانى من يوليو كانت أرض العجمى تموج بآلاف من الجنود الفرنسيين الذين يستعدون لمهاجمة الاسكندرية .

وكانت مدينة الاسكندرية قد تنبهت لما يراد بها فجددت أسوارهاعلى صورة عاجلة ، وبدأت دوريات من أهل الثغر وعربان الضـواحى تدور حول السور ، وطوابى المدينة اخذت أهبتها فى انتظار لحظة العمل .

وزعيم الاسكندرية « كريم » لا يستقر فى مكان ، فهـو بين طابية قايتباى ، وقـوة الميناء ، وحاميات السور ، ونقط الدفاع الامامية .. لايكاد يتوقف .

فى تلك الساعة ذاتها كان مايقرب من مائة وخمسين رجلا ينزلون من السفينة الفرنسية . وما كادت اقدامهم تمس أرض الوطن حتى القوا بمنشورات الجنرال فى البحر ، وسجدوا جميعا لله فى خشـوع يقبلون أرض الوطن .

—*—

- ٧ -

ماكادت انفاس الصباح الأولى تتردد حتى انطلق السائق بعربته المغلقة التى يجرها حصانان أدهمان قويان ، انطلق على الطريق الزراعى المحاذى لبحر اشمون ، وكان المسافرون الأربعـــــة يجلسون فى صفين متقابلين ، وما زالت آثار النوم عالقة بأهدابهم وهم يقاومونهـــا بالتطلع الى مآذن المنصورة التى كانت تتضاءل كلما زادت العربة فى توغلها على شاطىء النهر ، متجهة الى الشرق ، ولم يكن الحصانان — برغم مظاهر القوة البادية عليهما — على جانب كبـــــير من النشاط .. فالرحلة قد طالت .. والطريق ترب ، والندى يكســـــو وجه الارض فيجعل انزلاق العجلات عليها أمرا صعبا .

كانت سماء ذلك الصباح الأول من يولية سنـــــة ١٧٩٨ صافية كأكثر أيام الصيف فى مصر ، وكان نور القطن — وقد غســـله الندى — يرسل شذا حلوا منعشا — كما انه يرسم ، الى مدى البصر — بساطا اصفر توشيه الوان اخرى من النبات ، ويرسم الأفق الأزرق حاشية بديعة لذلك البساط الذى يمتد امام العربة كلما اوغلت فى السير .

وبرغم جمال الطبيعة ، ونسائم الصباح التى تداعب ستائر العربة كان سليمان العايدى منصرفا الى نفسه ، مغتما بالتفكير فيما هو مقبل عليه ، ومسافر من أجله

كان متكئا على حافة النافذة ، وقد ازاح الستار قليلا ، وراح يجيل طرفا حزينا فى الطبيعة الباسمة وهو يسائل نفسه : « ما قيمة هذا النبأ بالنسبة لهم الآن !! ؟ لقد فقدوا كل شيء تقريبا ، وكلما حاولت أن أحيى فى نفوسهم الأمل زاد اقتناعهم بالفكرة المضادة .. والزمن يساعدهم على ذلك ، ها قد مضي عام أو يزيد ولم نعلم شيئا عن « جلال الدين » ولم تنقطع من أجله الدموع ! » .

ذلك ما كان يتأمله سليمان العايدى فى عودته من القاهرة قاصدا التباب ، وهو يطل فى متنفس الصبح من شباك العــــربة المنحدرة على

الطريق ويحمل فى صدره نبـــا اختياره مدرسا فى الأزهر ، ويتمنى لو يستطيع أن يطير ليخبر عمه بالنبأ ، وبأنه جاء لحملهم خفية معـــه الى القاهرة ليضمن لهم العيش ، وليجنبهم ما يلاقون من ذل وازعاج .

ولكن هل ينسيهم ذلك فقيدهم !؟

هيهات !!

وكان يثقل على سليمان احساسه بان أخته (سماح) هى اقوى اسباب طمع شاهين أغا فى القضاء على جلال الدين ، فلو أن الأمر وقف عند تحريض مملوك القاهرة لأمكن رشوة الأغا ..

***

وقد بدت دار العايدى لسليمان — الذى لم يرها فى محنتهـــا من قبل — كالثوب القديم الفضفاض الــذى يلبسه متســول بائس خاصمته العافية .. نصل لونها ، وذهبت بهجتها ، وسيطر عليها خلاء ووحشـــة وصمت كئيب يبعث فى النفس الخوف والألم .. فلما التقى بأخته وعمه وعمته اكتملت أمامه الصورة لمعنى الشقاء والضياع والعيش بلا أمل .

واختلطت فى موقف اللقاء البسمات الحزينة بشهقات الألم .

وقال سليمان وهو يغضي ببصره الى الارض : لقـــد آن وقت الرحيل ياعمى .

وتفكر الشيخ مليا قبل أن يسأل : أليس هناك حل آخر ؟

وتلفت حواليه فرأى معالم الفقر والتعاسة تبدو على وجه زوجته الضامر ، ووجه سماح فى صمته الحزين وقهــره المكبوت يبدو أشـــد تعاسة . فعاد يقول : أترى ذلك ممكنا ؟

— ولماذا لايكون ممكنا ؟ لقد تكفل رجال الأغا بأثاث البيت ومخزوناته ، فسرقوا ما شاءوا وحطموا الباقى ولم يعد فى الدار ما يثقل حمله .

— والأرض ... !! ؟

فانفجر سليمان حانقا برغم هدوئه المأثور : الأرض !! هل قالوا لك يوما انها أرضك ؟ لقد مات فيها أبوك وجدك الى آدم ... ، هذا مفهوم وكلنا نعرفه ، ولكنهم لا يقرون ذلك .. لتذهب الارض الى الجحيم اذا كانت ستحيلكم الى هيكل أشبه بالمتسولين !! فاستسلم الرجل للثورة المباغتة من ابن أخيه ، ولكنه قال فى هدوء حزين .

— لم أرد ذلك حين تحدثت عن الأرض ، انها ارضي برغم ادعائهم وظلمهم ولكن أترانى أستطيع أن أحيا بدونها ؟ .. انهـــا بالنسبة لى كالماء للسمك .

— أنت ياعم لاتستطيع أن تجد ذلك الاحســاس عند مجموعة من من الأفاقين يباعون ويشترون ، ويتعلـــق مجدهم بقدرتهم على الفتك والظلم ..

فتساءل الرجل فى تردد : اترى أن يد شاهين لن تصـل الينا فى القاهرة ؟

فقال الشاب فى حزم : وحتى لو جاء الى هناك فانه لن يستطيع فعل شيء ، ان علماء الازهر هم الصرح الباقى الذى لم يتداع أمام الظلم والجبروت .

فقال الرجل فى استسلام وهو يزفر كأنه حائط ينهار : ومتى يكون الرحيل ؟

— أرى أن يكون فجر الغد قبل أن تصل أخبارى الى رجال الاغـا فيفطن لما دبرناه ..

— اذن .. أعدوا لوازمكم الى أن أودع بعض الأصدقاء .

كان النسيم فى اغفاءة المســـاء ، والحديقة ساكنة خربة لايزال سياجها محطما من يوم أن اقتحمه الفرسان ، وكم عز على الشيخ المحطم أن يراها وقد جفت فيها معالم الحياة .. الاشجار مقتلعة ميتة ، والاوراق جافة متناثرة فى أرضها تعبث بها الريح فترسل خشخشة تزيد الاحساس بالوحشة والأسي ، لا اثر لاريج ، لا ظل لثمر .. لقد غابت عنهـا اليد الحنون التى كانت تمدها بالحياة .

وحول الحديقة الخربة كان نور القطن يبدو فى ضــــوء النجوم الشاحب أسود باهتا ، وبضع فئران تتواثب عنـد الساقية .. وانحنى الشيخ على الأرض فملأ كفيه من حصاها ورفعه الى فمه فقبله ، وتعلقت عيناه الدامعتان بالسماء وتسارعت دقات قلبه وهو يستجمع أشتات ذهنه الشارد وراء الذكريات ليدعو ربه ، ولكنه قبل أن ينطق تناهى اليه صوت مؤذن القرية يدعو لصلاة العشاء .. قويا رائقا صافيا حتى لكأنه يأخذ طريقه الى عرش الله .

« الله أكـــبر ... الله أكـــبر » ..

ولم ينطق الشيخ .. انحنى فأعاد حفنة التراب الى مكانهـا فى حنان وكأنه يعيد وليده الى مهده . وانصرف ، وفى قلبه خشـوع ، وفى عينيه دموع يعز عليه أن تسيل .

***

وعند الفجر كانت اشباح اربعة تأخذ طريقها خفية متجهـة الى الشرق قاصدة دكرنس ، رغبة فى البعد عن منطقة سلطان الأغا ، ومن هناك ركبوا عربة صاعدة الى القاهرة .

وقد عاش كل منهم فى دنياه الخاصة طوال الطريق ، فلم يتبادلوا الحديث الا قليلا .. وكانت مهمة سليمان صعبة شاقة ، اذ اخـذ على عاتقه تبـديد حوالك اليأس المتراكم حول قلوبهم ، والمسـتولى على افكارهم .. وحاول أن يوقظ فيهم أمل العثور على « جلال الدين » حيا ، ووعدهم بأن يوسط العلماء عند « شاهين » أغا ليخبرهم بالنبأ اليقين عن مصيره . !

ومضت الساعات طويلة ثقيلة صامتة ، والعربة تنطلق بهم صوب القاهرة . وعند العصر بدت مآذن المدينة الكبيرة من بعيد تشق السماء .. والمدينة الضخمة جاثمة بين أحضان المقطم فى اعتزاز ، فارتعشت قلوب ركاب العـربة بمعان حزينة .. صاخبة ..متعارضة . وسالت دمعة من عين « سماح » رآها أخوها ، فأراد ان يشغلها بالحديث حتى لا يتركها لما استبد بها من اشـجان ، وحتى يشـغل الآخـرين عن التفكير ، لكنه سمع فى تلك اللحظة ضجة عظيمة — كما سمعها من معه فى العربة — فرفع الستائر عن الشباك فرأى الافق يضيق بجموع الناس التى تزحم الطريق الى المدينة وتتراكم أمام الاسوار وتنطلق فى الحقول وكأنها أصيبت بجنون مفاجىء ، وصياحها وبكاؤها ونداءاتهـا تصم الآذان حين تنطلق وقد تجلى فيها الرعب والهوس .

دار رأس سليمان سريعا ، وظن أن تكهنات ابن عمه قد تحققت ، وان الشعب قد أعلن الثورة على المماليك ، وأوشك ان ينسي مشاعره الحزينة ، ويلتفت الى عمه مهنئا .. ولكن السائق الـذى كان يعتلى المقدمة كان يجد فى سيره وقد شغله ما يرى ، حتى اذا اقترب من أول مجموعة من الناس توقف عن السير ، وسألهم عما حدث ، فرمقه أحدهم بنظرة نارية وهو يقول : لقد نزل الفرنسيون الاسكندرية ، وهم يزحفون الآن الى القاهرة .

ـــ والمـــــاليك !!! ؟

فرمقه الرجل بازدراء .. فعاد يسأل :

ـــ والأتراك !؟

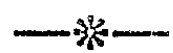
فقال الرجل وهو يواصل سيره : أنت غبى .. انهم يكتسحون كل شيء ، لقد قامت القيامة ..

وهنا فقد السائق صوابه .. ان اسرته فى السروجية لا يدرى ماذا حدث لها فى هذا الظرف العصيب ؟ ، وقد أصبحت مواصــــلة السير بالعربة شيئا مستحيلا وسط هذه الجموع ، فنزل تاركا العربة ، وأخذ يرتطم بهذا وبذاك وهو يصرخ مناديا اطفاله وزوجته والناس عنه فى شغل .

ونظر سليمان فوجد نفسه وحيدا حبيسا مع عمه وعمتهواخته داخل العربة وأيقن أنه لايستطيع البقاء على وضعه هـــذا طويلا ، والجموع الدافقة تزحف من حوله تبحث عن الأمان فى الريف ، فنزل من العـــربة وأمسك بيد عمته ، وأمسكت تلك بيد سماح التى امسك عمهــــا بيدها الأخرى .. وانطلقوا متتابعين فى الاتجاه المضاد لسير الجموع فلاقوا مشقات لاسبيل الى احتمالها ، وما كادوا يستظلون ببـــاب الفتوح حتى سمعت ضجة عظيمة ، وتعالى الصراخ والعويل .. وجرى الناس فى كل اتجاه يدهم بعضهم بعضا فلا يحفلون بالاطفال الذين يتردون تحت الأقدام خوفا من خيل المماليك التى تتجمع وتشق طريقهـــا الى خارج القاهرة تأهبا للمعركة ، وكثرت الضربات الطائشة ، وأقبل الفرسان من اتجاهات شتى بلا تنظيم يصرخون ويفرقعون بأسواطهم فيثيرون الرهبة والفزع فى النفوس ، ويجمعون الى خوفها من أنباء الغزو خوفا لايقل عنه شدة وهولا ..

وفى مكان التجمع ـــ عند الباب ـــ ضاق المكان بالفرسان ، فازداد غيظهم وتهاوت سياطهم تلهب الرءوس فى قسوة ، وفر الناس اشـــتاتا يبحث كل منهم عن مأوى يتوارى فيه ..

وفى لحظة .. بعد مرور الفرسان .. وسليمان يقبض فى عنف على يد عمته ويجرها خلفه ، التفت الى الوراء فوجد عمه يلهث محاولا اللحاق به .. ولكنه لم يجد (سماح) !



لم تكد كوكبة فرسان المماليك تمر ، وهى تصيح بالناس وتضرب رءوسهم بالسياط حتى تنبه سليمان العايدى الى ان اخته (سماح) قد ضلت منهم .

واستولى الجزع على ثلاثتهم ، واسرع سليمان بعمه وعمته الى دار تربية الزمهما بابها ، ورجاهما الا يبارحا المكان مهما طال غيابه ، وبذل جهد المستميت فى الوصول الى المكان الذى ظن انه فقد (سماح) فيه .

وانطلق مع الجموع الهاربة يسأل ويستقصي ويترقب .. بلا جدوى وبعد ساعات طويلة عاد الى عمه وعمته صامتا كابى الوجه ، فعرفا كل شيء ! وبعد لحظات استرد فيهــــا انفاسه سأله عمـــه : ماذا أنت فاعل بنا ؟

ــ سنمضي الى بيتى الذى اعددته لنزولنا .

ــ ولكنك ترى الناس يغادرون القـــاهرة خوفا من الفرنسيين ، وها أنت ترى المدينة بلا حامية ولا حراس سوى هؤلاء الافاقين ، الذين لايجيدون سوى ظلم الأبرياء ، واولى بنا أن نعود الى القباب حيث نبعد عن مجال الخطر ..

ــ لا ياعمى .. لست معك فى هذا ، ائذا اصابنى داء فى رأسي.. تستطيع أن تقول ان اصبع قدمى بعيدة عن مجال الخطر ؟ ان الأحداث تتحرك من هنا .. فلننتظر ..

ــ هل تنوى الاشتراك فى الحرب بالسلاح ؟

ــ وهل اتردد فى ذلك !؟

ــ وسماح !! الا تحتاج الى من يبحث عنها ؟!

ــ اننى لن اغفل البحث عن اختى ، بل انه ســــيكون شاغلى الأول ..

ومضي الموكب الحزين يواصل طريقه فى الشـــوارع المزدحمة بالأطفال والنساء وقطع المتاع الخفيفة ، حتى وصل بعد جهد الى البيت الذى أعده سليمان لنزولهم فى مواجهة مسجد « الحسين » !!

كم حرص سليمان على أن يكون بيته فى موقع جميـــل ، وكم رأى بعين خياله أخته (سماح) وهى تقف فى المشرفية كل أصيل تمتع عينيها بمنظر حلقات الصوفية الذين يتجمعون فى المسجد .

وكم رآها وقد رقت لفتها — كأهل القاهرة — والتفت بعباءتهـــا وبدت عيناها الجميلتان من فوق البرقع الذهبى ، وقد صحبها مع زوجها جلال الدين الى سهرة لمشاهدة الزوارق وهى تخطر فوق بركة الأزبكية بأضوائها الملونة فى عيد وفاء النيل !! .

ولكن اين جلال الدين؟واين سماح؟أفى الاحياء هما أم فى الاموات!؟ وأفاق من تأملاته على صوت ينطلق من خلفه متغنيا فى اسي : —

« لكل شيء اذا ما تم نقصان .. فلا يغر بطيب العيش انسان »

والتفت سليمان فجاة وهو يهتف : من ؟ . عم حنفى .

فقال الرجل وعلى وجهه بسمة حزينة : ومن غيره ؟

فقال سليمان متناسيا آلامه بابتسامة حيا بها الرجل : كيف حالك ياعم حنفى ؟

— حالى ! اقرأ حالى على هذه الوجوه الهـــائمة فى الطرقات وحدثنى أنت عنه .

فوجم سليمان برهة ثم قال : أنت يا عم حنفى ذو قلب كبير .

فقال الرجل فى نبرات خافتة جريحة : وماذا يجدى القلب الكبير أمام السلاح الكثير ؟ وتلاقت النظرتان ، وخيم على الحجـــرة جـــو كئيب مقبض ..

سليمان يفكر فى المشكلة الجديدة التى طغت على مشاكله جميعا : جلال .. سماح .. عمه الـــذى يكاد يسقط فريسة للمرض من هول ما يحدث . وأخيرا هذه النكبة الجديدة التى اطاحت بآخر أمل فى اعادة الحياة الهادئة الى هذه الأسرة .

وعم حنفى كان يرى الفزع الذى استولى على القلوب .. ومواكب الفارين تغادر المدينة مذعورة مهزومة ، لا أحد يفكر فى توقف أو دفاع .

وخرج حنفى من صمته قائلا : اقسم ان فى عينيك دموعا حبيسة ..

«ومهما تكن عند امرىء من خليقة..
وان خالها تخفى على الناس تعلم»..

ـــ ولكننى لن اخفيها عنك ياعم حنفى . أنت تعرف أن ابن عمى مفقود منذ عام بسبب عداء الأغا له ، وقد حكيت لك عن« سماح » .. آخر مراحل هذا العداء .

ـــ ولكنك ذهبت لتعود بمن بقى من الأسرة ليعيش معك هنا على امل ان يعود اليكم جلال الدين ؟

ـــ نعم .. وفقدنا (سماح) على ابواب القاهرة منذ ساعات .. وعاد الصمت الثقيل يجثم على الموقف . فقال عم حنفى : مادامت قد وصلت القاهرة فانها فى أمان الله ، وسأجعل دأبى أن أبحث عنها .. ولن يخزينى الله .

ـــ ولكن الأزهر .. هل تترك عملك ؟ انك ترتزق منه .

ـــ هل تظن ان الأزهر يفتح ابوابه لغير المحاربين فى هذه الايام ؟ اقسم لو أن مجاورا واحدا جلس فيه وقرأ بيتا واحدا فى الالفية الآن لخرج عن ملة الاسلام ..

وشرب عم حنفى القهوة ، وخرج بعد ان اوصاه سليمان بالتردد على البيت لعلهم يحتاجون اليه ، وبرعاية عمه وعمته اذا اضطرته هو ظروف أن يغيب .

وقام سليمان فحكى لعمه وعمته طرفا عن عم حنفى ، ذلك العجوز الذى يعمل سقاء فى الازهر يمد المجاورين بالماء ويستمع للدروس فيحفظ قصائد كثيرة ، فلا يكاد يسمع حديثا أو خبرا ، ولا يرغب فى حديث ، الا وعقب عليه ببيت من الشعر الرصين !، وبشرهما بأنه حمل على عاتقه البحث عن « سماح » .

ولم يكد سليمان يتم حديثه مع عمه وعمته ويأخذ اهبته ليبارح الدار حتى جاءه عم حنفى راكضا مرة اخرى . وبادره سليمان هاتفا : ما وراءك ؟

ـــ سقطت الاسكندرية .. جاءت بذلك الاخبار الآن ، نزل الفرنسيون فى العجمى وهاجموا المدينة فجر أمس .. وبرغم الدفاع المجيد فان ضعف التحصين ورداءة المدافع أنهى المقاومة .. وقد جرح

قائدان من قواد بونابرت وكاد هو نفســـه يلقى حتفه على يد امراة فى احد الأزقة .

— والسيد محمد كريم ؟

— وماذا تفعل الاسكندرية .. ان لم تكن معها القاهرة !

— فقد استسلم اذن ؟

— لقد دافع دفاع الأبطال الشرفاء ، واسر وســـــــلاحه فى يده يقطر دما ..

— وباروخ ؟

— مثل كل اليهود . ظل يخدع (كريم) ويطمئنه بأن فرنسا لايمكن أن تقدم على غزو مصر ، وبأنه هو نفسه على صلة سرية ببعض الضباط الذين أكدوا له ذلك . والآن يعلم الله موقفه .. ان خديعتنا مرة ونجتاز زمنا لا صديق لنا فيه ..

— وما صدى ذلك فى القاهرة ؟

— مزيد من الذعر ، ومزيد من الخلافات بين المماليك .

— الخلاف ؟ ! أهذا وقته ؟

— ليس للخلاف وقت عند المماليك ياسيدى انه فى دمهم . فبينما يرى مراد المسارعة لملاقاة القادمين فى الطريق ، يصر ابراهيم على ان يظل جامدا فى القاهرة لايتحرك ، ويأخذ كل منهما موقفا منفردا على النيل .

— والباشا العثمانى ؟

— يعد احتجاجا بليغا على انتهاك حرمة أراضي السلطان ادام الله ظله . فتدخل العايدى فى الحديث سائلا فى ثورة : والشـــــعب ؟ .. الناس .. اين ؟

— الشعب ! اين عقله وثبـــاته ؟ .. رأى حكامه ينقلون خزائنهم ونفائسهم الى السراديب والأماكن الخفية .. فاقتنع بأن الهزيمة نازلة لا شك فيها ..

وتناقص حماس العايدى وهو يتساءل : والزعماء ؟ . طالما سمعنا عنهـــــم ..

ـــ الزعماء ، اى زعماء ؟

ـــ السيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، وسائر المشايخ

ـــ أنت حسن الظن ياسيدى .. لقد اعتاد زعماؤنا أن يتواروا خلف ستائر الحرير ، ويتطيبوا بالمسك ، ويقتنوا الجوارى ، ولا يحركوا أيديهم الا ليقبلها الناس تبركا .. لم يعد لهم صبر على غبار المعارك.. كنا اذا لجأنا اليهم فى شكاة صرفونا ثم ركبوا عرباتهم وذهبوا الى شيخ البلد فشربوا قهوته وحدثوه حديث الصديق للصديق ، فيقبل منهم الرجاء ولا يعترف لهم بحق .. انهم فى واد .. والفقراء مثلى فى واد سحيق .

فقال سليمان : لاياعم حنفى ، أنت تظلمهم ، لاتجعل حرج الموقف يطغى على الحقيقة ، فكم من مرة قاد المشايخ الثورات ضد مراد وابراهيم ورفضوا دخول داره أو الجلوس معه الا ان ينزل على حكمهم ، وكم عطلوا الدروس فى الازهر احتجاجا على الظلم .. وسترى مايفعلون.. هيا بنا قبل أن يهبط الظلام .

***

ظل سليمان منطلقا فى طريقه وعم حنفى يركض من خلفه ويجد مشقة فى اللحاق به .. وكانت شوارع المدينة اضحت مثل سوق كبير يصعد ضجيجا يصم الآذان . وكانت انباء سقوط الاسكندرية موضوع كل حديث ..

وامتد طريقهما الى منزل السيد عمر مكرم . وهناك وجدا خادمه وبعض عمال مزرعته يوزعون الرماح والبنادق على من يقصدهم من الرجال . وعرف سليمان ان السيد فى القلعة .

وقصد سليمان القلعة فوجدها وقد أحاط بها الآلاف من الرجال وكل حديثهم حول المعركة القادمة .

وشق سليمان طريقه بصعوبة وسط الجموع ، وعم حنفى متعلق بثيابه يأبى أن يتركه ، الى أن بلغا مجلس السيد مكرم .

***

كان السيد جالسا فى « ديوان » صغير ومن حوله بعض المشايخ والاعيان وبعض أولى الرأى من أبناء أحياء القاهرة المختلفة ، وكان يتكلم فى مهابة وثقة تنم عن تجربة طويلة .. « لقد خسرناها مع المماليك

فى الاول والآخر .. والباشا التركى لايستطيع أن يغادر حجرته الا اذا أمره السلطان ! وحتى يأتى الترياق من العراق يكون العليل قد مات .. وقد بلغنى أن الاسطول الفرنسي دخل ميناء الاسكندرية وهناك بارجة عثمانية لم تحرك ساكنا .. »

وتصاعدت همهمات الاحتجاج من جوانب القاعة الكبيرة ، فدق السيد بكفه حافة الديوان ، ثم رفع صوته قائلا : « أعرف أنكم تسألون عن الحل ، فهو مايجب أن يشغلنا الآن . ولتعرفوا من المبدأ أن المماليك لا اعتماد عليهم لانهم يرسمون خطة الفرار قبل أن يرسموا خطة الهجوم.. ولكنهم مع ذلك اكثر دراية بالحرب منا ، فلا بد من التعاون معهم .. لعل ذلك أن يثبتهم عند اللقاء . والآن أسألكم : كم عندكم من الرجال ؟ »

وانطلقت الاصوات من جوانب القاعة الكبيرة : « كل أهل القاهرة من القادرين على القتال !» وأغمض السيد عينيه فى تشكك وقد اكتسي وجهه بابتسامة وقور ، وقال :

ــ ان المصارحة خطوة ضرورية لتنسيق الدفاع حسب امكانيات المدينة .. حدثونى عن الفارين وعن الباقين ..

ــ ياسيدى .. لم يفر الا النساء والعجزة .. كل الرجال فى المدينة . وتنبه السيد لموقف سليمان العايدى وكان يعرف وجهه ــ وان لم يعرف اسمه ــ ابان زيارته للازهر ، فتقدم سليمان وصافح الشيخ الذى قام بدوره الى حجرة جانبية فى القاعة ، ووقف على بابها وأمسك بمقبضه ثم اتجه الى الجماهير المحتشدة قائلا :

« باسم الله وعلى بركته نحمل الراية ونتقدم »

وتعالت الصيحات فى أرجاء الميدان الكبير تهز الافق هزا ، يضاعفه من رهبتها وميض السلاح على أضواء المشاعل التى أحالت الميدان الفسيح الى لجة من النار .. والنور .

وتقدم السيد فحمل البيرق المصرى وخرج الى الميدان تتبعه الالآف المسلحة الى حيث يتم توزيعهم على مناطق الدفاع .

تذكر سليمان أن غيبته طالت على عمه فاستأذن السيد فى الانصراف بعض الوقت ، وما كاد يفلت من ضجة الجموع ، ويقف وحيدا مع عم حنفى فى الخلاء ، وينظر خلفه فيحيط بالموكب الزاحف فى نظرة شاملة ، حتى رأى بحرا زاخرا يموج بالاجساد المتلاحقة ويفيض بالحماسة

واسنة الحراب تومض فى الافق كالشرر .. فاهتز قلبه بقوة وهو يهمس لنفسه : ياالهى .. اذا كان الليل قد جمع هؤلاء واوقد فيهم هذه الحماسة، فماذا تأتى به أنفاس الصباح !؟

وتطلع الى عم حنفى متسائلا فجأة : ماذا يمكن أن يتم ياعـــــم حنفى ؟

فقال الرجل على البديهة :

دار ابن لقمـــــان على حالهــــا

والقـــيد باق والطواشي صــــبيح

—*—

- ٩ -

كان السيد كريم يعرف أنه مقبل على معركة خاسرة ... ويعرف أيضا من الذى تسبب فى هذه النتيجة المؤسفة . فهو لا يستطيع أن ينسي أنه بعث الى مراد يطلب النجدة فسخر منه قائلا : ماذا تريد من اخافتنا من الفرنسيين ؟ ألم يكونوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ؟ انه ليكفينى اذا نزلوا ساحل مصر فى مائة الف من رجالهم ان أبعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رءوسهم بحد الركاب !! .. ، ثم بعث اليه — تطمينا لخاطره — بقنطار من البارود !! . ان خسران المعركة أمر محتوم ، ولكن الشرف المصرى يجب أن يبقى وأن يتوهج بالدم .

وتحت هذا الشعار النبيل قاتل كل المصريين فى الاسكندرية وأصموا آذانهم عن تخذيل القبطان التركى الذى مازال يخوفهم ويرغبهم فى التسليم .

وفى الجانب الغربى من المدينة كان بونابرت يقف على عمود السوارى يدير المعركة وفى داخل الاسوار كان جلال الدين ورجاله يقفون الى جوار أهل المدينة .

وقد وضع بونابرت يده على مواطن الضعف فى عدوه ، ألم يقل ان ماينقص المصريين هو ما توافر له من قوة العلم وكفاية القيادة !! واذا كان قد عرف أن مدافع مصر لاتطلق الا فى الاعياد ، فانه عرف مواطن القوة الحقيقية وهو الرجل المصرى نفسه ، والروح المصرية مجردة من كل سلاح وعتاد .. الا سلاح الايمان بالله وبالوطن .

وقد قاوم بونابرت هذا السلاح الرهيب بأن أعد لمهاجمة المدينة التى لايزيد عدد سكانها جميعا عن عشرة آلاف ، ولا يزيد عدد المدافعين عن الفين ، أعد لهم ستة آلاف جندى مسلحين بأحدث المدافع والبنادق والحراب .

ولم يشأ بونابرت أن يوقع المدينة كلها تحت شعور موحد حتى لاتتحد على مقاومته ، فركز هجومه على جانب وترك ثغرة مفتوحة لمن يريد

الفرار !! ولكن تدبيره جانب الصواب اذ كان السكان جميعا يهجمون على مكان الضرب ويسدون الاجزاء التى اسقطتها المدفعية من الســـــور بأجسامهم !!.

من أجل هذه المقاومة فقد الجنرال سبعين جنديا وثلاثة ضـــباط واصيب كليبر برصاصة فى رأسه ، واصيب مينو بحجر فى جبهته . وقد جعلهما ذلك يتخلفان عن ملاحقة الجيش فى بقية مراحل القتال .

سقطت المدينة جزءا وراء جزء ، ولكن الشرف المصرى لم يسقط.. ظل ممسكا بسلاحه الى النهاية ، وقبض على السيد كريم مع بقـــــايا المدافعين فى قلعة قايتباى . ولكن احدا لم يلحظ ان شابا وسيما فارها عليه غبار المعركة كان يقف الى جواره الى اللحظات الاخيرة فى عمليات الدفاع .. وانه شد على يده فى قوة وهمس له بكلمات ، وان الفتى ترك السيد ليلاقى مصير الاسر واستدار سريعا وربط بندقيته فى عنقه والقى بنفسه من سور الطابية الى مياه البحر الواسع !!.

***

بقى بونابرت فى الاسكندرية بضعة أيام حتى اعتقد أن المدينة قد سكتت وانها اسلمت قيادها وصارت له ، وقد أبقى السيد كريم حاكما لها الى جانب القائد كليبر ، اعترافا منه بقوته ولأمر يخفيه فى نفسه . وقد قبل كريم هذا الامر من أجل مايخفيه هو الآخر فى نفسه .. !!

وهنا طفا « باروخ » فوق الاحداث .. كان باروخ يهوديا من مواليد انجلترا .. وله خبرة بتنظيم الاموال والميزانية ، وهكذا تسلل الى مقر كريم وعمل مستشارا ماليا له . ولكن يظهر أنه كانت له جوانب نشــــاط أخرى خفية !! . اذ ربت أمواله وصارت تضارع ميزانية المدينة مجتمعه والعجيب أنه كلما زادت أموال باروخ نقصت الاموال فى المدينة وشحت السلع وقل التعامل فى الاسواق . كانت خزينة المدينة قد أوشكت — قرب نزول الحملة — أن تعلن افلاسها وعجــــزها عن اداء مرتبات الموظفين .. لولا باروخ !! فقد بادر بدفع الرواتب بسندات على السيد كريم نفسه مع أرباح تبدو له معقولة وواجبة .

وقد كان المنبت الانجليزى لباروخ داعيا للسيد كريم أن يصـــــدق مزاعمه بخصوص الحملة الفرنسية ، وبأنه حقيقة على صلة ببعــض ضباط الجيش الفرنسي ، وانهم زعموا له أن مصر فى أمان .. واخيرا جاءت الحملة ، وعندما بدأت المدينة خطة الدفاع الفعلية اختفى «باروخ»

بأمواله ... وظل مختفيا الى ان تمت لبونابرت السيطرة الظاهرة على المدينة ، وهنا ظهر باروخ واتصل بضباط الحملة . وسريعا ما التقى بالجنرال الذى عينه مستشارا ماليا لكليبر فى الاسكندرية وانعم عليه برتبة مواطن شرف !! واصبح باروخ يسير فى شوارع المدينة ممتطيا جوادا وعلى صدره الشعار الفرنسي ومن حوله بعض الحراس يفسحون له الطريق ويحمونه من غيظ المواطنين ويؤدون له التحية اذا ركـب أو نزل ...

واخيرا ترك بونابرت فى المدينة فرقة كاملة وبدأ زحفه الى القاهرة سالكا طريق الصحراء الموصل الى دمنهور . بعد أن تواعد على اللقاء مع الاسطول السابح فى فرع رشيد .

وقد بدأ الجيش زحفه من الاسكندرية فى الفجر .. ولكن لم تكد تمضي بضع ساعات من النهار حتى استحالت الصحراء الممتدة الى واد من جهنم ، وكان سفى الرمال الساخنة يجلد الجنود بسياط من نار .

وقد أحس بونابرت بوطأة الرحلة فلجأ الى اناشيده المخدرة يقوى بها عزيمة الجنود ولكن أين هى العزيمة ؟ لقد ابتلعتها رمال الصـحراء ولم يعد أحد من الجنود يعبأ بحديث الجنرال او أوامره . ورأى ان الامر يكاد يخرج من يده ، فأمر بالتوقف وضرب الخيام .

وبين بضع شجرات من التين ترويها عين صحراوية ضربت خيمة الجنرال الذى استلقى بثيابه العسكرية منهكا حزينا .

وقد رأى جينو سيده يتقلب قلقا متعبا ، فاقترب منه على وجـل وهو يتمنى من أعماقه لو استطاع أن يمسح عنه آثار التعب .. ولحظه الجنرال بطرف عينه فغمغم : اجلس ياجينو فما أحوجنى اليك الآن .

فقال الرجل فى حب مشبوب : ياورك وحارسك يفديك بالروح .

— ليست روحك هى ما احتاج اليه الآن ياجينو .

فأدرك على الفور ما يرغب فيه الجنرال من التسرية والتلهى ، فبادر متضاحكا

— انك تريد الانباء الضاحكة ياسيدى .. ان عندى منهـا عـدداً يزيد على رمال هذه الصحراء التى تخيفنى بأفقها الذى لايدرك مداه ؟ وما منعنى ان اقصها الا اشتغالك بالمعركة ، حتى لقد نسيت ياسيدى أن تبسط حمايتك على أسرة الضابط مونتى مع انك وعدته بذلك .

فبلل الجنرال شفته بطرف لسانه وقال باسـما : أنت تعرف متى تقول مايجب أن يقال .. لكن ماذا قال لك مونتى ؟

ـ لقد سره كثيرا أن يرضي عنه الجنرال .

ـ أما زال يحرس امرأته وابنته من عصابة خطف الزوجات ؟

ـ بل انه زاد امعانا فى ذلك لان الخطر عليهما يشتد كلما طال الامد وتشوق الجنود للنساء . لقد ظنوا أن المصريات ستحل المشكلة ، لكن ظهر انهن لسن اقل من الرجال ضراوة وخشونة .

ـ لقد فشلنا اذن ! ؟

ـ كما تفشل هذه الحملة اذا قادها غير الجنرال بونابرت !!

ـ اذا كان هذا هو اعتقادك فى قائدك ، فعالج هذا الامر مع مونتى

أريد أن أخرج للنزهة فى الاصيل .

وهنا وضع جينو خوذته على رأسه وخرج .

***

كان مونتى جالسا مع صديقه جوليان فى ظل نخلتين متعانقتين . وكان يبدو عليهما ـ مثل سائر الجنود ـ الكـلام والسـأم . ولكن مونتى ـ كعهده ـ كان متحمسا لمبادىء الجمهورية وكان يستعذب كل شقاء والم فى سبيل سيادة مبادىء المؤتمر الوطنى .

ونظر مونتى خلفه فوجد باب خيمته قد أسدل فقال لصديقه :

ـ لقد نامت المرأتان ، ان الرحلة شاقة ..

ـ ومع ذلك فاننا لم نقطع من الطريق الا جزءا يسيرا .

فتهلل وجه مونتى فرحا . فرمقه جوليان بنظرة منكرة وسـأله فى برود

ـ اترى أن هلاكنا فى هذه الصحراء أمر يستحق الفرح ؟

ـ أنت قصير النظر ياجوليان كدابك .. قـل انك كذلك .. الا ترى انه كلما طالت الرحلة دل ذلك على أن مبادىء الجمهورية ترفرف على بقاع أوسع ؟ !

انظر الى هذه البلاد فيما بعد وقد علتها الراية المثلثة وسرى فى

جنباتها لحن المارسلييز الدافق ، وآمنت مثلنا بالاخاء الانسانى وزال عنها الظلم

— مهلا مهلا ياصاحبى ، انك كالعاشق المراهق ، لايستطيع ان يتصور سعادة معشوقته الا معه . لقد اصبحت لاترى العالم حرا الا فى ظل رايتك وهذا وهم كبير ..

— وهم كبير ! ؟ هذا الجيش يسير على وهم ؟ والجنرال !؟ الم نأت لننقذ المصريين والفرنسيين على السواء من ظلم المماليك !؟

— وكم مصريا أنقذت ؟

— .....

— أعرفت مدى صدق تعاليم الجمهورية !! .. وكم مصريا قتلت ؟

— امراتين ورجلا .. كانوا يطلقون النيران على الجنرال من نافذة بيت فى زقاق .

— وهذا ما راعنى منك . لقد تحول البطل مونتى الى قاتل نساء فى الاسكندرية ! أم انك تفعل ذلك لانهم ليسوا على دينك ؟ .

— اننى لا اتعلق كثيرا بالدين ، مثل كل أبناء الجمهورية .

أنا أومن بفرنسا وبقديستها المواطنة جان .. وبالعذراء .

— من اجل ذلك قتلت امراة تدافع عن وطنها كما كنت تفعل أنت فى شوارع باريس منذ عشرة أعوام والارهاب الملكى يمزقنا !

ورأى الصديقان ياور الجنرال يقبل عليهما من بعيد فانقطعا عن الحديث وقام مونتى الى خيمته وعاد بكئوس ثلاث مترعة بالخمر ، وحيا جينو ، وتلاقت الكئوس فى رنين خفيف .. وشرب الثلاثة كأس مصر حتى الثمالة !

ودار الحديث بين الضباط الثلاثة عما مضي من معارك وماهم مقبلون علبه منها . وهنا قال جينو وكأن الاقتراح واتاه على البديهة : يلوح لى من حديث الجنرال اننا سنبقى هنا حتى المساء ، فما رايكما فى ان نقيم حفلا مسليا ينسيه متاعب الطريق ؟ ان هذا سيترك عنده أثرا طيبا .

ولم يتردد الآخران فى اظهار سرورهما لهذا الاقتراح الذى يسر الجنرال ويجعله يشملهما برضائه .

فقال على الفور مستدركا : ولكن اين لنا بسيدة تقف الى يسار الجنرال ؟

وهنا خفق قلب مونتى ونظر الى صديقه فى تشكك . ولكن جينو لم يتردد فاندفع قائلا :

— انك لن تمانع فى أن تقوم امراتك بهذا الدور ياكابتن . ان هذا سيكون له وقع طيب فى نفس الجنرال .

وأفاق مونتى من ذهوله قائلا فى عجلة : بكل سرور .

وبعد فترة صمت عاد جينو الى الحديث قائلا : ولكن قائدنا لم يسترح بعد من ضجيج المعارك حتى نغرقه فى ضجيج الحفلات .. اننا أرحم من أن نفعل به ذلك .. وارجو ياكابتن مونتى أن نوفر له هـــذه الصحبة فى رحلة صحراوية عند الاصيل .. سأعود بعد ساعتين لارافق السيدة الى عربة الجنرال .

***

كان البساط الرملى يمتد متموجا جميلا ، ونسمة خفيفة بدات تمسح على وجهه حين مالت الشمس لملاقاة الافق ، وكـــانت عـــربة الجنرال الصغيرة ، تمرق كالسهم وقد أمسك الجنرال باللجام فى يد واحاط خصر زوجة الضابط باليد الاخرى .. وعلى بعد مائتى متر تتبعـــه عربة جينو وبضع عربات أخرى للحراسة .

كانت نسمات الاصيل تداعب شعر مرجريت الناعم ، وكانت سعيدة بصحبة القائد .. وتطلعت الى أمام فوجدت طلاقة الطبيعة ، واتساع المدى ، ونظرت خلفها فوجدت الحرس فى خدمتها والجنرال الى جانبها ، فهزها احساس بالسرور عارم . وقالت فى نفسها ، هأنذا قد وصـــلت الى عربة القيادة — وهانحن نخضع مصر بلا مشقة ، وغدا تصير مملكة لنا ولم يبق الا أن يوضع فوق راسي تاج كليوباترا .

وهنا ثارت زوبعة صغيرة حملت حفنة من الرمال ، وصفعت بها وجهها .

—*—

قال جوليان لصديقه مونتى : أما زلت عند رايك السابق ؟

ــ أى راى !؟

ــ حقا .. ما اكثر آراءك .. أما تزال تؤيد تلك الخطة التى تكاد تفنينا ! فأخرج مونتى من جيبه منديلا قذرا متصلبا لكثرة مافيه من آثار العرق ، ومسح به جبهته التى تقطر عرقا ، وبلل شفتيه بلسان متشقق جاف ، ونظر الى صديقه باستكانة ، وان تظاهر بالقوة وقال : اســمع ياجوليان . انت جندى وتعرف واجبك . ان أول واجباتك أن تطيع .

فرد جوليان فى ثورة مكبوتة يخشي أن يسمعها أحد : اننى لست محترفا ، مرتزقا ، اننى أحارب فى سبيل المبدأ ..

فقاطعه رفيقه قائلا : وهل أهملنا المبدأ ؟ اننا مثلك نحارب من أجله، وتضحيتى اكبر من تضحيتك . ان امراتى وابنتى على وشك الاختناق من الحر ، ولولا عناية الجنرال ... وتمهل قليلا قبل ان يقول : اســمع ياجوليان ، بلا شك أنت لاتريد ان تقدم لمحكمة عسكرية ، وتلقى جثة هامدة فى هذه الصحراء الشاسعة .

ــ اننى أشعر ان هذا هو ما سيحدث ، ان لم يكن بيد الجنرال فبفعل هذه الصحراء المحرقة . لقد مر يومان ونحن فى هذا الفرن الجهنمى الذى لا آخر له . على أن هذا ليس كل مافى الامر ، ان هــذه النار الصحراوية قد صهرت موقفنا واظهرت ما به من زيف ، فليس هنا مماليك ولا انجليز . هنا مصريون فقط .. فهل اتينا لنقاتلهم ! ؟ ولنقــتل نساءهم و ....

فوضع مونتى يده على فم رفيقه ليوقف كلامه . وقبل ان ينطق بما يريد سقط الضابط الذى يسير أمامه تحت وطأة العطش والحر والاجهاد القاتل .

وأقبل رجال الاسعاف فحملوا الصريع على عربة ونقلوه بعيدا عن انظار الجنود الذين رمقوه بنظرة من يرى مصيره أمامه .

ولمتتوقف الصفوف الزاحفة .. لكنها كانت تشعر انها تزحف نحو الموت !! وعاد جوليان يتكلم : هاهم أولاء رفاقنا يسقطون صرعى ، والجنرال قد اختفى !! لماذا لا يحدثنا الآن عن ظلم المماليك ؟ هل كف عن التمثيل لان الجمهور عرف آخر الرواية !؟ أما والله اننا لو رجعنا الى فرنسا فاننا سنربح مجدا أكثر ، لاننا سنكون فى نظر الناس شرفاء لكن مانفعله الآن خيانة .. خيانة لمبادىء الثورة .

وهتف جندى فى المقدمة : لقد ظهر النيل ..

وسرت الكلمة بين الجنود المحرومين سريان البرق ، فهللوا لها واكتست أجسامهم على الفور حيوية ونشاطا ، كأنما ردت اليها الحياة فجدوا فى السير وقد رقت النسمة الصحراوية القاسية وعادوا يتغنون بالمارسلييز فى جذل وحماسة مفتعلة ، يهونون به اللحظات الباقية .

ونظر مونتى الى صديقه وكأنه يقول : الم اقل لك اننا سننتصر .

ورد اليه جوليان نظرته وكأنه يقول : اننا فى أول الامتحان .. وسنرى ..

وما كاد الجنود يصلون الشاطىء حتى القوا بأمتعتهم ، وانغمروا فى مياه النيل الصافية يعبون ويستحمون ويتصايحون فى جذل .

ولم يكد الجنود يجمعون أشتات نفوسهم المبعثرة حتى لاح لهم فى الافق الجنوبى جيش المماليك يخطف الابصار .

كانت الخيول العربية تنتشر فى الافق الرحيب وصهيلها يصل اليهم قويا مفزعا ينبىء عن عدد ليس له آخر . وكانت السرج اللامعة ترسل بريقا أخاذا فيه روعة وجلال . وكان السلاح يبعث بوهجه الخاطف الى عيون شباب فرنسا فترتجف له أوصالهم .

وعند ما كان تكاثف الفرسان يسد الافق ، وخيلهم تصهل بالرعب وسلاحهم يبشر بالموت كانت معنويات جنود الجنرال قد انحطت مرة اخرى فوقف الجنرال بينهم يذكرهم بما ظل يردده من تعلق مجد وطنهم بهذه اللحظات الحاسمة وضعف فرسان المماليك وتمسكهم بتقاليد الحرب القديمة التى تعتمد على الفروسية ، لا على المدفعية ، وتأخر أسلحتهم ورداءتها .

ولم تكن هذه كل معارف بونابرت عن المماليك ، فهو يعرف أيضا طريقتهم فى الحرب فصمم خطته على أساسها ..

وبدأ الصدام ..

وهجم فرسان المماليك فى موجة عاتية عارمة .. كأنهم عاصفة.. وانطلقت خيلهم فى كتل متراصة تكتسح كل مايقف فى سبيلها ، وفى لحظات خاطفة تبعثرت الصفوف الاولى فى جيش الجنرال وتاهت بين الكتل المنحدرة كالسيل ، حتى صار الجنود يصرخون لهول الهجوم ويلقون بأسلحتهم طالبين النجاة ..

وفجاة .. هجمت فرقة أخرى من فرق المماليك لتقضي على مابقى بين صفوف المشاة من تماسك .

وكان الجنرال يرقب المعركة من مرتفع قريب حتى اذا ما تحقق له ان المماليك قد ألقوا بكل قوتهم فى الميدان ، أمر صفوف المشاة الباقية ــ والتى تدفع الهجوم الكاسح ــ فانفرجت الى شطرين ، وتركت فجوة واسعة هلل لها فرسان المماليك وظنوا انهم أحاطوا بعدوهم ، واندفعوا فيها ليطوقوه ، فيكون اللقاء الاول والاخير . ولكنهم وجدوا انفسهم أمام المدفعية الحديثة الضخمة وجها لوجه فاستولى الفزع على نفوسهم ..

وهكذا فى اقل من ساعة تبددت قوة المماليك وتساقط فرسانهم محصورين بين نارين ..

ولكن هذا الاشتباك البرى أمام شبراخيت لم يكن هو الاشتباك الوحيد فى ذلك اليوم فان السفن الفرنسية كانت تسير فى النيل بازاء الجيش فكان ضروريا أن تلتقى بالبحرية المملوكية فى النقطة ذاتها . وهنا اسرع اهالى القرى المتناثرة على الشاطىء بالتجمع وأمطروا سفن فرنسا سيلا لا ينقطع من الرصاص مما أعجز هذه السفن عن حماية نفسها وجعلها غنيمة رخيصة لسفن المماليك .

ووعندما غرقت اول سفينة فرنسية اشتعلت حماسة الاهالى لاول نصر يحرزونه على الجيش المتغطرس ، وسقطت ثلاث سفن أخرى .. واقبلت بحرية بونابرت على كارثة محققة .. لولا أن تنبه الجنرال لخطر الاهالى المتجمعين على الشاطىء فأمطرهم بمدافعه حتى تبددوا . وهنا فقط .. استطاع جيشه وبحريته أن يواصلا الزحف الى القاهرة ..

***

كان السبت ٢١ من يوليو فى القاهرة يوما عاصفا ثائرا ، فقـــد كانت الريح الثائرة تلفح المدينة بموجات من رمال الصـــحراء الناعمة ، فتجعل التنفس أمرا صعبا ، ومع ذلك فقد كان هذا اليوم هو اليوم العاشر لتجمع القاهريين ومن انضم اليهم من أبناء الاقاليم حول السيد عمر مكرم ، الذى قاد آلافه المؤلفة الى بولاق . فترك بعضهم الى جانب جيش ابراهيم بك على الضفة الشرقية وقاد الآخرين الى جيش مراد الذى أخذ مواقعه عند امبابه على الضفة الغربية جاعـــلا ميمنته الى النيل ، وميسرته ترتكز على امبابة نفسها .

وكان من الطبيعى والمدينة مقبلة على قتال مرير الا يســـــــتطيع سليمان العايدى البقاء فى البيت مع عمه أكثر من لحظات يبدل فيهـــا ثياب شيوخ الازهر بثياب تصلح للحرب . وحمل سلاحه ولحق بقـــوة الاهالى حين عبورهم الى شاطىء الجيزة ، يتبعه أينما سار عم حنفى ومعه حربته الصدئة ..

كان عدد الاهالى فى معركة امبابة يزيد عن العشرين الفا ، وكانوا يكونون ميمنة مراد — ذلك الجناح الذى يرتكز على النيل — وجزءا من ميسرته يساندهم فى ذلك اعراب الصحراء . وكان القلب مكـــونا من خمسة آلاف مملوك وعلى رأس هؤلاء جميعا ركب مراد فرسه فى اعتداد وثقة .

كان سلاح القاهريين خليطا عجيبا من البنادق القديمة والسيوف والرماح والسكاكين والعصي . وكانوا يقفون فى انتظار العدو وحماستهم تخرج بهم عن الامتثال لنظام أو تدبر لموقع أو خطة .

وما كاد بونابرت يرى التوزيع العجيب لجنود مراد حتى قصـــد الصيد الاسهل ، فركز نيرانه على الاهالى . وهنا التف فرســـــــان المماليك حول فرقة من فرق بونابرت يحاولون تطويقها ، فأصلتهم نارا حامية ، وانجدتها فرقة أخرى ، فطاش صوابهم ولم يتحملوا الصـــدمة المفاجئة كعادتهم ، فتتابعوا عائدين الى كنوزهم يحملونها ويفرون . حتى مراد نفسه .. ترك المعركة قائمة وقصد الى قصره فى الجيزة وحمل نفائسه ومضي الى الصعيد وعاد تركيز النيران الى الميمنة فانهارت فى النيل ، ولاقى الآلاف حتفهم فى ذلك اليوم ، وفرت آلاف أخرى مذعورة أمام طغيان السلاح وبراعة التنظيم . ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى ولت بحرية المماليك الادبار .. ورأى جيش ابراهيم — القابع على

الضفة الاخرى — ماحصل لجيش مراد نتصرف بالطريقة نفسها . وهنا صارت القاهرة مدينة مفتوحة امام غاز من أوربا لاول مرة فى تاريخها !!.

***

فى ذلك المساء الحزين قال الضابط مونتى لصديقه جوليان وهو ينظر اليه بوحشية يخفيها هذيان مجنون : لم أقتل فى حياتى مثل هذا العدد من البشر . ترى كم قتلت ؟.

فقال جوليان وهو يفتح علبة الرصاص أمام صديقه : تستطيع ان ترى !!

— يا الهى !! انك لم تطلق رصاصة واحدة ! لعلك لاتريد ان تقتل احدا . دافع عن نفسك . هب أنهم قتلوك !!؟

قال وفى عينيه دموع حزينة : حينئذ اكون قتلت فى سبيل انتصار مبادىء الثورة !!

وهنا أقبل عليهما جينو ، فاكفهر وجه مونتى وظنه قادما ليصحب امراته الى الجنرال . ولكنه قال ان السيد كريم حاكم الاسكندرية قد خان ، وهو حبيس ، أسطولنا فى « أبو قير » .. وربما بعث الجنرال برسالة فى شأنه .

فقال جوليان فى نفسه : قد فرغنا من قتل النساء والاطفال وبقى أن نطفىء نور هذا البلد . هل خان كريم .. فرنسا !! أم مصر !؟ ثم بصق وهو يلعن الحرب .

***

فى ذلك المساء الحزين كانت المدينة ساكنة كأنها مقبرة كبيرة ، وكان سليمان العايدى يأخذ طريقه مع العائدين من المعركة . والدماء لاتزال تنزف من ذراعه وعم حنفى يجر ساقيه جرا وهو يضغط بيده المعروقة الواهية ليمنع نزف طعنة اصابته تحت ثديه الايسر ولم تخطىء قلبه الا بقدر ضئيل .. وكان يحمل حربته بيده اليسرى وهو يترجم الله الى نغم حزين يتغنى به فى خشوع .

« وتجلدى للشامتين أريهمو   انى لريب الدهر لا اتضعضع ».

«اذا كانت ظروف مصر التعسة حالت بينها وبين النصرعلى أعدائها، فانها يجب ان تختط طريقا جديدا فى الجهاد . لقد انقضي العهد الذى يصير سقوط العاصمة فيه هو القول الفصل فى المعركة . ان العاصمة ليست هى كل الشعب » .

هكذا كان جلال الدين العايدى يحدث نفسه وهو يضرب بذراعيه القويتين فى مياه البحر مبتعدا عن قلعة قايتباى حيث تدفق جنود فرنسا عليها لمحاصرة السيد كريم .

وما كاد يطمئن الى انه صار خارج اسوار المدينة حتى اتجه من فوره الى الشاطىء ، وهناك خلف بعض الحشائش العالية — وقد انهكته السباحة — استلقى فى نوم عميق مستظلا ببضع نخلات .

واستيقظ جلال الدين بعد ساعتين ، حين تحول الظل عنه ، وظل مغمض العينين يستعيد ما مر به فى يومه وكأنه فى حلم ، وتخيل الاسكندرية وقد سيطر عليها الاعداء فارتجف بدنه كله . لكنه تحسس البندقية الى جانبه ، ولمس المفتاح المعلق فأيقن بكل شىء !! وفتح عينيه على الحقيقة الدامية .. وتنهد .. لكنه حين ارسل بصره الى السماء فى نظرة ضارعة تطلب العون ، رأى عناقيد البلح الاخضر تلوح بعيدا .. « ما أشقانى — اترانى نسيت (سماح) الحلوة ؟ ألم تكن أول خفقة حب فى ظل نخلة مثل هذه !؟ وكان الحب سبب ما لاقيت من عذاب ».

وتلوى فى الم وهو يرمق النخلة فى حنان.. وكأنه يعتذر الى سماح عن تأخره عن لقائها .

وبعد ساعات من السير المضنى بلغ جلال الدين قرية السالمية الرابضة على فرع رشيد ، وهناك قصد الى دار صغيرة تتوارى بين أجمة ضخمة من أشجار السرو والكافور .. وكانت الدار ذاتها يبدو عليها الاهمال . واخرج المفتاح الذى حمله من السيد كريم . ومن الداخل بدت له الدار الصغيرة مخزنا هائلا للسلاح والذخائر والطعام .

وبعد ساعات بدأ رجاله — رفقاء مالطة — يتوافدون على الدار خفية واستدعى جلال عمدة القرية وابلغه أوامر كريم ، ونظم معه الدور الذى ستقوم به القرية .

وفى الليلة الاولى سهر جلال الدين مع رجاله على شاطىء النهر يتحدثون فى همس ويتسمعون ، فربما مر صيد عابر .. وفى الافق البعيد لاح شبح يسعى نحو مكمنهم فهمس جلال الدين : هذه أولى رسائل كريم الينا .

ولم تمض لحظات حتى كان الرجل قد اخذ مكانه بينهم ، وابلغهم الرسالة الاولى قائلا ان فرقة فرنسية قد خرجت من الاسكندرية أمس وستصل الى دمنهور غدا ، وقد انبث رجالنا فى طريقها يحرضون القرى عليها فقال جلال الدين : ان كثيرا من القرى ضعيف الى درجة تجعل المقاومة انتحارا .

فقال الرسول : اننا لن نأمرهم بقتال ، فقد تركنا لكل قرية حرية التصرف حسبما تحتمل قوتها . فالتى لاتستطيع قتالا اما أن تنضم الى غيرها أو أن تلزم الصمت وتقاطع الفرقة فلا تقدم لها طعاما ولا دواب .

— وكيف خرجت الفرقة من الاسكندرية دون مقاومة من أهلها ؟

— لم يكد كليبريتخذ هذا القرار حتى أمرنى كريم باذاعته سرا فى المدينة . وفى لحظة خاطفة اختفت الاطعمة من الاسواق ، وكذا البغال والجمال والخيل . وصارت المدينة مثل واد مهجور . أما كليبر فقد اشتد غيظه وبدأ يرتاب فى اخلاص كريم له . ولكنه صمم على قيام الفرقة بحملتها المقررة ولو سيرا على الاقدام .

فبادره جلال الدين قائلا : وما المطلوب منا ؟.

— ان دمنهور هى آخر خط الحملة . وفى دمنهور ومع رجالها يجب أن توجدوا ، حيث يكون الدفاع ذا اثر قوى فاتك ..

— ولكن ذلك يعرض كريم لخطر محقق ، سيتحقق كليبر من صلة كريم بما يحدث !!

— قلت ذلك له فقال : ولو ... اننا نعمل من اجل أمة . ويجب أن ننسى شخصياتنا والا فلن يتم شىء كما ينبغى .

فصمت جلال الدين قليلا وعاد يسأل : وباروخ ؟ ... ما اخباره بعد استقرارهم ؟!

فقال الرجل فى أسف : لقد عشنا ننساق وراء باروخ ونأتمر بأمره . كنا فى البداية نطيع عبقريته السياسية والاقتصادية المزعومة ! وفى النهاية أطعناه لاننا مدينون له بالقروض الربوية التى اغرق بها المدينة . واليوم يطيعه الناس تحت تهديد السلاح لانه مؤيد من كليبر .

فصر جلال الدين بأسنانه وهو يقول فى حقد : يجب أن يذهب باروخ .

حمل جلال الدين سلاحه وقاد رجاله الى دمنهور . ولم يكد يبلغ المدينة حتى وجدها — عن آخرها — تموج بالناس وبالسلاح ، وتقف فى كراديس تحرس الطرق والمداخل . وهناك علم أن انباء قدوم الفرقة قد سبقته الى المدينة عن طريق القرى المتناثرة ..

وبعد ساعات من الانتظار ظهرت الفرقة الفرنسية فى أفق المدينة. وكانت على حال لايمكنها من أن تواصل السير خطوة واحدة فضلا عن أن تخوض معركة مع قوم ينتظرونها ...

كان الجوع وارهاق السير ووطأة الحر والاشتباكات التى لا تنتهى مع القرى قد أحالت الجنود الى حطام لا يصلح الا لملء أسرة مستشفى، حتى لقد تخلوا عن الجرحى احيانا أمام اشتداد هجمات القرى .

من أجل ذلك كله لم تطلق الفرقة رصاصة واحدة فى دمنهور الا لغرض واحد هو أن تحمى انسحابها .

وهكذا فى ساعات وجد كليبر نفسه يملك جيشا معطلا لا يعرف ماذا يفعل به ، وفى لحظة حاسمة ألقى القبض على كريم وسجنه فى قايتباى ، واتهمه بالخيانة ....

ترى ... هل كان باروخ بعيدا عن خطة القبض عليه ؟ كلا ... لقد كان أول من حدث كليبر فى هذا الشأن حتى قبل فشل حملة دمنهور!!.

***

لم يكد جلال الدين ينتهى من تنظيم المقاومة فى دمنهور حتى قفل برجاله عائدا الى وكر السالمية . وقد كان لهم شأن غريب .. كانوا اذا استهدفوا غاية لم يخلدوا الى الراحة حتى ينتهوا منها مهما كلفهم ذلك من جهد وعناء .

وفى طريق عودتهم — وعند مدخل السالمية — رأوا سفينة فرنسية صغيرة تأخذ طريقها صاعدة الى رشيد .. ولم يكن فى السفينة

حراسة قوية ، كأنها كانت مطمئنة لانطلاقتها الهادىء فى الليل . وبذلك لم يطل الاشتباك بين المهاجمين الذين وثبوا عليها من كل جانب وبين المدافعين .

وبعد أن تمت ابادة من عليها نزل اليها جلال الدين فوجد ضابطها منكفئا على مكتبه وقد قضت عليه رصاصة مرقت اليه من النافذة ، وعلى جوانب السفينة تبعثرت خمس عشرة جثة ماتزال دماؤها تنزف . وانتبه جلال الدين الى ورقة مكتوبة أمام الضابط الصريع فقرأها فاذا فيها . مرحبا بكم أيها المصريون وان قتلت بأيديكم ، أننى ابن ثورة مثلكم .. ان فرنسا أعلنت المبادىء الرائعة وانتم طبقتموها ..

« صديقكم »

وتوقفت يد الضابط القتيل قبل ان يتمكن من كتابة اسمه ، ونقل جلال الدين عينيه فى أسي بالغ بين الضابط ورسالته . وهمس لرفاقه وهو يريهم الرسالة : ان النية الطيبة لا تكفى .. يجب أن يؤازرها العمل الطيب .. كيف أعرف مافى ضميره ؟ ثم انه صديق واحد . وهذه الجثث كانت لناس يودون قتلنا ..

ورمق الضابط المنكفىء على المكتب بنظرة رائية فوجد رسالة أخرى أمامه . وما كاد يقرأ السطور الاولى منها حتى أمر رجاله بمبارحة السفينة فورا الى وكرهم فى القرية . وهناك القى اليهم بمضمون الرسالة التى كانت تحملها السفينة من بونابرت الى كليبر فى الاسكندرية ، يأمره فيها بتشديد الحراسة على كريم واثقاله بقيود الحديد حتى يرى رأيه فيه .

وبعد لحظات انفض المجلس الحربى عن اختيار عشرة رجال بقيادة جلال الدين يقومون بخطف كريم من معتقله بقلعة قايتباى ، ولو دفعوا ثمنا لذلك ... حياتهم !

وفى الفجر كانت سفينة صيد صغيرة ، بريئة المظهر ، تحمل عشرة رجال فى سراويل ممزقة وفى أيديهم الشباك المبتلة ، وعلى أطراف القارب أسماك حية تقفز الى النهر . ولكن الذى يمعن فيها النظر كان لاشك سيلحظ أنها متلهفة فى سيرها بازاء الشاطىء ولا تسير الهوينى على عادة قوارب الصيد .

ولكن القارب لم يكد يتسقط الاخبار من مشارف الاسكندرية حتى علم الرجال أن (كريم) قد حمل الى سجن جديد فى الاسطول الراسي فى خليج « أبو قير » .

وهنا بدت مهمة الرجال عسيرة .. فما العمل ؟

وفجأة ... لاح الاسطول الانجليزى فى الافق ..

وترقب الرجال ...

وانفصل عن الاسطول قارب سريع اتجه من فوره الى قـــارب الرجال العشرة والتقى به . وحدثهم أحد ضباطه وطمأنهم . ثم اتجه جلال الدين راجيا أن يخبره بما يعرف عن اسطول بونابرت ، ووعد الصيادين العشرة بعطاء جزيل ان هم ارشدوا سفن الاسطول فى هذه المنطقة حتى يتجنب الصخور المختفية تحت الماء والجزر الرملية .

وهنا تريث جلال الدين فى الجواب !!

هذا عدوه .. وذاك عدوه . كلاهما يتمنى له الهلاك !! فماذا عليه فى أن يكون لقاء الذئاب على يديه ؟! وايا كان المغلوب فمصر فى النهاية هى الغالبة ، ولن يسلم الاسطول المنتصر من جراح بالغة !!.

ولكن السيد « كريم » !! ماذنبه ليلقى حتفه وهو حبيس داخـــل الاسطول !!. .

وطالت حيرة جلال الدين فعاد يسأل رجاله المشورة . فقال عطية الدمنهورى فى ابتسامة لا تناسب الموقف : أنا قلتهـــا : البحر واحد لكن السمك الوان !! كلنا نجاهد ولكن كل شخص يجاهد على طريقته ، وجهاد « كريم » الآن لايحول دون غرق الاسطول الفرنسي أو تحطيم الاسطول الانجليزى . كم تمنى هو ذلك . ثم .. كيف نسيت مابعث به اليك !؟ الم يقل لك رسوله : يجب أن ننسي أشخاصنا لاننا نعمل من أجل أمة ! هذا هو الكلام .. ولو ان(كريم) فى مكاننا لما تردد فى نسف الاسطول ولو كان به أبناؤه ..

وتناقش الرجال قليلا وسرعان ما اقتنعوا بمنطق عطية الدمنهورى فى وضوحه وصراحته . فتمتم جلال الدين فى اسي : كم فى تاريخ الوطن من جنود مجهولين ، فليكن كريم جنديا مجهولا فى هذه المعركة الحاسمة . ثم أشار للضابط الانجليزى : انا نقبل ارشادكم الى مواقع الاسطول .. فاتبعوا قاربنا .

وبعد ساعات دارت اكبر معركة بحرية ، وانتهت بتصفية الاسطول الفرنسي .. وكانت سفينة الصيد ترقب المعركة من بعيد فى تلهف شامت تعصف بها الامواج الثائرة بفعل المتفجرات والوقود الملتهب على سطح الماء . فلما تتابعت سفن الفرنسيين فى هويها الى الماء ترحم الرجال على البطل « كريم »

***

كان طبيعيا وقد قتل الرجال كل من على السفينة الصاعدة برسالة الجنرال الى كليبر الا تصل هذه الرسالة . ومن هنا فقد بعثت قيادة الاسطول بالسيد كريم الى القاهرة قبل ضرب الاسطول بيوم واحد .. وهكذا نجا الرجل من الموت جنديا مجهولا ليموت بطلا كريما ، فقد زاد حنق بونابرت بعد غرق الاسطول وانهارت معنويات جنوده فاحتاج الى الاحساس بالقوة والاقتناع بأنه لا يزال مسيطرا على الموقف ، فحكم على كريم بالموت ...

***

فى ذلك المساء كان سليمان العايدى يعود الى داره بحى الحسين ومعه قدر من الفاكهة احتفالا بغرق الاسطول . وما كاد ينهى الخبر الى عمه حتى سمع عم حنفى يتغنى فى نبرات حزينة وهو يصعد سلم الدار ..

« اذا مات منا سيد قام سيد قئول لما قال الكرام فعول »

فعلم على الفور أن السيد « كريم » قد أعدم فى معتقله بالقلعة .

كانت سماح تندفع مع أخيها وعمها وعمتها فى طريقهم الى داخل المدينة الكبيرة المضطربة . وقد كبدهم سيرهم ضد الاتجاه العام الذى يسلكه الفارون من المدينة مجهودا ضخما جعل (سماح) تتعثر فى طريقها اكثر من مرة وتكاد تسقط مغمى عليها ، لشدة ما تستهدف له من ضغط وما تعانيه من ارهاق .

وحينما هب اعصار كتيبة المماليك ، وتدافع الناس أمامها فى ذعر وخوف ، وضربات السياط تطاردهم وتشتت جمعهم الحائر ، نال طرف ضربة طائشة عنق سماح بلسعة قاسية ، فجذبت يدها فى غير وعى من يد عمتها لتضعها فى المكان الذى آلمها وفى تلك اللحظة ذاتها اندفعت موجة من الاجساد المذعورة فاكتسحت رفاقها وباعدت بينها وبينهم ، ومرة أخرى — بينما هى تجاهد فى اللحاق بهم وتركز نظرها عليهم — لسعها السوط القاسي على ظهرها فنظرت الى جهة الضرب فى جزع فالتقت عيناها بعينى فارس عجوز له عينا صقر . . . ولم يكد الرجل يصعد نظره فيها حتى نسي ما هو بسبيله ، وضرب بسوطه من حولها ، ففرق عنها الزحام ، وقصد اليها من فوره ، وقبض على ذراعها فى استماتة . فجمدت أطرافها ونظرتها من الرعب ، وجد بها فوضعها أمامه على الحصان ، وسريعا ما غير اتجاهه عائدا الى المدينة بينما الكتيبة تمضي الى خارج الاسوار ، ومضي بها مخترقا الشوارع ، وهى ملقاة أمامه تلوح بيديها ورجليها فى ذعر مجنون ، وتحاول الصراخ والاستنجاد ، والناس عنها فى شغل وأصواتهم تطغى على صوتها .

وظل الفارس العجوز يمضي بفريسته ، الى ان بلغ ميدان الازهر وهناك انحرف الى اليمين وسار فى زقاق ضيق لا يكاد يتسع لسير الجواد .. ليس فيه باب ولا نافذة وكأنه أخدود بين جدارين ، وفى آخر الزقاق المتعرج قام قصر جميل ، صغير وبسيط ، لكنه محصن بسور مرتفع ، وأمامه بهو صغير وبضعة أشجار حول نافورة صغيرة .

لم تر سماح شيئا من ذلك ، فبعد بضع صرخات مرتاعة سكتت يداها ورجلاها تماما وراحت فى غيبوبة شديدة ....

ومع انفاس الصباح الجديه عاد الى سماح وعيها رويدا رويدا ، وما كادت تملك حواسها وتفتح عينيها وترى ما أمامها حتى تساءلت فى دهشة وهى تهز راسها فوق الوسادة الحريرية الناعمة : اين أنا ؟؟ لعلى أحلم !! .

فأجابها شاب صغير وسيم ، يقف الى جانب فراشها وعلى فمه ابتسامة مطمئنة مؤدبة .

— فى قصرك يا سيدتى .

— قصرى !!؟ .

وهزت راسها فى اعياء ، وزاغت عيناها تبحثان فى جوانب الحجرة الواسعة وهى تحاول أن تتذكر ما مر بها دون جدوى .

وعادت تسأل : من أنت ؟

— عبدك سراج يامولاتى !!

وادركت ببساطة انها لم تعرف شيئا جديدا يفسر وضعها فى هذا القصر فعادت تسأل :

— الا يوجد غيرى هنا؟

— حريم مولاى يامولاتى . هل تأمرين بشىء يامولاتى ؟

— نعم .. أريد أن أرى حريم مولاك ، أو خذنى اليهن .

— انهن يأتين اليك ياسيدتى . الزمى فراشك فأنت مجهدة .

انصرف الخادم فاعتدلت سماح فى فراشها ، وأجالت بصرها فى جوانب الحجرة الفسيحة ، فأدهشها مافيها من تحف ونقوش وما على نوافذها وابوابها من ستائر الحرير والمخمل ، فساءلت نفسها فى انكار: اى حلم عجيب اعيش فيه !! .

ولم تمض لحظات حتى اقبلت ثلاث نساء كأنهن ثلاثة اقمار ، يلبسن قمصانا من الحرير الابيض الشفاف ، فوقها صدار من القطيفة الزرقاء المطرزة بالقصب ، وسراويل من الحرير ويتمنطقن بأحزمة من الحـــرير الابيض المنمنم بنقط زرقاء .

دهشت سماح ، وخالت نفسها فى قصر مسحور ، ولكن دهشتها لم تطل اذ تقدمت المراة الاولى وهى تبتسم وقالت :

ــ اسمى درية ، ثم تنحت للتى خلفها فاقبلت متهادية ثم قالت باسمة : واسمى فاطمة : ثم وقفت الى جانب رفيقتيها فأقبلت الثالثة وقالت : واسمى نرجس ! وتطلعت سماح اليهن فى دهشة ، انها لم تفهم شيئا ... لكنها خطت الخطوة نفسها اذ انحنت لهن جميعا وقالت :

ــ اسمى سماح .

ومضت لحظة صمت قطعتها نرجس ــ وكانت اكبر الثلاث ــ قائلة : هل رايت القصر ؟ فتجاهلت سماح توددها ، وقالت فى غضب خفيف ، واصرار : لن انتقل خطوة من هنا حتى أعرف أين أنا ؟ ولماذا أنا هنا ؟ .

وهنا انفجرت النساء الثلاث فى ضحك مرح ، واقبلن عليها يعانقنها وهن يقلن :

نحسبك عرفت كل شيء !! وسنحكى لك ماتشائين . اشربى هذا الحساء الدافىء لتعود اليك صحتك . انت نائمة منذ ساعات طويلة .. وهذيت كثيرا ...

فراح خيالها يصور ما يمكن أن تكون هذت به . واحست نحــو الواقفات من حولها بصفاء وحب . وقالت برقة : أحقا ماتقلن ؟

فقالت احداهن : اذا لم اكن صادقة فاسألينى عن جلال الدين !! .

ورمقتها المراة بنظرة متخابثة فى تودد ومداعبة ، لكنها لمحت موجة من الكدر والاسي تجتاح قسمات سماح ، ثم انفجرت فى بكاء مرير ، سالت له دموع رفيقاتها ، واقبلن عليها يمسحن دموعها .. وقد استولى عليهن شجن حزين .. وارادت فاطمة ان تغير موضوع الحديث فقالت : آن لنا أن نقص عليك قصتنا .

***

القصر ملك لـــ «بكير» بك ، من مماليك مراد بك واعوانه ، وهــو مكون من طابقين .

وللقصر سراديب سرية تصل الى أعماق بعيدة لم يرها أحد، ولكن الـ«بك»

يفتحها بين الحين والحين ، ويغيب فيها بعض الوقت . ولكنا نعرف أن فى الطابق الارضي بهوين للاستقبال : أحدهما يستعمل فى الظروف العادية ، يحيى فيه البك لياليه وسهراته ، ويستقبل اصدقاءه المخلصين ويعقد فيه اجتماعاته بمن يشاء من أتباعه أو سادته ، أما الآخر فانه يقابل فيه أعداءه ومن يرغب فى التخلص منهم . ويوجد مقعد البك فى صدر ذلك البهو ... وما يكاد الداخل يتخطى الباب حتى يدوس قطعة خاصة من خشب الارض وفى لحظة خاطفة تنفرج الارض تحت ساقيه ويسقط فى هوة عميقة ضيقة ، وقبل أن يفيق من الصدمة يبادره البك من باب السرداب فيضربه بسيفه وهو لا يملك الحركة ...

***

كانت سماح تسمع حديثهن عن القصر واسراره وكأنها تعيش فى عالم مسحور صنعه الجن . وخيل اليها أن حياتها فى خطر ، وأنها لا تستطيع أن تخطو فى هذا المكان خطوة واحدة ... ونظرت الى رفيقاتها فوجدتهن باسمات فى عذوبة ورقة فعاودها الاطمئنان . وعادت تسأل :

— ما صلتكن بالبك ؟

— نحن جواريه .

— مصريات ؟

— قالت فاطمة : أنا مخطوفة من اسيوط ، هنا منذ عامين .. اخذنى قطاع الطرق وباعونى له .

وقالت درية : وانا من بلبيس .. اسرنى بالطريقة التى يأسرون بها فى العادة ، كانت بلبيس فى ثورة منذ خمسة أعوام ، واعتبرنى من سبايا الحرب !!

وقالت نرجس : انا شامية من حلب .. اهدانى له مراد بك .. خطفنى جنوده وانا طفلة !!

فقالت سماح : وانا منصورية اتيت بطريقة انتن ادرى بها منى !!.

وعاد الصمت والاسي يغلف المكان . وفكرت سماح كيف تعيش الجوارى ، وكيف تمضي بهن الحياة !! وهل كتب عليها أن تعيش جارية مثلهن تمضي السنين بلا أمل فى النجاة !!

ودار سؤال فى راس سماح ما لبثت أن قالته بحذر : الا تخرجن من القصر ؟

فقالت احداهن : هنا ثلاثة ممنوعات : دخول البهو القاتل والاقتراب من أبواب السرداب والخروج من القصر .. ولنا الحَرية فيما عـــدا هذا !!

وعادت سماح تفكر فى مصيرها ، فقالت وهى ترجو اجابة مطمئنة

ــ واهليكن .. الم يحاولوا البحث عنكن ؟

ــ من يدرى ؟ ان احدا لايعرف عنا شيئا ، ولا يجسر مصرى على دخول القصر ... فضلا عن رؤية حريمه !! .

وبدأ آخر أمل لها فى سؤالها ة ومن سراج ؟

ــ انه خادم القصر .. وله رفيق آخر فى الخارج .

ــ وأين بكير بك ؟

ــ انه بعد أن حملك الى هنا نقلناك الى السرير .. وانطلق هو الى المعركة وأوصانا بك ، واننا نرجوك الا تحاولى الهرب لان فى هذا قتلنا جميعا ..

ــ لا .. لن اهرب .. ولو هربت فاننى لا أعرف الى اين اذهب ..! فقط .. نريد ان نعرف اخبار الحرب . اذا كـــان سراج محلا لثقتكن نسأله ...

***

ظلت سماح فى قصر بكير بك اكثر من اسبوعين غابهمـــا الرجل مشغولا بالمعارك مع صديقه مراد .. وفى غضون هذه الفترة توثقت صلة سماح بالشابات الثلاث ، ورأين فيها من رجاحة العقل وحسن التصرف ما جعلهن يثقن بها . وقصت لهن قصتها فزدن حبا لها .. ولكن استهداف الشابات الاربع لظلم بكير بك وتحويلهن من حرائر ذوات أسر الى جوار لا يعرف أحد عنهن شيئا ، كان ذلك أقوى رابطة جمعت بينهن .. حتى لقد بدأت سماح تحرضهن على التخلص من قبضة العجوز الدميم قبـــل أن يحضر وهى مطمئنة الى أنهن سيحتفظن بسرها .. وكانت تقضي نهارها تتطلع من بين نقوش المشرفية المطلة على شارع الغورية عل القــــدر يسعفها بمرور اخيها او جلال الدين « يأرب .. هل يسمح القدر ؟؟ » .

***

وفى الأمسية التى هزمت فيهـــا القوات المصرية عند امبابة ، عاد بكير بك الى قصره بعد غيبة طويلة ، وكانت نتائج المعركة تلوح عليـــه بشكل واضح ... كانت ذراعه تنزف دما على أثر رصاصة نفذت فى

العضد ، وكان مصابا برصاصة أخرى نافذة فى أسفل بطنه . والدم يسيل من جرحه فيلوث ساقيه ويرسم اثر خطواته على ارض البهو الواسع ولكنه مع هذا الاعتلال الذى يقربه من النهاية دخل القصر هائجا وصاح فأسرعت الشابات الأربع الى متابعته ، واخذ طريقه الى درج السرداب واخرج مفتاحا وفتح بابا صغيرا ، ثقيلا ، ارسل صريرا مزعجا . وعلى الفور فاحت رائحة عفنة ، وقال فى وحشية : تقدمن .

ونظرن الى الظلام الدامس الذى يغمر السرداب بجزع ، وقالت سماح : الى اين ؟ وهنا صاح العجوز وهو يهوى عليهن جميعا بسوطه : ان العربة فى الخارج .. ولا اريد أن اضيع وقتا ، هرب العبيد .. كلكم كلاب .. ستحملن خزائنى الى العربة وتركبن معى .. هيا .

وتقدمن فى جزع يتحسسن طريقهن الى أن اصطدمن بخزانة حديدية ضخمة حاولن جذبها من حلقاتها ولكن عبثا .

وصعدت احداهن وعادت بشمعة مضاءة وحبل ، وربطن الخزانة وحاولن جذبها والشيخ يزداد جنونا فيضرب ظهورهن بالسوط . ولم يطق الرجل صبرا ، فدفعهن بعيدا ولف الحبل على كاهله وما زال دمه ينزف ، وتترس فى الأرض ... واطلق زفيرا قويا لافحا وبعد لحظة واحدة .. سقط صريعا .

وهنا ظهر سراج وليس على وجهه اى تعبير ، وقال : لو اننى اريته وجهى لقتلنى قبل أن يموت .

***

وقالت نرجس فى نبرات خائفة متجهة بحديثها الى سماح : الامر اليك .. اننا لا نعرف ماذا نفعل ، انت فتاة عاقلة ، وان كنت اصغرنا . وتطلعت سماح الى وجوههن لترى على ضوء الشمعة الباهت مقدار ما فى قولهن من صدق .

فلم تجد الا الخوف والاستسلام المطلق . فقالت : لقد افادنا هذا الرجل .. ترك لنا قصرا وسراديب .. وأموالا . وطمأننا قبل أن يموت بأن خدمه فروا ، وليس معنا سوى سراج .. وليس هناك احتمال لحضور مملوك آخر . لقد قرأتم مصيرهم على وجهه ..

فما العمل ؟

— يجب أن نتريث حتى تهدأ المدينة ، ونرى لمن سيكون النصر فى المعركة الدائرة ، أما الآن ... فلندفن جثة البك حيث كان يدفن ضحاياه فى السرداب .

فى الصباح الباكر كان « الديوان » الذى كونه بونابرت مجتمعـــا برياسة الشيخ الشرقاوى ووكالة الشيخ المهدى ، وكان الجنرال نفسه حاضرا الجلسة ، وتحدث بونابرت الى المشايخ قائلا :

ـــ اننى اضع مصير الشعب بين أيديكم ، ان هذا حقكم ويجب أن تتحملوا مسئولياتكم كاملة فى خدمة وطنكم ، أليس القرآن يقول بهذا ؟

فقال الشرقاوى : صدق الله العظيم ، لكن من أين لنا ذلك وقد غلبنا الدخلاء على امرنا : اتراك ومماليك ، وارمن .. واجناس اخرى ما انزل الله بها من سلطان !!

فقال الجنرال مصطنعا مرح لبناء البلد : لقد ادبتهم لك بيدى هذه ، وها أنت سيد نفسك الآن ، والرسول يقول : لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

فردد المجلس فى خشوع : صلى الله عليه وسلم .

وأخيرا قال المهدى : لكن لماذا تلبس العمامة والعباءة ياســـــــيدى الجنرال ؟ انك رجل عسكرى : أهذا هو شعار الديوان ؟

فاصطنع الجنرال البراءة والطيبة وهو يقول : ان الاسلام حقيقة ، وقد آمنت بهذه الحقيقة . ولكنى رغبت فى أن اتخذ هيئة المسلمين ايضا حتى يأنسوا الى . انكم اكثر فهما لطبيعة الحياة منا ، اننا نعقد ملابسنا فنضيق بها ، ولكن الثيـــاب المصرية عبر التاريخ نموذج مثالى للبساطة والجمال . انظر الى ثياب الفراعنة ، ان تاريخكم رائع ...

وهكذا استطرد الجنرال فىحديثه يستشهد بالقرآن مرة ، وبحديث النبى أخرى ، وبالتاريخ المصرى مرة ثالثة ، محاولا انتزاع اعجاب المشايخ والسيطرة عليهم . وجينو ينظر الى جنراله ويعجب لقدرته الخارقة التى تلبس لكل حال ما يلائمها ، والمشايخ يتابعون كلامه فى دهشة لا تخلو من اعجاب .

وهنا قال الجنرال وما زال الجــو المرح مسيطرا على الجلسة : الحقيقة ان الشعب المصرى شعب فيلسوف ، يفهم الحياة حق الفهم ، وقد علمنى الكثير ..

فسارع الجالسون قائلين : العفو « يا سارى عسكر » .

فقال وهو يرفع يديه مؤكدا : هذه حقيقة ... ومن أمثالكم الطيبة : اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب !!

فتجرأ المهدى وأراد أن يرد مزحة الجنرال بمثلها فقال : يا سيدى ان هذا مقدمة لكى تستدين منى جنيها !

وضحك الجنرال فضحك الآخرون ، ولكن الجنرال غقب على الفور وهو يسدد للمهدى نظرة ثاقبة :

ـــ هذا ما أريده بالضبط ، لكن ليس منك . انت عالم كبير وبيتك مطالبه كثيرة ويقصدك أرباب الحاجات . نحن نأخذ من التجار والفلاحين مثلا . لقد صرفنا ما فى الجيب فعلا على خدمة البـــــلد ، ونريد ما فى الغيب . وأنا أعرض على الديوان اتخاذ قرار بفرض ضريبة اضافية ، انها ضرورية جدا لامكان سير الحياة فى القطر ، وللاصـــلاحات التى نقوم بها .

فقال المشايخ : اننا موافقون ، ولكن كيف نقنع الناس بها ؟

فقال الجنرال : ان موافقتكم ستقنعهم . هيا .. وقدموا هنا .. وشرب المشايخ القهوة ودخنوا النارجيلة وضـــحكوا مع الجنرال .. وانصرفوا .. وعاد هو الى مكتبه بثيابه العربية الفضفاضـــة ، ومركوبه الاصفر . وعمامته الكبيرة ...

وهكذا يقضي الجنرال يومه حتى اذا اقترب القرص الأحمر من حافة الأرض ركب بثيـــــابه تلك ـــ عربته ، والى جانبه مرجريت التى نسيت زوجها ، ومن خلفهما ياوره جينو وحرسه الخاص . وينطلق الموكب مع غبش الغروب من حديقة قصر الأزبكية قاصـــدا بولاق . حتى يسامت شاطىء النيل فيلهو عليه ما شاء له هواه ..

وكانت هذه الرحلة كل مساء تمسح من قلوب الناس ما تناهى الى اسماعهم فى الصباح عن أخلاق الجنرال وحبه لهم .

وعقب احدى رحلاته المسائية تحدث مع جينو همسا : أن حلتى قد اتسخت !!

— نحاول أن نغسلها !!

— لا ... لقد مللتها . أريد حلة جديدة .

— ولكنى أخشي أن يكون فى طريق الحلة الجديدة بعض الصعاب !

— ممـــن ؟؟

— آه ... ان الضباط يتحدثون عن هوى مشبوب نبت حديثا بين جوليا وصديق أبيها جوليان . لقد اطمعه مونتى فى تزويجهـــا ليتولى حراستها ، فأخذ الأمر مأخذ الجد ، وغرقت المراهقة الصغيرة فى حبه .

— دع عنك هذا . أريد جوليا ، لقد سئمت أمها ، حتى مونتى لم بعد يسأل عنها أو يحاول اعادتها اليه !! لقد فقدت قيمتها فى عينى .

— اذن يجب أن يرحل جوليان . !

— سيرحل جوليان .

وفى اليوم التالى قاد جوليان سفينة صغيرة فى النيل يحرسهـــا خمسة عشر جنديا قاصدا الاسكندرية برسالة لكليبر . وقد تشكك فى سبب اختياره وحرضته جوليا على العصيان . ولكنـــه لم يجرؤ ، وفى مواجهة قرية صغيرة .. عند السالمية مات جوليان ..

أما جوليا فما كادت تعلم بســـفر حبيبها حتى فطنت الى ما يراد بها وتحققت ذلك حين زارها جينو يستدرجها الى صـــحبة الجنرال . وأحست باحتقار شديد لرجل يعشق أمها ، ثم ينبذها ليضعها فى ذات المكان !! حتى لقـــد صرخت أخيرا فى وجه جينو قائلة : لئن حملتمونى بالاكراه الى جنرالكم هذا فسأصفعه على وجهه ، انه لن يفعل اكثر من أن يقتلنى ، وها هو يمارس فعل القتلة واللصوص منذ شهر !!

وقد بلغ هذا الاصرار العنيف حد الهياج عندما علمت جوليا بعد ايام بمصرع حبيبها .

أما مونتى فقد انطوى على نفسه فى حزن عميق حين علم بموت رفيق الســـلاح وعجب كيف يعيش آلاف يبغضون المصريين ويقتلونهم وينهبونهم ، ويموت الرجل الوحيد الذى أحبهم ؟ !

وصار مونتى يتفوه بكلمات عدائية ضد الجنرال بين حين وآخر . وصارت عائلة مونتى مصدر متاعب للجنرال فأمر بأن تكون ضمن الفرقة الذاهبة لاحتلال المنصورة .

***

لم يكد سليمان العايدى يعلم ان فرقة من جيش الأعداء تتجه الى المنصورة حتى قرر أن يسبقها الى هناك . واقنع عمه وعمته بضرورة سفره ليزور القباب ، لأن (سماح) لا تعرف لهم محل اقامة فى القاهرة ، ولعلها وقعت فى يد رجل شهم سألها عن بلدها فأعادها ، وربمـــا كان جلال الدين قد عاد . من يدرى مخبآت القدر !؟

وفى الطريق الى المنصورة لم يشعر سليمان لحظة واحدة انه فى طريق يمتد فى الحقول ، فقد كانت تجمعات الفلاحين بالبنادق والحراب تتوالى على الطريق كأنها جماعات طير تغادر أوكارها الى حيث يطيب لها أن تبحث عن رزقها ، وكانت الخيل تجرى بين القرى وكأنها فى سباق ولم تكن كل قرية تدافع أو تهاجم بمفردها بل تآزرت القرى على تأليف فرق متجانسة من المشاة أو الفرسان ..

وهنا وقع بونابرت فيما خافه سابقا ..

هاهى البلاد كلها تنتفض بشعور موحد وأمل موحد .

ومع غروب اليوم التالى وصل سليمان العايدى الى المنصـــــورة ومنعه حلول الظلام من مواصلة الرحلة الى قريته ، فقصـــــد الى خان قضي فيه الليل وبكر بركوب جواده وانطلق الى القباب حتى يتمكن من العودة الى المنصورة قبل وصول الفرقة الفرنسية ، ولو انه انتظر فى الخان قليلا ، أو طرق باب الحجرة المجاورة لالتقى بمفاجأة كبرى !!

وفى القباب رأى علامات الخراب تلوح على الدار الجميلة التى كانت جنة حياته : النوافذ مغلقة ، وطبقة من التراب تكسوها بلون قاتم مقبض ، والحديقة محطمة السياج محرومة مما يحلو فى الفم أو الأنف أو العين ... وعند الجيران لم يجد أكثر مما يعرف من أخبار ، فألقى اليهم بنبأ فقدان سماح ، وثنى عنان جواده عائدا ، ولكنه لم يكد يبلغ المدينة حتى أزعجه ماهى عليه من هدوء صامت وكأنها قررت الاستسلام للعدو ، وقد كان هذا بالفعل ! فقد دخلت الفرقة الفرنسية مدينة المنصورة بلا قتال .. دون أن يراق دم فرنسي واحد أو مصرى واحد .. وقد اغبط هذا قائد الفرقة واغتبط له الضابط مونتى الذى بدأ يبحث عن السلام ويحن اليه ، وقد شجعه ما رأى على ان يترك مرجريت وجوليا مع الفرقة التى سترابط فى المنصورة ، وواصـــــل هو الزحف الى الشمال مع فرقة أخرى ، ولقد اتخذ مونتى هذا القرار باعتبار أن المنصــــورة الوديعة المستسلمة ستكون أرفق بأسرته من طوبار ثعلب بحـــيرة المنزلة الذى

بعث لبونابرت برسالة يقول فيها : انه يرفض هدايا الجنرال ويعد له قبرا لائقا فى قاع البحيرة .

ولم يكن مونتى يعلم شيئا عن مخبآت القدر !

وانطلقت الفرقة الصاعدة الى دمياط فى طريقهـــا ، وبقيت فى المنصورة فرقة أخرى من مائة وخمسين جنديا وامرأتين . ولم يكد يمضي على رحيل فرقة دمياط ساعة حتى بدأ أهالى المدينة فى التجمع . فى هذه اللحظة فهم العدو معنى الصمت ، وقرأ مصيره . وأعـد سليمان سلاحه للمعركة ..

ولقد احس قائد الفرقة بالخطر المبيد الذى تتعرض له فرقته فحاول أن يتجنب الاشتباك ، ولكن شعب المدينة كان فى هذه اللحظة هو سيد الموقف فهجم فى شكل دائرة مفتوحة مالبثت ان اغلقت ، وبذلك حالت بين الفرقة وبين التقهقر الى طريق دمياط واللحاق بالآخرين .

وبدأ الجنود يتساقطون .. واكتشف القائد منفذا لفرقته يطل على النيل فاقتحم بجنوده الشاطىء واخذ يغرى ويهدد الصيادين لحمل جنوده للعبور !! ولكنهم ابو عليــه أن ينزل جندى واحـــد الى زورق مصرى . وازداد زحف جموع الشعب ، وضاق الخناق . ومن سفينة صيد صغيرة بريئة المظهر ، تحمل عشرة رجال أشداء وعلى راسهم فتى وسيم يحملون شباك الصيــد فى أيديهم ، من هذه السفينة صـــــدرت اشارة صغيرة للصيادين بحمل بعض الجنود ، وبعد دقائق كان الصراخ يتعـــــالى فى الزوارق جميعا ، وكان جلال الدين يقهقه فى وحشية لمنظر الدماء التى غطت سطح الماء ، وهو يقول : لقد جاءوا من فرنسا ليستأثروا بالنيل . فها نحن نقتلهم على ضفافه ونجعله مقبرة لهم .

***

مشكلة صغيرة واجهت جلال العايدى ... فقد أبيدت الفرقة عن آخرها اما على الشاطىء أو فى الزوارق . وكان ضمن الجنود النازلين فى سفينته امرأتان جميلتان ، وقد قتل الرجال واستبقى المرأتين .. ترى ما عساه أن يفعل بهما !؟ .

ذلك ما كان يفكر فيه وهو مستلق فى آخر الزورق يعبث بالدفة ، ويرمى ببصره معشريط الماء الممتد، ويتخيل ابنة عمه وحبيبة قلبه (سماح) مكانهما ، وماذا كان يتمنى أن يفعل بها من تقع فى قبضته من الاعداء ؟

لم يكد سليمان العايدى يعود الى بيته ويبلغ عمـــــه ما وجد فى القباب حتى فوجىء بعم حنفى أمامه وكأن الأرض انشقت عنه ، وهتف الرجل بأعلى صوته وعلى فمه ابتسامة واسعة لاتناسب اشجان الموقف : الله اكـــــبر . . .

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ماكان يعــرف طيب عرف العود

اقسم أن هذا غبار المعركة وليس غبار السفر . من يصـــدق أن الشيخ سليمان قد تحول الى فارس عنيد ! الله أكبر . . لقد استرد الأسد طبيعته !!

بعد أن تمزقت قوات المماليك عند امبابة ، وذاقت قوات الشعب مرارة اللقاء الأول مع العدو الجديد ، ودفعت ثمنه آلاف الضحايا الذين التهمهم النهر ، أو حولتهم المدافع الى اشلاء أو داستهم الخيل .. خيل الجنرال فى تقدمها المنتصر أو خيـــل المماليك فى اندحارها المذعور ، وانسحابها المرتجل الفوضوى ... بعد أن حدث ذلك كله دخل بونابرت القاهرة وقصد الى افخم قصور المماليك وأجملها موقعا — حيث كان يشرف على بركة الازبكية — فاتخذه مسكنا له ومقرا لقيادته . واخلى ما حوله من القصور والمنازل وطرد سكانها وجعل منها ثكنات لجنوده بعد أن سورها وحصن مداخلها .

وبعد أن اطمأن على حياته وحياة جنوده ، عاد ينظر الى القاهرة ويفكر كيف يخضع أهليها لرأيه واشارته وهو صديق بعد أن دخلها بقوة السلاح وهو عدو !! فهداه بحثه الى أن مشايخ الازهر هم وحدهم الذين يسمعلهم الناس ويطيعون ، وهم وحدهم الذين اذا تمتللجنرال السيطرة عليهم ، بوسيلة ما ، سمع الناس له وأطاعوا !

وجمع الجنرال شيوخ الازهر ، وأعلن تكوين مجلس وطنى يدير أمور الدولة تحت اشرافه ، وجعل لهم سلطة شكلية وهمية .

ولكن القاهرة بعد عنف الصدمة الأولى أخلدت الى سكون شديد وصمت تام . عادت تلعق جراحها وتعيد النظر فى موقفهـــا وتكشف طريقها من جديد على ضوء المعركة القاسية التى خاضتها .

ولقد استراح الجنرال لهذا الصمت واعتبره علامة الخضـــوع والانقياد ، فعاد اليه والى جنوده شعور الأمان ، وأدى اعتقاده بخضوع القاهرة وانكماشهـــا الى توزيع جيشه على أقاليم مصر ، ليطارد فلول المماليك ويخمد الحركات الثورية التى تقوم بها المدن والقرى ...

وتوالت حركات الاغتيال الجماعى لجيش الجنرال فى الاقاليـــم ، كما حدث فى دمنهور والمنصورة ، وعلى الطرق بين القرى .

والقاهرة صامتة لم تتحرك ...

وهنا بدأ الجنرال يرتاب فى صمت المدينة الكبيرة ، ولم يعد الصمت فى رأيه علامة انقياد واستكانة وانما بدت له احياؤها المتعاطفة المتلاصقة أشبه بمجموعة من النمور التى اخلدت الى الصمت انتظارا للحظة الوثوب على الفريسة وهى أقرب ما تكون ...

كانت المدينة أشبه بواد كبير مهجور ، أو مغارة جبلية مفزعة !

وضاق الجنرال بهذا الصمت ، وخاف مما يدور فى داخل المنازل . وهنا قرر أن يقتحم هذه البيوت ليعرف ما يدور فيها ولماذا لا تزاول حياتها العادية فى أمان ؟

وعلم جنود الجنرال بقراره فوجدوها فرصةجديدة لاتعوض لارضاء نهمهم الى المال والتحف ، ورغبتهم فى النساء . وكانت حجة الجنرالفى ذلك انه يبحث عن المماليك المختفين !!

***

قالت سماح : لم يعد لنا سواك يا سراج ...

ـ انا طوع أمرك يا مولاتى .

ـ انا لست مولاة لاحد !!

انا ريفية من مصر مثلك .. وقد جمعت النكبة بيننا .

ـ اننى خادمك المطيع يا سيدتى .

قالت فاطمة : اسمع يا سراج ما تحدثك به سيدتك سماح ، وافهمه جيدا ، نحن الآن لسنا فى حاجة الى خادم ، وأنت فتى أمين .

وعادت سماح تقول : اسمع يا سراج . ان القدر قد جمع بيننا فى هذا المكان على غير موعد . وانت شهم أمين .

ـ اننى أفديك يا سيدتى ..

ـ لم يعد لنا سواك .. فأنت اذننا التى تسمع مايدور فى الخارج ، وعيننا التى ترى ما يحدث هناك ...

ـ اننى رهن اشارتك ياسيدتى ، لكن الذين فى الخارج هم الذين يريدون معرفة ما يدور داخل البيوت . ان الفرنسيين يفتشون المنازل الآن .. فقاطعته نرجس فى جزع : وهل سيفتشون منزلنا ؟

— من غير شك . بل انه من أول المنازل التى تتعرض لذلك لأنه لسيد من المماليك . لقد بدءوا بالفعل . وكل من وجدوا عنده شـــيئا ممنوعا .

— شيئا ممنوعا !؟

— نعم ... مثل الأسلحة او الجنود الهاربين أو الأطعمةالمخزونة ، قبضوا عليه وسجنوه الى أن يدفع الجزية ويفتدى نفسه .

ليس عندنا شيء من ذلك والحمد لله .

— ولو !! انهم لا يخرجون بأيديهم فارغة خصـوصا من منـــازل المماليك أو التجار ...

لقد دخلوا على السيدة نفيسة المرادية زوجة مراد بك ولم يجدوا عندها شيئا ممنوعا ، ومع ذلكاخذوها الى أن دفعت غرامتها الف ريال .

— الف ريال ...

— نعم .. يظهر أن الجيش أوشك على الافلاس فاخترعوا هذه الحيـــلة .

قالت نرجس وهى ترتجف : يجب أن نعد لهم النقود ... اربعة آلاف ريال حتى اذا اتوا تذفنا لهم بها دون أن يزعجونا بتفتيش القصر أو باخذنا الى السجن ...

وفتح سراج فمه ليتكلم ، ولكنه بعد لحظـــة عاد ولم ينطق .. ولاحظته سماح فقالت :

— لاتتردد فى أن تقول ما تعتقد .. لقد اخفيت شيئا .

— لا داعى لازعاجكن يا سيدتى .

— قل كل ما تعلم ... اننى فى ازعاج دائم منذ عامين ..

— لقد وجدها الجنود فرصة للنســاء وسرقة الأموال .. واختلط الحابل بالنابل .

— وكيف نعرف الحقيقى من المزيف ؟

— لا ادرى !!

— وانتشر على الموقف صمت ثقيل . وراحت كل واحدة تفكر فيما

يجب علينا فعله لو دهم القصر واحد من أولئك ، ولا بد أن يحدث ذلك قريبا ، وكيف تتصرف ان جاء الذين يفتشون .

ـ وقال سراج : بكيربك .

ـ مالــــه !!!

ـ جثته المدفونة فى السرداب .. ان هـــذا السرداب اللعين سيسترعى انظارهم ولا بد ان يفتحوه ولو نسفوا بابه بالقنابل وربمـــا اتهمونا بقتله ..

ـ اتظن ان ذلك يمكن ان يحدث ؟

ـ اذا كان هذا الاتهام يفيدهم فى أخذ مال اكثر فانهم سيوجهونه الينـــا .

ـ اذا كان جشعهم كله متجها للمال فاننا يجب ان نعد لهم مبلغا كبيرا يسد أفواههم . وعاد الصمت يلف المكان . وفجأة سمع طرق خفيف على باب القصر .

وتبادلن النظر فى فزع وظنت كل منهن انها واهمة ولكن الطرق كان شديدا ومتواصلا .

ونظر سراج اليهن فى ثبات وقال اخرجن الى الحديقة واجلسن فى شمسها حتى لا يسير القادم كثيرا بين قاعات القصر . فقالت نرجس فى ذعر : وحتى نستطيع الاستغاثة بمن فى الطريق اذا لزم الأمر . فرمقتها سماح بنظرة ثابتة لايمازجهـا خوف وقالت : اياك ان تفعلى فان القصر سينهب ، ونلقى حتفنا على أيدى الجنود ..

وفتح سراج الباب على مهل ، فوجد جنديا واحدا وفى يده سلاحه ولكن رائحة الخمر تفوح من فمه . وتساءل الجنــدى بلسان ملتو : أين سيد هذا البيت ؟

ـ انـــا .

ـ انت !! عجبا ... فلماذا لا ترحب بى !؟

ـ ولماذا ارحب بك ؟؟

ـ اننى ضيفك .. أريد ان أرى هذا القصر من الداخـل .. ورفع الجندى سلاحه وجعله معترضا أمامه . فأفســح له سراج الطريق ثم اغلق الباب .

وما كادت الفتيات الاربع جالسات فى شمس الحديقة حتى تقصدهن على الفور فتسمرن فى مكانهن من الخوف واحست سماح بتثلج فى أطرافها وبأزيز وطنين يملأ رأسها حين رات الجندى يقصدها ، ويجلس الى جانبها وهى لاتقوى على الحركة ...

— جئت لأسعد بالجلوس معكن ، وهذا السيد قد أذن لى فى ذلك . قال الجندى ذلك وضحك فى تماجن : ان لى فى باريس حبيبة لم تكن تكف عن مغازلتى ... الا يسعدكن وجودى ؟ لماذا لا تتحدثن معى ؟

وهنا انطلقت نرجس من مجلسها فجأة .. وكانت فى انطلاقها المذعور تتكفأ فوق الحشائش وحول المقاعد حتى أختفت بين القاعات . فقال الجندى متسائلا ؟

— لماذا قامت هذه السيدة ؟؟

فقال سراج الذى كان يقف وراء الجندى ويشير للفتيات ان يتمالكن : انها خائفة ؟

— وهل انا مخيف ؟

— لا .... أنت فى غاية الظرف ، ولكنها تخشي السلاح . انها سيدة ..

— آه ... كم انا ابله !

واطاح ببندقيته بعيدا .. فانحنى سراج والتقطها . لكن الجندى نظر اليه محذرا ..

— اياك أن تعبث بها والا اخفت السيدات الجميلات .

ثم التفت الى سماح ورفع يده ليطوقها وهى جالسة الى جانبه : هل اعجبك الآن ؟

وما كادت يده المتشنجة تحيط بخصرها حتى هبت واقفة . ووجدت فاطمة ودرية الفرصة مواتية فأطلقن سيقانهما متجهاتالى داخلالقصر . فأرخى الجندى يده فى غضب وقال : أين ذهبتا ؟ ونظر الى سراج بعيون محتقنة وملامح قاسية وهتف : هات البندقية .

— اننى سأقتلك بها ....

— تقتلنى !؟ انت وغد ... انا الذى سأقتلك .

واخرج الجندى خنجرا من منطقته واتجه الى سراج وتوارت سماح سريعا . واخذ سراج يتراجع متظاهرا بالخوف . وهو لايطلق الرصاص حرصا على الصمت ، ثم استدار وجرى مسرعا يتبعه الجندى ، وصعد السلم ودخل بهو الاستقبال ووقف بجوار القرص اللاعين ، ولكن الجندى حين تقدم بضع خطوات هوى فى الخنـــدق الضيق وقد اخرس الفزع لسانه .

ونزل سراج فطعنه من الكوة بالسيف دون ضجة .

وعادت الفتيات وعلامات فزع ممزوج بالسرور ترتسم على وجوههن وقالت سماح : لقد رسم هذا الجندى الطريق لرفاته .

وقفت سفينة الصيد الصغيرة ترقب المعركة الرهيبة من بعيد ، وقد شاهد رجالها الاسطول الانجليزى وهو يقوم بحركة التفاف سريعة حول الاسطول الفرنسي الرابض فى الخليج فيحصره فى مكان ضيق ويشل حركته ، ثم يمطره بقنابله . وتبارى الفريقان فى الرمى واشتعلت النار فى سفن كثيرة من الفريقين ، والتهب وجه الماء بفعل الزيت السابح أثر الانفجارات ...

وقهقه عطية الدمنهورى وهو يقول : مازلت أذكر تلك الحكاية التى قصتها على جدتى منذ عشرين سنة ....

فقاطعه أحدهم مازحا : هل جدتك جنرالة فى جيش فرنسا ؟

فقال عطية ضاحكا ولم يفقد روح مرحه : ياصديقى الغبى .. انا دمنهورى وجدتى امرأة عجوز تبيع الحمص والحلوى أمام باب السيد البدوى فى طنطا لا فى فرنسا !!

— فما دخل جدتك بائعة الحمص بهذه المعركة ؟

— أنت لا تعرف شيئا .. ان كلام العجائز يصلح لكل شيء .. عندهن تجربة عمر طويل .

— وماذا قالت جدتك ؟ ..

— قالت — الله يرحمها — ان ذئبا خطف ديكا ، ولكنه قبل أن يجهز عليه لمح ذئبا آخر أقوى منه مقبلا ، فاختبأ فى حقل ، ولكن الديك صاح لينبه الذئب الآخر وهكذا اشتبك الذئبان فى عراك .. فلم يبق من الاول الا ذيله ، ولم يبق من الثانى الا ذيله !! .

وضحك الرجال لطرافة الخاتمة التى تصور ذيلين مطروحين أرضا لا حول لهما ولا قوة ...

وابتسم جلال الدين للحيوية التى يواجه بها رجاله الموقف ،

وابتسم اكثر للرمز الذى فطن اليه عطية الفتى المرح . لكن خاطرا حزينا مر بخياله ، فقال وهو يرمق الافق الملتهب والدوى يهز الارض : ولكن لنا فى بطن الذئب الاول ابن حبيب ياعطية ..!!

ـ يستطيع الديك أن ينجب الف ابن مثله .... وما أكثر الدجاج ..

وعاد الرجال يبتسمون فى شحوب حين ذكروا أن السيد كريم لابد أن يكون فى داخل سفينة من تلك السفن المحترقة . قال جلال الدين وهو يجز على أسنانه فى غيظ : لقد ثأرنا لكريم فى اللحظة التى يموت فيها .

ثم غادر مجلس الرجال وانفرد بنفسه فى مؤخرة السفينة الصغيرة تنتابه الافكار القاسية . ويتأرجح بين الرضا عن نفسه ، والاتهام لها . وكانت المعركة قد انتهت بهزيمة الفرنسيين ، وبرجوع الاسطول الانجليزى الى عرض البحر لمراقبة الشاطىء من بعيد ، فأمر جلال الدين رجاله بالعودة الى وكرهم في السالمية .. ولكن النيل كان مملوءا بالسفن النيلية الصغيرة التى تحمل جرحى الاسطول الى القاهرة فتعذر على سفينتهم المرور فانتظروا يومين كاملين الى أن عاد الهدوء ، ثم واصلوا الرحلة الى السالمية ليجدو مفاجأة لم تخطر لهم على بال .

لم ينس الفرنسيون أن السالمية قتلت جوليان ورفاقه ، وقطعت خطوط البريد بين القاهرة والشواطىء ، وانهـا افسدت عليهم احتلال دمنهور وأنها تتمتع بقوة غير عادية بين القرى وتجمع الفلاحين وتسلحهم ...

من اجل ذلك كله اعدوا عدتهم للانتقام وذهبت فرقة كاملة لتأديب السالمية ، وكان رجال الوكر مازالوا يحرسون مداخل القرية ، فكانوا أول من اشتبك مع الفرقة الفرنسية وانطلق أحدهم يستنجد بالقرى المجاورة ، ويبحث عن سفينة جلال الدين بما عليها من رجال...

كان سلاح الفلاحين الفئوس وبعض البنادق القديمة التى أخذوها من الوكر ، ولكن القوة المواجهة كان معها بعض الفرسان ، وبعض المدافع الخفيفة التى تفوقت على البنادق وطردتها من الميدان . ولكن رجال السالمية ورفاقهم لم يستسلموا بل اختبأوا فى الزوايا وفوق الاشجار واشتبكوا مع عدوهم فى قتال مرير دون أن يستولى عليهم يأس .

وفى لحظة حرجة .. وقد أوشك جنود فرنسا أن يفقدوا أنفسهم

امام اندفاع عدوهم الذى لايتردد ، تسرب بعض الجنود متسترين بالظلام واشعلوا النار فى القرية من ثلاث جهات ...

وبعد ساعات تحول الوكر الى حطام ..

***

قال جلال الدين فى غضب وانفعال أترون أن ننهى المقـــاومة من اجل احراق قرية ؟؟

فقال أحدهم : اننا السبب فى احراق هذه القرية . لولانا لعاشت فى سلام ..

ـــ اننا لم نحرق شيئا ، لاتحولوا نقمتكم على عدوكم الى ندم .. ان هذا جزع لايليق بالرجال . الم نضح بكريم ولولا الصدف لقتل فى الاسطول حرقا لولا تأخر الرسالة وترحيله الى القاهرة ؟

ـــ ان كريم رجل واحد ، لكن ماذنب هؤلاء الاطفال وتلك النساء !؟ أنظر الى هذه الخرائب ، انظر الى جثث الرجال المحترقة والمتعفنة ، أنظر الى أثاث منازل الفقراء الملقى فى الطريق أو الذى التهمته النار .. أنظر ..

ـــ كفى !! أنا الذى أقول لك انظر أنظر ماذا فعل العدو بأهـــلك لتثأر وتنتقم ؟ يجب أن نثأر ... هــــذا واجبنا . لا أن نبكى مثـــل النساء !

ـــ اننا ضعفاء فلا نحرز نصرا ولا ندفع شرا ، وسيكون كل مكان نحل فيه منحوسا كتبت عليه الهزيمة . ماذا تفعل حفنة من الرجال الا أن تثير العدو فينتقم بهذه الصورة البشعة من الابرياء !؟ اننا مسئولون عن هذه الجريمة فقال جلال الدين فى غيظ محموم : أتوافقـــون هـــذا الرجل على ما يقول ؟

ولم ينطق أحد .. فعاد يقول فى غيظ مكبوت : لماذا تصمتون ؟ هل هو وطنى وحدى ؟ انه وطنكم أيضا هل أتعرض للنيران وحدى ؟ أنكم فى المعركة مثلى ، تحملوا مسئولياتكم وتكلموا .. ليس هذا يوم الصمت ، لست تركيا ولا مملوكا . أنا جلال الدين . واحـــــد منكم ، يستشيركم فأشـــــيروا عليه . هل ننهى المقاومة ويذهب كل منا الى بيته ؟ .

فقال عطيه : ان نصف كلام هذا الرجل حق ـــ اننا قلة لايمكن أن

فثبت أمام جيش كبير ، لن نحرز نصرا نهائيا .. اننا نعتمد على الضربة الخاطفة ، ولكن ذخيرتنا قد نفدت ــ لقد تفجر الوكر ...

فى الفيوم جيش مقاومة ، وفى أسيوط جيش آخر ، فلننضم الى أحدهما أو ندخل القاهرة ، فقد سمعت ان فيها بوادر حركة ...

ــ أقترح أن ننضم الى قوة طوبار فى بحيرة المنزلة . لقد عشنا فى البحر طويلا ونستطيع أن نقاتل فوق سطحه .. فما رايكم ؟

ووافق الرجال حتى أولئك الذين احسوا بالندم واهتز ثباتهم أمام جثث الاطفال والنساء المحترقة . ان القوة الموحدة تضفى مشاعر جديدة قد لاتوجد عند بضعة افراد ...

وذات مساء بلغ الرجال المنصورة . وفى الخان الذى قضي فيه سليمان العايدى ليله ليواصل طريقه الى القباب مع الصباح الباكر ، قضي جلال الدين ليلته يتقلب فى سريره فى الغرفة المجاورة يستعرض ما مر من احداث اليوم الفائت ويستعيد ذكريات الايام البعيدة ... ويحدث نفسه فى حنان مشبوب : هأنذا بينى وبين لقاء الحبيبة مسيرة ساعة على ظهر حصان ، ماذا يمكن أن يحدث لو أننى اختلست يوما وذهبت للقائها ؟! وأمى .؟ وأبى .؟ اننى أنانى كبير ..

وفى الصباح كان جلال الدين ورجاله يركبون زوارق الصيد التى اشتروها ليموهوا بها على السفن الفرنسية المنبثة فى النيل .. وقبل ان يبدأ رحلته هاجت المنصورة مثل خلية نحل ، وفتكت بالحامية الفرنسية على الشاطىء ، وفتك رجال جلال الدين بمن هرب الى زوارقهم وبقيت مرجريت وجوليا فى قارب لايدرى مايفعل بهما !! لقد غادر معركة ليستقبل معركة اخرى .. فأين يحتفظ بالمرأتين ؟

لامفر من تركهما فى بيته فى القباب .. فى طريق صعوده الى المنزلة بطريق بحر أشمون ...

وهكذا ظلت الزوارق تضرب وجه الماء طول النهار لتلحق بالقباب مع غبش الغروب وصعد جلال الدين من الزورق تتبعه المرأتان فى استسلام شديد .. واخذ طريقه الى داره ، والفلاحون يلاقونه فى عودتهم من الحقول بالاحضان والقبلات والدموع ، وارتاب فى دموعهم .. ؟ ولكنه كان قد رأى باب الدار من بعيد ، فراح يتساءل وقلبه يخفق :

كيف سيكون لقائى مع سماح !! كم طال حنينى !! ما أروع اللحظات

القادمة أود لو أطير ! الا تظن بى الظنون من أجل هاتين المراتين ؟ كلا انها عاقلة .. انها تعرف كم أحبها .

واضاء وجهه بابتسامة عذبة ما لبثت أن تحجرت فقد أشرف على الدار ورأى ماتعرضت له الحديقة من اهمال طويل ...

فحدس قلبه كل شيء فى لمحة خاطفة .

وحكى له عمدة القرية ماحدث لوالده بالتفصيل ، وما كان من رحيلهم . واخيرا قال له أن سليمان ابن عمه كان هنا أمس يسأل عن سماح ..

— سماح !! أى سماح !؟

— ابنة عمك ..

— اليست معهم ؟؟

— لقد رحلت معهم — لكن معذرة .. ألا تعرف هذا الامر ؟ ما أشد غبائى !!!

— بربك أنقذنى .. هل أخذها الأغا ؟

— لا .. لقد غادرت القرية مع الأسرة

— فلماذا عاد سليمان يسأل عنها ؟

وهنا استجمع الرجل قوته وقال : لقد ضلت منهم فى الطريق . ماذا أنت فاعل ياجلال الدين ؟..

واخيرا قبل العمدة أن تظل المراتان فى ضيافته حتى يعود جلال الدين الذى وعدهما بالبحث عن مونتى أو اعادتهما الى القاهرة بعد انتهاء الحرب .

وعاد جلال الدين الى أصحابه محطم القلب يطوى اضالعه على جرح عميق ... وانطلق موكب الزوارق صاعدا الى المنزلة وعطية عند الدفة يتغنى « بالشلبية » التى اصطادته ولم ينلها .. وجلال الدين يحلم من جديد بيوم يعود فيه الى القاهرة ليبحث عن ... « آه ... عم أبحث ؟ أين المخرج يا الهى !؟..»

***

كان طوبار — فى الفترة التى التقى به فيها جلال الدين — قد حول سفن الصيد التى يمتلكها الى سفن مسلحة ، وسيطر بوساطتها

على المدن المتناثرة حول بحيرة المنزلة وقرر أن ينطلق من مقر قيادته بالمنزلة ليحرر دمياط من الغاصبين ...

وقد واتاه التوفيق فى مقدمات الهجوم اذ استطاعت قواته أن تقضي على المخافر الامامية التى تحرس مداخل المدينة . وثارت المدينة ذاتها على من بها من الغاصبين . وعندما صار الطريق الى النصر مفتوحا حدث مالم يعمل طوبار حسابه !! فقد هاجمت فرقة فرنسية برية مدينة المنزلة ذاتها وسيطرت عليها فى غيبة بطلها عنها ، وبذلك سقطت قاعدة طوبار وامتنعت عنه امدادات الطعام والذخيرة .!

وسريعا مافك الحصار عن دمياط ، وعاد ليخلص قاعدته من براثن العدو . وفى أمسية حالكة ، وكان أسطول طوبار رابضا وراء بعض الجزر المتناثرة فى البحيرة ، وضع الرجال آذانهم على سطح الماء فسمعوا أزيزا شديدا ينبىء عن اقتراب قوة بحرية ضخمة ... وأخذ الرجال أهبتهم للقتال .

وبعد ساعة بدت السفن الفرنسية تتهادى على ماء البحيرة فى دعة وطمأنينة . وفى لحظة خاطفة ظهرت السفن المختفية وراء الجزيرة . واندفعت وكأنها صخور يقذفها بركان لتصطدم بالسفن المعادية ..

لقد ادرك طوبار حقيقة المعركة .. لقد كانت المدفعية الحديثة هى الشوكة التى طالما ادمت جنب القوات الوطنية . وفى هذه المعركة .. فى هذا الاشتباك الذى يتم وجها لوجه بالسلاح الابيض فحسب . والذى هو اقسي اختبار لثبات الرجال ، كان على المصريين أن يثبتوا كفايتهم .

وما كادت السفن تتشابك حتى وثب رجال طوبار بسيوفهم فوق السفن الفرنسية . ودارت مذبحة رهيبة .. وكانت السفينة الفرنسية المحظوظة هى التى تفلت الى دمياط ، بنصف رجالها ...

ولم يضيع طوبار الفرصة .. فقد تبع الفارين ليعيد حصار دمياط .. لكن القوة الفرنسية المرابطة فيها ما لبثت أن تقوت بما انضم اليها من فلول الاسطول المهزوم ...

هذا فى حين واصلت القوة البرية التى احتلت المنزلة زحفها الى دمياط لتحصره بين نارين ...

وأبى الرجل الشجاع أن يخوض برجاله معركة يائسة يفنيهم فيها. وقد عاونه فهمه العميق لطبيعة الحرب على تقبل هذا الامر فلم يتوان

فى ان يأمر رجاله بالتفرق حتى يحتفظ بهم لمعركة قادمة .. وان استشعر قلبه اسي عميقا وهو يودعهم الى حين ...

وتفرق رجال جلال الدين مع رفاقهم الجدد .

واخذ طوبار طريقه الى يافا مهاجرا واصطحب بعض الرجال معه لغرض يعلمه ويعدهم له ... وكان منهم جلال الدين ...

***

هل شعر هؤلاء بالاغتراب فى يافا ؟

كلا ...

فما الشـــام الا الدرع الواقية لمصر ، وما مصر الا الدرع الواقية للشام . هما كذلك منذ الازل ...

***

— أين تسهر هذا المساء ؟

هكذا قال الجندى الفرنسي لزميله وهما ينحدران من معسكرهما في القلعة بعد أن أديا نوبتهما فى الحراسة .

فابتسم الثانى فى خبث وقال : وأين نقضيه ؟ ان هذا أمر لم يعد فى حاجة الى سؤال ، اما خمارة الحسين تلك التى اقامها باروخ واما التيفولى فى الازبكية .

— من حسن حظنا أن باروخ خاف من أهل الاسكندرية بعد ان انكشف دوره هناك فاستأذن الجنرال فى الهرب الى هنا ليفتح خمارة ، ويتجسس لنا ..

— مهما يكن من أمر باروخ وخمارته .. فنحن تعساء .

فقال الآخر بأسف جاريا مع أفكار زميله : لهفى على ليالى باريس. انها فى أتعس أيامها ، فى عهد الارهاب نفسه لم تكن فى مثل ذلك القتام الضارب على هذه المدينة المنكودة . حتى تيفولى القاهرة ليس فيه من تيفولى باريس غير اسمه ..

وصمت برهة ثم أردف : اذا سئمنا حقيقة أن نحول القاهرة الى باريس صغيرة فان خمارة واحدة لاتكفى ، انها فى حاجة الى مائة وخمسين مرقصا .. حينئذ نستطيع أن نعيش وأن نزعم اننا حولنا مصر الى بلد متمدن !! واذا أردت الحقيقة فاننا اذا استطعنا أن نفعل ذلك فى القاهرة فقد نلنا النصر الحقيقى النهائى . ان انتصارات الميدان قابلة للتراجع ، والثأر لا يموت فى بلاد مثل هذه .

فقال صاحبه بلهجة مفعمة بالاعجاب : اذا كان هذا هو النصر فى رأيك فانى لأخشي أن تنتصر علينا هذه البلاد .. ان لها طابعا رزينا عميقا .. فيها سحر وغموض لذيذ يتعادل مع مايسود جوها من صفاء ووضوح .

ـــ اقسم بالشيطان أنك تقول شعرا . لقد أصابتك عدوى هذه البلاد .

ـــ لا .. ليس شعرا ، انما هى الحقيقة .. ما أكاد أسير فى الموسكى أو فى الغورية وتصافح أنفى رائحة البخورالصاعدة مندكاكين العطارة أو المحترقة فى البيوت الهادئة بين الوسائد والحشايا اللينة ، حتى يستولى على حنين غريب الى الثياب الفضفاضة والجلسة المريحة على المصطبة أو أمام الحسين ومداعبة مبسم النارجيلة !! أما ترى أن جنرالنا نفسه ـــ مع مافيه من دماء ارستقراطية لم يستطع مقاومة هذا الشعور ؟ ..

ـــأنت ساذج أكثر من المصريين أنفسهم .. ان الجنرال لم يفعل ذلك الا ليستميل المصريين اليه ..

فقال الآخر مستطلعا : أو تراه بلغ مايريد ؟

ـــ كلا .. انهم قوم أكثر جفافا من شمس يوليو التى أوشكت أن تبيدنا فى صحرائهم اللعينة .. لقد جمعالجنرال مشايخ الازهر وأغراهم بأنه سيدعهم يحكمون وطنهم ومع ذلك فانه ماكاد يضع وشاح الجمهورية على عاتق الشيخ « الشرقاوى » كبيرهم حتى ألقاه على الارض غير عابىء بالجنرال ولا بشرف الجمهورية !! .

فقال الآخر دهشا وعيناه جاحظتان : وشاح الجمهورية . الذى يتمناه أكبر مواطن فرنسي !؟ يا لهم من حمقى !!

ـــ أما جنرالنا فسيهجر ثيابهم ، لانه غير متناسب معها .. كل شيء فى هذه البلاد لايريدنا حتى الثياب .

وهنا بلغ الرفيقان مفترق الطريق الذى يجب أن يقررا عنده هل سيقضيان سهرتهما فى خمارة باروخ أو فى التيفولى . فقطع المتكلم حديثه وجذب صديقه فى اتجاه الازبكية وقال فى مرح : خير مانفعله الليلة هو أن نرقص .. لقد صدعتنى خمر الامس ، وقد نجد فى المرقص شيئا يعيد الينا أنسام باريس .. شيئا غير الكئوس الزجاجية !!

كان غبش الغروب قد بدأ يغمر الجو . وكان على جانبى الطريق أشجار متناثرة بلا نظام تزيده ظلاما وغموضا ..

***

كان سكان القاهرة — وقد مضي على نزول العدو الى مدينتهم ثلاثة أشهر قد عادوا بالتدريج الى مزاولة شئون حياتهم اليومية فى الظاهر والى تكتيل القوى وتأليف الجماعات فى الباطن .

وكان الجنرال بونابرت سعيدا بانقياد العلماء له ، وظن ذلك سبيلا للسيطرة ولكنهم فى الحقيقة لم يقبلوا التعاون مع الجنرال الا لانهم وجدوا هذا التعاون فى صالح وطنهم وان سلموا للجنرال ببعض المطالب فانه مازال يتزلف اليهم بقبول شفاعتهم فى العفو عن زعماء حركات المقاومة فى مختلف الجهات ، وكثيرا مابدل حكم الاعدام بالغرامة رغبة منه فى استرضاء هذا الشيخ أو ذاك . ومن جهة أخرى فقـــد كان السلطان الشكلى الذى يتمتع به العلماء يتيح لهم على ضـــآلته أن يتستروا على مايدور فى المدينة من اعداد لليوم الكبير الذى تتحرر فيه من الغرباء .

وهكذا استطاع عشرة من مشايخ الازهر الشبان ومعهم ممثلون لمختلف الحرف والطوائف أن يجتمعوا فى أصيل العشرين من اكتوبر بدار الشيخ ابن النقيب ، ويتحدثوا بحرية ودون خوف المباغته .

وفى القاعة الواسعة التى اختلط فى ســـمائها دخان النارجيلة بالبخار المنعش الصاعد من أقداح القرفة والزنجبيل ، كان ابن النقيب يجلس على وسادة متواضعة وقد أحاطت بوجهه المتغضن لحية بيضاء كالثلج زادته مهابة ووقارا ، وكان يداعب مبسم النارجيلة برفق وهو يتجه بحديثه الى سليمان العايدى قائلا :

— لقد أخذت على عاتقك مع رفاقك أن تنظم الحركة فى الازهر .

— ياسيدى .. ان الازهريين أول الموتورين فى هذا البلد ، فاذا كنا جميعا نحس بوطأة الاستعمار فان الازهريين موتورون مرة أخرى

للشرف وللمثل وللتقاليد التى تنهار على أيدى (رجال) باريس !! يجب تطهير المدينة قبل أن يستفحل الامر .

فسحب ابن النقيب من النارجيلة نفســـا قصيرا قلقا ، ورمق سليمان بنظرة وقال : هل أعددنا لكل أمر عدته ؟

وهنا تصدى شيخ تجارة الغورية للحديث قائلا : انهم الآن جادون فى هدم أبواب المطارات بحجة تنظيم الشوارع وتوسيعها ، ولكنهم فى الحقيقة يحتاطون للمستقبل ، ويخشون اســتعمالها متاريس اذا هبت الثورة . اذا شئنا الثورة فعلينا أن نبادر بها قبل هدم كل المتاريس .. وأيضا قبل أن يجردوا التجار من كل أموالهم ، وأخشي أن نقوم بالثورة فلا نجد ما نغذيها به . فقال الشيخ مؤكدا : انك لن تحتاج الا للدم وها أنت قد رايت الكثير ، وما ستراه سيكون أكثر ..

وساد الصمت لحظة . أطرق كل فرد فيها الى الارض وتشاغل بشيء ما وفجأة قطع الشيخ السكون الضارب قائلا :

ــ موعدكم غدا .. مع أنفاس الصباح .

***

فى تلك الساعة الجميلة من ساعات الاصيل،كان الجنرال بونابرت يجلس على وسادة من المخمل . وأمامه النارجيلة وأقداح القهوة ، وقــد ضربت عليه قبة من التيل المنقــــوش مبطنة بالحرير . فى ظل الهرم الاكبر .

وتطلع الى الافق المترامى أمام ربوة الهرم فاهتز قلبه اهتزازة رقيقة وهو يلمح القرى الصغيرة حول السفح وقد ظللها النخيل ، وكأنها عباد آمون المخلصون يقدمون القرابين لالههم العظيم .

وتحسس الجنرال كرشه بارتياح بالغ وهو يتمتم : ما أعظمنى ملكا لهذه البلاد الجميلة . ان من أهدافى أن أجعل البحر الابيض بحـــيرة فرنسية . فلنقل لهؤلاء الطيبين اننى أريد أن أجعله بحيرة مصرية .. واننى سأحكم باريس من القاهرة . ولكن .. المقعد الآخر ؟. مقعــد الملكة ، مقعد جوزفين زوجتى ؟ ترى هل تتنازل عن حياة المجتمـــع لباريسي ؟ ترى هل تفكر فى الآن؟ أو أنها تفعل ماكانت تفعله حين غيبتى فى ايطاليا !

يا الهى ... ان قلبى لايطاوعنى .

وعندما وصلت خواطر الجنرال به الى هذا الحد نادى ياوره ، فأقبل مسرعا من خيمته المجـــاورة ، وأدى التحية وظل واقفا فقـــال الجنرال مازحا : ما أبهاك فى وقفتك . ثم ضحك قائلا : اجلس ياجينو .. أليس لديك شيء من الانباء الضاحكة ؟ فقال واجما : لقد تولى التيفولى عنى هذه المهمة .

فقهقه الجنرال قـــائلا : بحق الشيطان انك لتغار لتعـديه على اختصاصك . وعلى أى حال لم يعد التيفولى هو المنافس الوحيد ، لقد صار لك منافس آخر قوى يورد بضاعة أكثر اغراء !

ــ هل لى أن أسأل ؟

ــ لماذا ؟ هل تريد أن تستفيد ؟

ــ على الاقل أستفيد من خبرته .

ــ مراد .

مراد !! قائد المماليك ؟

ــ هو بعينه .

ــ وما سر هذا التحول ؟

فاضطجع الجنرال على الوسادة فى ارتياح وعاد يقول : انه بعد أن يئس من التغلب علينا مال الى مصالحتنا ، بل والتعاون معنا ، على أن نقطعه بلادا فى الصعيد يعيش منها .

ــ ترى .. هل يرضي ببضعة فراسخ يعيش منها وقد كانت تدين له هذه البلاد جميعا ، أو هى خدعة ؟

ــ أن هذه البلاد لم تدن له ، وانما دانت للجهل والعزة والخرافات الدينية الواردة من تركيا عن « ظل الله على الارض » !!.

لقد تحدثت مع بعض الفلاحين أيام رحلتى الى بلبيس فرد محدثى شامتا : ان السلطان سينتقم لنا . فلما أجبته بأننا نستطيع منعه بمدافعنا من دخول البلاد قال : وما حاجته لدخول البلاد ، ان يمينه تستطيع ان تصعقكم وهو جالس فى الآستانة .. فى ظل هذا الجهل كان المماليك يحكمون ومن ورائهم باشاوات تركيا . أما اليوم .. فقد صعقت التجربة كل هؤلاء ، وتنفس الصبح فى هذه البلاد . واذا تنفس الصبح فلا بد أن تشرق الشمس . واذا أشرقت الشمس تبددت السحب . من هنا كان

من مصلحة مراد أن يتعاون معنا ويحصل على هذا الاجر الضئيل ، وهذا خير بالنسبة له .. ولنا .

ـــ ولكن هذا يبطل حجتنا فى اننا جئنا للقضاء على ظلم المماليك.

ـــ وما حاجتى الى تقديم الحجج وقد صارت البلاد فى قبضتى .

ـــ على كل حال فمراد مازال خارجا عن مجال منافستى ، ولم يبق سوى التيفولى .

ـــ لا . ان رسل مراد تتحسس الطريق الى على عجل ، وهم يقدمون الهدايا الكثيرة استجلابا للرضا ، وأول هدايا المماليك ـــ كما تعلم ـ حسان من كل جنس ولون .

ـــ ولكنى سأظل صاحب الفضل الاول .

ـــ مافى ذلك شك ، وبالمناسبة : أين مونتى ؟ وماذا فعل بعد علمه بمصرع زوجته وابنته مع فرقة المنصورة ؟

ـــ لقد صار فى حال يرثى لها . لقد تجنب كل الناس ولم يعد راغبا فى مخاطبة أحد ، اننى أخمن انه سينتحر قريبا .

ـــ وبذلك ينقص جنود الجمهورية واحدا .

ـــ ولكن الذى لا أفهمه .. كيف يتزلف مراد الينا وما زالت قواته تهاجمنا ، وتحاول استعادة المدن التى استولينا عليها .

لقد بلغنى ان استرداد الفيوم وبنى سويف كلفنا ستمائة قتيل .

ـــ هذا حق ، لكنه ليس بفعل مراد ، انه بعد أن دحره ديزيه احتمى بالنوبة وبدأ يفكر فى الطريق الاسهل : الصلح ، وما تسمع عنه هو من فعل الفلاحين والاعراب .

ـــ فما معنى هذا الخطر الجديد الذى جاء به البريد ؟

ـــ لاتخش شيئا .. سنحاول تفريقها قبل أن تصل الى النيل ويقوى بها ساعد الاهالى .

ـــ اى فدائية يمتاز بها هؤلاء القوم !! خمسة آلاف يعبرون من الحجاز الى القصير ليشاركوا فى القتال دون أية دعوة أو استنجاد ؛ ومن جانب آخر زحفت جموع الشام وطردت قواتنا من العريش !

ـــ أنت لاتعرف طبيعة هؤلاء القوم ياجينو . ان فى كلام رسولهم

محمد ما يمثلهم بأعضاء الجسد الواحد اذا مرض منه عضو سهر الباقى من أجله ، واظنهم يضعون هذا الكلام موضع التنفيذ الآن . ثم ان هذه البلاد جميعا تكون درعا كبيرا يقى بعضها بعضا ، وآذا سقط أحدها بات الآخر فى خطر ، ولولا ما يجب أن أتكتمه من خطط الحرب لحدثتك عن تدبيرى فى هذا الجانب .

فقال جينو بلباقة لينعطف بالحديث بعيدا عما لايريد الجنرال : وباروخ الذى يضاعف على جنودنا أثمان المشروبات ؟ وهم يتولون حراسته وملء جيوبه بالمال ، الا يشعر بواجبه فى فعل شيء ؟

— لقد وعد أن يقدم لى أعز الناس عليه .

— لكنى أرى ان اختياره فتح حانة بعد أن كان يشغل مركزا مرموقا فى الاسكندرية ، أمر لايخلو من غرابة ، تحتاج الى مراقبة . اننى أخشي أن يكون قد جعل من حانته وكرا لمصلحة الانجليز !

فقال الجنرال فى بساطة . لا أظن . انك لاتعرف هؤلاء اليهود . انهم لايهتمون مثلنا بالاسماء الرنانة والمراكز المرموقة . شيء واحد يسخرون حياتهم له .. المال ، فهم يتبعونه فى كل مظانه ولو كان فى قاع بركة عفنة . اليهودى لايهمه أن يكون مستشارا أو خمارا ، انه يفكر أيهما يدر مالا أكثر !

— مازلت أشك فى براءة قصده .

— ان مضاء سيفى فى تلك الحالة ، كفيل بأن يصعقه .

وصمت الجنرال قليلا فتنبه الى أن الشواء قد نضج ، فبلل شفتيه بلسانه فى اشتهاء ، ولكن جينو الذى لم ينتبه الى تلك الحركة قال : أن بريدا من فرنسا قد استطاع الافلات عن طريق تونس .

فقال الجنرال وقد خفق قلبه : اذا كان هناك رسائل من الاسرة آتنى بها ، أما رسائل « عجائز الفرح » الذين يحكمون باريس فانها تستطيع الانتظار .

وانصرف جينو الى الرسائل ، وانصرف الجنرال الى أفكاره . فحدث نفسه : « شيء وحيد تهفو اليه نفسي ، رسالة من جوزفين ، ترى .. ألم تعد تحبنى والا فما معنى هذا الصمت الطويل ؟ ولنفترض أنها لاتحبنى . ألا تحب هالات النصر التى تتوج رأسي وتهز العالم !؟

رسالة من جوزفين .. رسالة فقط !

وهنا افاق على يد جينو تمتد اليه برسالة ، وما كادت عين الجنرال تلمح الخط على غلافها حتى هتف فى فرح : من أخى جوزيف ! وانصرف جينو .

وفضها الجنرال بيد متلهفة منفعلة ، وقفزت عيناه بين سطورها ، وبعد لحظات قصار أصفر وجهه ، وتقلصت عضلاته فى ألم ممض واحس بأيد حديدية تعتصر عنقه .

ولكن .. الا يمكن أن يكون جوزيف مفتريا فى اتهاماته لها ؟ .. آه .. يا الهى لماذا جعلتنى احب امرأة لا تعبأ بى ولا تعرف معنى المجد !!

وزأر الجنرال كالأسد الجريح : جينو .

— سيدى

وباغته بالسؤال قبل أن يتروى فى الامر .

— اسمع ياجينو . اننى لم أعد احب جوزفين . أليس كذلك ؟ لقد انتهى كل شيء منذ عودتى من ايطاليا ، أنا أعرف أن جوزفين كانت عشيقة لباراس قبل زواجى بها ، لكن ، هل ظل ذلك بعد الزواج ؟ لقد كنت حارسها فى تلك الآونة وأنت تعرف كل شيء .

فقال جينو فى حزم واندفاع : نعم ياسيدى .

وتنهد الجنرال وهو يخفى تمزقه : وشارل .. الضابط شارل ؟.

— وهذا أيضا ياسيدى ، لكنه كان فى ميلانو . لم أعرف ما تم فى باريس .

— ومرا . هل كانت عشيقته ؟

— يؤسفنى ان ذلك صحيح ياسيدى .

كان جينو يحب الجنرال ويقدس عبقريته ، ولا يستطيع أن يخفى عنه شيئا يسأله عنه ، ولكنه فى غمرة هذا الحب حطم قلبه بصراحته دون أن يدرى ، وعند ما رأى آيات الالم القاهر تبدو على وجه الجنرال قال فزعا : سيدى . ان ماقلته لست متأكدا منه انها شائعات ...

لكن الجنرال كان قد أغلق أذنيه عن أى تفسير جديد .

***

فى اللحظة التى كان المجتمعون فى دار ابن النقيب ينصرفون فيها الى أحيائهم ليعدوا عدتهم لمعركة الصباح ، كان الجنرال قد نسي روعة الطقس وشهوة الطعام وعظمة ملك مصر ، واحس بتعاسة لاتوصف وهو يركب عربته منحدرا على طريق الهرم تتبعه زوبعة من الغبار الثائر بين العجلات .

ماكاد الجنرال يصل الى مقره بقصر الازبكية حتى اعتكف فى جناحه الخاص ، وامر بألا يدخل عليه احد مهما كان الامر . وراح يلهث وراء خواطره الحزينة الدامية فى تيه لا معالم فيه ولا غاية له :

« يا الهى .. اننى لا استطيع .. لا استطيع أن اطلقها ولا أن أبقى عليها . ان الطلاق قد يكون نهاية طيبة لزواج لا نرغب فى استمراره ولكنى يا الهى !! اى شيطان يحتل قلبى ويلوى زمامه دائما نحوها ؟ اى سر فى هذه المرأة ؟ أهو انتقام الاقدار !؟»

وهكذا قضى الجنرال ليلة ٢١ من أكتوبر واقفا على قدميه بالثياب التى كان يلبسها عند الهرم ، وقد عقد يديه خلف ظهره وظل يحملق فى سقف الحجرة الى أن احمرت عيناه ، وكادت تخذله ساقاه وهو لا يجد لنفسه مخرجا .

واسرع الى النارجيلة لعله يجد فى انفاسها السلوى ، فملها سريعا وألقى بمبسمها عند قدميه ، وكانت اقداح القهوة الفارغة تتناثر من حوله. « المجد هو سلواى » .. اننى أعيش حلما جميلا .. حققت بعضــــه بالمدفع ، وبه سأحقق الباقى ، وهأنذا أملك مصر وما زلت شابا ، وغدا أستخلص الشام وأطرد الباشوات وأحظى باعجاب الملايين وولائهم . فهل يليق أن يطيش صوابى لخيانة امرأة حقيرة ؟ ماذا تعنى بالنسبة لأمجادى ؟ انها لا شيء ، انها بالنسبة لى مجرد .. يا الهى .. اننى أحبها . وهى تخوننى .اننى لا أساوى عندها شيئا !!

سأكتب رسالة الى جوزيف . ولكن . آه .. من المحتمل ان تسقط فى يد الاسطول الانجليزى وحينئذ يصــــير اسم بونابرت سبة فى وجه التاريخ . لا . لن أكتب . بل سأكتب . لابد أن اكتب اليه . اى شيء . سيفهم ما أريد ويتصرف بما فيه المصلحة » .

وانكفأ الجنرال على فراشه ليكتب رسالة صادقة الى اخيه .. رسالة ليس فيها غش المنشورات ولا تدليس السياسة ولا تمويه الخطط

الحربية : « جوزيف ، ان الهم ينزل بساحتى من ناحية البيت . والقناع قد تمزق كله . وانت الوحيد الباقى لى فى هذه الدنيا . لقد بات المجد ، وانا بعد فى التاسعة والعشرين ، أجوف فى نظرى ... لقد استنفدت كل شيء » .

وعند ما انتهى الجنرال من كتابة رسالته أعاد قراءتها . وعندئذ أحس بأنه سجين فى مصر ، لايستطيع أن يعيش فيها حرا ، ولا أن يغادرها الى بلاده ! سجين قلبه ، فلا يستطيع أن يتخلى عن امرأة تمرغ اسمه فى الاوحال ! سجين فى أفكاره ، فلا يستطيع أن يكتب رسالة الى اخيه . رسالة حرة مثل فلاح فقير فى مصر يستطيع أن يقــول كل شيء ويفعل ما يحلو له .

وهنا أضاف الى الرسالة عبارة أخيرة : « اننى أعيش فى بريق زائف » !!

***

لم تنقطع حركات التسلل بين أحياء القاهرة المختلفة طول الليل ، فكان كل حى يقوم فى هدوء شامل ، باقامة المتاريس أمام أبواب الحارات وبتكديس الحراب وأحجار الطوب وطلقات الرصاص وراءها .

وفى لحظة حاسمة كانت أكثر من خمسمائة مئذنة فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة تردد : حى على الجهاد . وبدأ الامر بتجمع صغير فى ميدان الازهر ، ولكنه كان فى توثبه للنضال ينبىء عما وراءه من تدبير تمتد جذوره فى كل بيت من بيوت المدينة . من أجل ذلك ما كاد بعض الجنود يسمعون نداءات القتال حتى هرعوا الى مبنى القيادة فى الازبكية حيث يقــيم الجنرال يستنجدونه ، وكان الجنرال فى تلك الساعة مازال مستلقيا على فراشه بكامل ثيابه وهو يحملق فى السقف والرسالة فى يده ، ويهذى محموما بتلك العبارة الاخيرة التى أضافها الى رسالة أخيه : « اننى أعيش فى بريق زائف » . ولم يستطيع أحد أن يقتحم على الجنرال وحدته ، فاتجه الجنود من فورهم الى « ديبوى » حاكم المدينة الذى رأى أن الامر لايحتمل التأجيل ، وأن تدارك الخطر يستوجب مواجهته وهو لما يزل فى البداية ، فهب الى مكان التجمع تتبعه كوكبة من فرسانه .

***

كانت الجموع قد بدأت زحفها الى داخل المدينة ، ووصلت فى ذلك الى مدخل الغورية ، عندما اقتحم موقعها ديبوى ورجاله ... وقد حاول

الحاكم أن يبدو فى مظهر هادىء ليهز ثقة عدوه وثباته ، ظانا أن التجمهر ليس الا من اجل بعض المطالب التى لا يكلفه القضاء عليها غير اطلاق بعض الوعود الكاذبة يفتت بها التكتل ، ثم يتصـــــيدهم فرادى ويحسن تأديبهم .. لكنهم كانوا على غير ما ظن ، فما مضت لحظات قصار حتى زاد ضغط الجموع المكدسة على الفرقة الفرنسية ، وغدت محاصرة من كل اتجاه . وهنا اهتزت ثقة ديبوى وثباته ، ورأى نذير شر فاحتد فى مناقشته وصرخ مهددا ، وتسلل بيمينه لتأخذ البندقية وضع الضرب وهو يلوح بيده الاخرى لجنوده أن يستعدوا .

فى تلك اللحظات الاخيرة من الليل ، والتى يحلو فيها النوم ، كانت فتاة جميلة مثل وردة ندية ، وديعة مثل حمامة ، تستمتع بدفء فراشها ، وتحلم بانقشاع غمة طالت ، وبلقاء قريب مع حبيب غائب لم تفقــد فى لقائه الامل .

ولكنها ماكادت تطل من شباك المشرفية ــ بعد أن أيقظتها الضجة ــ حتى رأت جموع الشعب تسد الشارع على الفرقة الفرنسية ، والحاكم وجنوده يحتمون بالحائط المواجه لشرفة القصر استعدادا لاطلاق النار . فى تلك اللحظة التى تسللت فيها يمين الحاكم لتعد البندقية للضرب ، ولتبدأ المعركة ، أحست الفتاة بدمائها الحارة تثور ، وبقلبها ينقبض ويخفق مضطرما ، فأمسكت برمح طويل مسنون ، وجمعت كل قوتها فى ذراعها ، تلك الذراع التى اعتادت صيد البلح من أعالى النخيل ، ولم تفق الا وهو مغروس فى قلب الرجل والدماء تتفجر من حوله ...

وانكفأ الحاكم ساقطا من فوق جوادم ، فارتبك نظام جنوده واطلق بعضهم الرصاص وفكر بعضهم فى الهرب ، وتقدمت الجموع الزاحفة لتحمى نفسها وبدأ القتلى يتساقطون ولم تستطع الفتاة الرقيقة أن تمعن النظر فى القتلى المخضبين والذين تدوسهم الخيل فى تحركها ، فخذلتها ساقاها وسقطت فى أرض المشرفية فاقدة الوعى . ولو أنها تمالكت نفسها قليلا لرأت الشاب الذى كان يناقش الحاكم ، والذى كانت تصوب اليه أولى رصاصات العدو انه أخوها : سليمان العايدى !

لم يعد من الممكن الســــيطرة على الموقف فقد أفلت الزمام بقتل الحاكم ، وهنا انطلقت جموع الشعب فى اعصار مدمر تقتحم الثكنات، وتحطم استحكامات العدو وتمزق مراكز تجمعه دون مهادنة أو ابطاء .

وكان زعماء الحارات ونقباء المهن فرحين بما حققه رجالهم فى سرعة

مدهشة ، اذ أمكنهم فى نحو ساعتين السيطرة على الجزء الاكبر من المدينة حتى لم يبق فى يد الفرنسيين سوى الازبكية وما حولها .

وكان ابن النقيب مغتبطا بنجاح تدبيره حتى لقد قال لبعض رفاقه فى حنان بالغ : لاينقص هذه الانتفاضة الا أن يشاهدها السيد عمر مكرم رد الله غربته ، انه لم يستطع أن يتحمل رؤية بلده والجنرال الافاق يدنسها برجاله فتركها الى الشام .

***

تأزم الموقف بالنسبة للقوات الفرنسية فى داخل المدينة تأزما شديدا، وكانت جموع الشعب تهاجم فى جسارة تنخلع لها قلوب الاعداء ، وكان سليمان العايدى يجرى بجواده هنا وهناك مشـــجعا وضـــاربا ، وحين انطلاقه الى بعض نقط التجمع شاهد وجها احمر مكتنزا جامد القسمات ، يكسوه شارب غليظ ولحية شهباء ، لكنه مألوف له ، لقد رآه من قبل .. انه شاهين اغا ! . شاهين الذى قتل جلال الدين وأضاع (سماح) وفرق شمل أسرته « لقد أمكنك الله من الانتقام ياسليمان » .

ولوى سليمان عنان فرســـه الى جانب الخيل حتى مر الرجل يعدو بجواده ، فتبعه عن كثب وظل خلفه ، ومد يده الى بندقيته وأوشـــك أن يضرب ضربته ولكنه سرعان ما تراجع . لقد كان شاهين أغا يندفع لانقاذ جريح مصرى ملقى فى الطريق وتكاد الخيل المنطلقة الى ســـاحة القتال تدهمه : « انه الآن مجرد رجل يدافع عن وطنى . ثم اننى لن أقتله من خلف ، وليست هذه لحظة الحساب » .

وانصرف سليمان عن تتبع الرجل .

***

كان الجنرال لايزال مغلقا بابه ، ولم يكن يعلم بالقتال الرهيب الدائر داخل المدينة وبالنكبة التامة المطبقة على قواته . وكان الليل قد مضي ، وانقضي من صباح ٢١ من أكتوبر بضع ساعات ولم يزل مستيقظا ، على وجهه كدرة ، وحول عينيه هالات زرقاء ، وفى صوته حشرجة ذبيح ، وفى قلبه نار تضطرم .

وكان الضباط كلما زاد ضغط الهجوم عليهم هموا باخباره . ولكنهم كانوا يتراجعون خوف غضبه ، وأملا فى أن تخمد الثورة فيكون لهم فخر القضاء عليها . ولكنهم فى لحظة يأس أخبروه بأنبائها .

مثل صرح يتهدم .. أو قنبلة تنفجر .. انفجر الجنرال فى ضباطه صارخا : أين مدفعيتى ؟ الا تزال معكم القلعة ؟ حطموها على رءوسهم ، خربوها أحيلوها اطلالا . « عدماء الشرف ، أبناء العواهر لا يعـــرفون الوفاء ، مزقوهم كما مزقوا أعصابى » .

ودهش الضباط للطريقة التى صدرت بها أوامر الجنرال حتى قال جينو فى نفسه : ان الجنرال يستعير اليوم لغة غوغاء باريس . ترى أى روح شريرة استولت عليه !؟

***

ونفذت أوامر الجنرال ..

أطلقت المدافع من القلعة حتى تحــول حى الأزهر الى أنقاض . ودافع المصريون عن بيوتهم تحت سماء غير مأمونة تتوعدهم بالنسف كل لحظة . وبعد يومين كاملين صمتت المدينة ..!!

فى ذلك المساء الحزين أمر الجنرال أن يلوث كل شيء نظيف مقدس فتحول الازهر الى اصطبل للخيل ، وتحول مسجد الرويعى الى خمارة ، ومسجد الظاهر الى قلعة ، وأمر باعدام خمسة عشر شيخا من زعمـــاء الثورة ، وباعدام كل من يوجد لديه سلاح ... فى ذلك المساء الحزين كان سليمان العايدى يعد نفسه لمغادرة القاهرة الى جهة مجهـــولة ، وكان يبدو عليه التأثر الشديد لفراق المدينة التى يود لو يفتديها بدمه ، وقد لحظ عليه عم حنفى تأثره ذاك فودعه وابتسامة حزينة تكسو وجهه . وتمتمت شفتاه بقول لم تساعده حنجرته على النطق به لشدة ما استولى عليه من انفعال ، لكن معناه كان واضحا على قسماته الحزينة القوية المجهدة . لقد كانت تقول :

لاتأس على فراق مدينتك .. ان القبض عليك هنا أن يفيـــد الا عدوك ..

« الأسد لولا فراق الغاب ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب »

***

ما كاد سليمان العايدى يودع عمته على عجل ، ويوصي عم حنفى برعايتها والقيام غلى خدمتها . ويأخذ سبيله منحدرا الى جنوبى العاصمة. تجاه مصر القديمة ، حتى وجد مركبا شراعيا يرسو على الشاطىء ، وكان محملا بالاقمشة والزيوت ، وكان متجها نحو الصعيد ، وافهم العجــوز صاحب القارب انه طالب علم يهرب بجلده من أحداث القــاهرة ، وانه عائد لاهله فى اسوان ، وانه سيدفع ما يطلب منه من أجر .

فرمقه الشيخ بنظرة ازدراء وقال : اترى انه من الرجولة أن تتخلى عن قومك فى محنتهم .

— أنا طالب علم ، ولا علم لى بقتال .

فقال الشيخ ساخرا : اى علم هذا الذى لايؤهلكم لشيء نافع ! فقاوم الفنى سخرية الشيخ وأخذ حديثه مأخذ الجد اذ توهمه جاسوسا يكتشف حقيقة مهمته فقال : انه يؤهلنا لاشياء كثيرة ليس من بينها القتال .

— أنت شاب ، والشباب قوة . أم تريد من عجوز محطم مثلى أن يدافع عنك ؟

— ياسيدى . اننى سأدفع لك أجــر رحلتى ولا داعى لأن تخجلنى اكثر مما يجب . اما أن تقبل أو ترفض دون احراج .

— بل أنت الذى تخجلنى . اذا لم تكن تستطيع القتال فهناك أشياء كثيرة تستطيع أن تفعلها .. الحرب ليست كلها قتالا ودما .

فقال سليمان فى حدة مفتعلة وهو يلوح بيديه : من أجل من ؟ من أجل أن يسود المماليك أو يعود ظلم الأتراك !! ان جنرال فرنسا برغم ما أصابنا به من نكبات خير منهم الف مرة .

فمسح الشيخ براحته العجفاء على ذقنه الاشيب وقال فى صوت راعش : يابنى أنت صغير ، وتنقصك التجربة ، ومن العــار أن تقول ان

هذا خير من ذاك ، فليس فى الشر خيار ، والبلد صائرة الى ابنائها فلا مماليك ولا أتراك بعد اليوم . هذا ما يجب أن تدافع عنه .

وصمت الشيخ لحظة ثم أمسك بعضد الشاب فى رفق وكأنه ينبهه للحقيقة الواضحة ، وعاد يقول فى صوت خافت : نعم سيصير الشعب سيد نفسه وهذا ما ندافع عنه . قال سليمان مداورا بعد ان اطمأن لصدق طوية الرجل : أرجو الا نكون أبطالا فى الكلام ، وفى الأحلام ، ترى ماذا فعلت أنت ؟

وبادر الرجل باجابة وكأنه ينفى عن نفسه اتهاما : أنا لم افعل أى شيء . اننى رجل أكاد أتسول رزقى من أصحاب المتاجر . ان هذا مجرد حديث نقطع به الوقت .

فقال سليمان فى نفسه : أى عملاق ذلك العجوز الداهية !

وبعد ساعة نشرت المركب شراعها ومضت الى غايتهـــا ، وكانت تسير فى بطء وحذر طول النهار وتتوقف عن السير اذا اقبل الليل .

وظل سليمان على ظهر المركب الجارية الى الجنوب ستة أيام قضي اكثرها فى عزلة مع افكاره المعذبة عن المعركة وعن مأساة أسرته .وبرغم اطمئنان الشيخ صاحب المركب اليه فانه كان يرقبه من بعيد ولا يحاول أن يطلعه على شيء من سره ولم يحدثه بشيء من مهمته الحقيقية ؟ وفى صباح اليوم الســـابع ، وكان صباحا هادىء الشمس ندى النسمات ، والمركب ينساب الى غايته فى أمان ، وعامل الدفة فى الخلف يغنى ، والريس فى المقدمة يرقع شراعا قديما أو يصلح بعض شباك الصيد ، وسليمان مع احلامه فى رحلة طويلة لاتنتهى يظله الشراع الابيض المنشور وكأنه راية النصر . وبينما هو مسترسل مع أحلامه المخـــدرة اذ هزه صوت قوى : سليمان .

قالها الريس العجوز خاطفة قاطعة انتفض لها سليمان ، ونظر الى الشيخ فى توثب ، وعاد الشيخ يقول :

— يدك معى .

كانت المركب تقف الى جانب الشاطىء الشرقى ، وأطلال المعابد القديمة تطل من عليائها وكأنها والشمس الصاعدة تتوج قممها تبتســم مباركة جهود الأحفاد ، وكان الريس وقد تملكته قوة عارمة يحمل طرود الاقمشة الثقيلة وصفائح الزيت ويكدسها فى جانب ، محاولا الوصـــول

الى قاع المركب . وعلى الفور ادرك سليمان ما يريد الرجل وان خفى عنه سر القاع ، فبادر الى معاونته ، وما كاد يزيح الطبقة الثانية من البضائع المحملة حتى بدت من تحتها صناديق حديدية ضخمة لايكاد الرجل الشديد يقوى على حمل واحد منها .

وتعاون الرجلان فى قوة وسرعة على رفعها والقائها فى النهر . وما كاد يتم هذا العمل حتى حمل الشيخ عودين من البوص فى نهاية كل منهما شص لصيد السمك ، وقفز الى الشاطىء وأمر سليمان أن يتبعه .

وبعد لحظات كان الرجلان يأخـــذان مكانهما على شاطىء ترعة تتفرع من النيل ، بحيث يستطيعان مراقبة المركب من بعيد ، وهمـــا يتظاهران بصيد السمك ، وكان من يراهما لابد ان يعتقد انهما فى مجلسهما هذا منذ ساعات . وقال سليمان وهو لم يتحقق من ظنونه بعد : ما اسم هذه القرية من خلفنا ؟

— بارود .

— ياله من اسم فظيع .

— انه اسم كل مدننا وقرانا الآن .

— هل بلغنا غايتنا ؟

— نعم ، وفى آخر لحظة ، انك بشير خير .

قال الشيخ جملته المتفائلة الاخيرة دون أن يبـــدو على قسماته ما يؤكد ذلك .

وقبل أن يتم حديثه اقبلت ثلاث سفن فرنســـية مسلحة فى سرعة جنونية واحاطت بالمركز ، وقفز الجنود اليهـــا وقاموا بحركة تفتيش سريعة . وهنا تظاهر عامل الدفة بأنه فوجىء بهم وقفز الى الشـــاطىء مرتاعا ، فرمقه احد الجنود بنظرة مغيظة وهو يقول : انه كلب قذر ، لن اقتله ، ولكنى لا اريد أن يتحرك من هنا . وانطلقت رصاصته لتستقر فى فخذ العامل .

واخذ الجنود ينقلون محتويات المركب من اقمشة وزيوت الى السفن المسلحة التى تراجعت قليلا ، ثم صوبت مدافعها الى المركب الخـــالى ، فما لبث ان تحطم جانبه ، واندفع اليه الماء ، ثم تهاوى الى قاع النيل . وهنا انصرفت السفن لتبحث عن غيره .

قال الريس العجوز : الآن تبدأ مهمتنا .

فقال سليمان متعجبا : حسبتها انتهت !!

— أكبر ظنى انك لم تقم بعمليات بحرية قبل اليوم .

— اننى لم اقم بشيء بعد .

قال الرجل وهو يستخلص سمكة من شصه دون ان يبدو عليه اى اهتمام : يتعين علينا الآن ان نرفع صناديق الذخيرة من قاع النهر الى ان نخفيها فى حشائش الشاطىء ثم ننقل الجريح .

— الا نستطيع أن نطلب عون رجال القرية ؟

— ان هذا عمل رجلين فقط ، واذا زاد فانه سيسترعى الانظار .

— وكيف ضحيت بعامل الدفة ؟

— اننى لم أضح به .. لقد بقى بمحض ارادته .. ليغطى انسحابنا ، ويحافظ على المظهر العادى للمركب فلا يرتاب فيها العدو ويكتفى بنهبها .

***

وعندما بدأ الليل يهبط على الشاطىء ، ويسلب الأشياء وضوحها بدأ رجال فى أزياء مختلفة يتوافدون من جهات متعددة ، ويلتقون فى ذلك المكان الذى خبأ فيه العجوز الذخيرة .

وبعد ساعات من الصمت الثقيل المترقب ، والرجال ينتظرون وأمام كل منهم سلاحه ، وقد جرد نفسه من الثياب الا ما يستره ، اقبلت من الشمال اثنتا عشرة سفينة حربية تحمل الرجال والذخائر والمؤن لتمد بها جيش ديزيه الذى يحارب بيأس فى أسوان ، وتهامس الرجال وأخذ بعضهم يعانق بعضا فى صمت متهلل .

وقال الريس العجوز وبريق عينه يظهر فى ضوء النجوم الخافت : المدافع !..

وهز الرجال رءوسهم وقد فهموا كل شيء .

كانت « ايتاليا » سفينة نابليون الخاصة تقود الحملة فى اعتزاز وقوة ، وكانت فوهات مدافعها تظهر على الجانبين متلاحقة وكأنها أفواه تماسيح تنتظر سقوط الفريسة ، وكانت السفن الاخرى تتبعها وقد اضاءت انوار خفيفة ، وانصرف الجنود الى لعب الورق فى حين وقف

المكلفون بالحراسة فى مقدمة كل سفينة وفى مؤخرتها واسلحتهم تبرق فى ايديهم .

وعند ما حاذت السفن الكمين المترقب سبح الرجال فى النهر واسلحتهم فى ايديهم وبذلك تجنبوا ان يكونوا هدفا سهلا للمدافع ، وسبحوا فى صمت يغطى عليه هدير المحركات البخارية ، وتشبثوا بجوانب السفن ، وفى لحظة خاطفة قفزوا الى ظهورها . وفعلت المفاجأة فعلها فى الجنود اللاهين ، وبدا لهم الرجال العراة كالمردة والشياطين ، اجسامهم تلمع بفعل ماء النهر ، والخناجر المدببة مشرعة الى النحور ، والبنادق موجهة الى الصدور ، فاستسلم بعض الجنود دون مقاومة ، وخاصة اولئك الذين كانوا بعيدا عن اسلحتهم ، وقاوم بعض آخر ، ودارت معركة رهيبة بالحراب والخناجر والبنادق . وكان الموت يوقع لحنه المنيف بين المتقاتلين بينما انصرف رجال آخرون حسب تعليمات الريس ، عن الاشتراك فى المذبحة الدائرة وجعلوا كل همهم الالقاء بالمدافع فى النيل .

ظل ميزان المعركة متأرجحا نحو نصف الساعة ، ولكن قائد الحملة مالبث ان تيقن من غلبة المهاجمين لكثرتهم ، ولوفرة نشاطهم وحسن تنظيمهم فى الهجوم فكف عن المقاومة ، وكان رجال الهجوم قد وصلوا الى غرف القيادة وارغموا القواد على الانعطاف بالسفن الى جانب الشاطىء. وهنا فطن الجنود المدافعون الى ما يراد بهم ، فلم يأبهوا لامر قائدهم بالاستسلام ، وتسلل احدهم الى مخزن الذخيرة فى « ايتاليا » واشعل فيه النار ، وتنبه بعض المهاجمين لرائحة البارود ، وللضوء الازرق الباهر الناتج من احتراقه فتواثبوا الى النهر ، وبعد لحظات قصارى انفجرت (ايتاليا) بما بقى عليها من سلاح ورجال ، وتطايرت بقاياها الى ماحولها فتوالت سلسلة من الانفجارات هوت بهم الى قاع النهر .

* * *

بعد ان ابتلع الماء السفن المزقة ، وكف البارود عن الاشتعال والفرقعة عاد الصمت يغلف المكان ، والظلام يغمر الافق ويسلب كل شيء وضوحه . وجلس الرجال المجهدون يضمدون جراحهم بتراب الشاطىء الدافىء ويحصون من فقدوه فى المعركة . وهنا قال : العجوز

ساخرا فى تماسك مذهل ، موجها حديثه الى سليمان العايدى : لماذا يضيع رجالنا وقتهم فى عد من فقدوا من الرجال ومازال امامنا عدد كبير سنفقده !! هيا نخرج المدافع من قاع النهر . قال سليمان بفتور : انتظر حتى أضمد جرحى .

وشرد بخياله سريعا الى عم حنفى : ماذا عساه ان يقول من شعر بعد هذه المعركة الباسلة التى يعجز عن وصفها الكلام ؟

عم حنفى . لا . ليس هذا وقت الشعر . ولكن . لهفى عليك ياجلال الدين ، ماكان ابهاك فى هذا اليوم لو كنت فى الاحياء !!

—*—

عاش السيد عمر مكرم وطوبار وجلال الدين العايدى وغيرهم من المصريين فى يافا حياة قوية خشنة مليئة بالاعداد لليوم المجيد الذى تخفق فيه راية النصر على الربوع فى بلدهم .

وفى ظل اشجار البرتقال بخضرتها الداكنة واريجها الفواح الذى يعبق به الجو ، التقى جلال الدين بشاب رقيق البنية نحيل ، طويل الاطراف ، كثير الاطراق والشرود . وعندما سمعه جلال الدين اعجب بحديثه وما فيه من تقوى واخلاص وتمسك بالمثل الاسلامية ، وزاد حبه له عندما ايقظه صوته الندى يتلو القرآن قبيل الفجـــــر فى خشـــوع القانتين ، فتحين فرصة لمخاطبته على انفراد ، حتى اذا حانت اقترب منه ووضع يده على عاتقه الاعجف النحيل فى حنان ومودة ، وسأله : هل لى أن تشرفنى بمعرفة اسمك ؟

ـــ انت من مصر اليس كذلك ؟

ـــ نعم ـــ واسمى العايدى .

ـــ وانا من حلب واسمى سليمان .

فازداد جلال الدين منه اقترابا وقال فى شبه مزاح : صـــــدقنى ياشيخ سليمان ... فقاطعه الحلبى ضاحكا : من ادراك اننى شـــيخ وليس فى هيئتى ما يدل على ذلك ؟!

ـــ بل ان هيئتك هى الدليل على ذلك ، انك لم تخلق للسلاح . ان منظر البندقية فى يمينك يبدو متنافرا مع سمتك الوقور .

ـــ انت شديد الفراسة ياعايدى حقا .

ـــ ولماذا جاء شيخ حلب الى يافا ؟

فقال الحلبى : للسبب الذى جاء من أجله فتى مصر ... المعركة واحدة .. وبونابرت لاشك قادم .

— هل جئت حقا لتقاتل ؟

فتغاضي الحلبى عن تساؤله وقال : انا طالب فى الازهر .

— وأنا أيضا كنت طالبا فى الازهر .

— ولسوء الحظ أننا لم نلتق هناك ، كنت أقضي اجازتى السنوية فى حلب وفى طريق عودتى .. هنا نصحنى الاصدقاء بالبقاء زاعمين ان بونابرت سيأتى بنفسه لاستقبالى . وضحك الشابان ضحكة صغيرة ، وقال جلال الدين : ان اصدقاءك لم يخدعوك ، لقد جاء بونابرت بالفعل وسقطت العريش فى يده اليوم ، ونحن اول نقط الدفاع عن الشام .

— وهل رتبتم خطة ؟

— انت ترى أن المدينة ضعيفة التحصين ، ونحن قلة .

— لى رأى خاص فى مواجهة هذه المسألة .

— هل أستطيع ان اعرفه ؟

فأغضي الفتى الحلبى وقد تقلصت قسماته كأنه يعانى الما ممضا ، وعرف جلال الدين أن رفيقه يريد أن يحتفظ برأيه لنفسه ، فانتقل عن حديث الحرب بلباقة وقال : اى ظرف غريب جمع بينى وبينك !!

وجلس الصديقان فى ظل شجرة من اشجار البرتقال يقصان من ذكرياتهما القريبة والبعيدة ...

وبعد أيام ثلاثة فتح بونابرت مدفعيته على قلاع يافا . ولكنه وقد توقع اشتداد المقاومة لم يحارب فى وضح النهار ، وانما لجأ الى خدعة أوقعت المدينة فى يده دون جهد كبير ، فقد ركز نيرانه على القلاع الغربية المشرفة على طريق عكا ، فعجزت بضع قلاع أن تقاوم كل ضغط جيوش الجنرال ومدفعيته ، وتوهمت أن القلاع جميعا تتعرض لمثل هذا التركيز الرهيب ، ولذا فانها لم تمانع فى التراجع الى داخل المدينة على امل ان تتمكن من الاحتماء بالمنازل بعد أن تتقوى بالانضمام الى حاميات القلاع الاخرى . ولكن ذلك مكن للجنرال أن يقتحم المدينة ، ويحيط بالقلاع الشرقية المشرفة على طريق العريش ، ويسلط النيران المركزة عليها بعد أن عزلها عن المدينة ، وتمكن بعض الرجال من التسلل عبر خطوط الجيش الفرنسي والعودة الى المدينة للدفاع عنها . أما الباقون فى الأبراج فقد ثقلت عليهم وطأة الحصار ، وهنا تدخل الشرف العسكرى للجنرال وبذل وعدا بالامان لمن يلقى السلاح .

ولم تكن اصداء حديث الجنرال قد تلاشت ... وبعد حين أمر بصف الرجال العزل الذين امنهم ووجوههم الى البحر ، وأمر بفتح النيران عليهم فاحالهم ركاما !!

ودخل المدينة المستسلمة ، والقى الى جنوده امرا ان يتملقوا المصريين فلا يقتلوهم او يؤذوهم لعلهم ينحازون اليه اذا ماعادوا الى بلادهم .

وانتشر جنود الجنرال فى يافا يفتشون عن المصريين . وتقــدم جندى فرنسي ببندقيته ووضع الحربة على عنق جلال الدين صــارخا : انت شامى ؟

فقال جلال الدين بثبات : بل أنا مصرى .

فقال متغاضيا : نعم . ثم رمى الشاب الحلبى بنظرة نارية وهو يوجه البندقية الى صدره وصرخ : انت شامى .. هيئتك معروفة .

فسارع جلال الدين بمشاغلته قائلا : بل هو أخى .

ـــ لينطق باسمه اذن . اننى أعرفهم من لهجتهم .

ـــ انه أخرس . جاء معى منذ شهرين .

ـــ انه ليس بأخرس ، انه يمسك السلاح ، هذا جرح فى يده ..

ـــ لقد كان يعبث بالفأس فى حديقة برتقال فجرح نفسه ، انظر هذه رائحة البرتقال ما تزال تفوح منه .

واخيرا انصرف الجندى .

وابتسم سليمان الحلبى فى اعياء وقال : ما اسرع خاطرك ليتك تركته يقودنى الى المعتقل أو يقتلنى ، فما أنا بخير ممن اغتالهم .

فقال جلال الدين مازحا ليهون على صديقه : اسمع ياسليمان .. ان الموت اذا أراد أن يداعبنا فانه لا يستأذننا ، ولكننا نحاول ألا نموت فى لحظة هزيمة . بل من اجل النصر .

ـــ صدقت وانى لارجو أن اكون قد تعلمت منك متى يجب أن أبذل حياتى .

وعندما غمر الظلام المدينة تسلل شبحان فى براعة فائقة ، وزحفا بين اشجار الحدائق الكثيفة الرهيبة ، حتى اذا صارا خارج اســوار المدينة انتصب جلال الدين واقفا وقال : أرجو أن تكون فى حال تسمح

لك بالسير دون توقف الا فى عكا ، ان هذا الجنرال اللعين اسرع من الثعبان .

فقال الشاب الحلبى متخوفا : لكن الا تخشي أن يفت نبأ اغتيال حامية يافا فى عضد جنود عكا ؟

— كلا .. اننى اتوقع أن تمدهم انباؤنا بعزيمة الواثق من النصر. انهم اكثر عددا واقوى حصونا ، ونحن نعد له فى القاهرة استقبالا حافلا يليق بمجده .

— اتراك على صلة سرية بالقاهرة ؟

— لا . وانما حدثنى بذلك السيد عمر مكرم قبل ان نفترق ، وهو على صلة بمنظمى الثورة هناك ، ولولا ذلك ماقبل العودة الى مصر .

— لقد علمتكم الحرب اشياء كثيرة .

— انها شر على أية حال ، واذا نال بعض الناس منها خيرا فانه خير غير مقصود .. لعنها الله فى كل حين .

***

كان الجنرال واثقا من النصر فى الشام ، لذلك كانت افكاره جميعا نتجه الى الخطوة التالية بعدها ، وهل تكون تركيا أو ايران ؟ وان بدا له أخيرا أن سقوط دولة الباشاوات أمر تهلل له الجموع فى الممالك الكثيرة التى تسيطر عليها تلك الدولة العجوز . ومن ثم فهو الامر الجدير بأن يبدأ به .

وفى مقر القيادة أمام يافا قال الجنرال لياوره : هأنت فى فلسطين ياجينو ، أفق لواقعك الرائع .

فقال جينو باسما وكأنه عروس يتملكها الحياء : ياسيدى الجنرال.. اننى لم اتوقع ذلك يوما ، ياله من حلم رائع !!

— الى أين تريد أن تذهب ؟

— ياسيدى ، نحن — ابناء الثورة — متشككون ، هذا حق ، وهو ايضا صواب . لكن فى أعماقى ، وربما فى أعماق كل جنودنا يقينا لا يتزحزح بالمسيح ، فانظر الى اين ستحملنا ؟ فضحك الجنرال من أعماقه وقال : ان لك ذكاء خبيثا ياجينو . هذه لفتة بارعة ، سأجعل مقـــر قيادتى فى مدينة المسيح ، فالى الناصرة .

كان الجنرال سعيدا وهو يحقق لجنوده أملا راود الكثيرين منهم في مطالع الصبا ، وكان اكثر سعادة وهو يتخيل — على البعد — صورة باريس وقد بلغتها انباؤه ورسائله تحمل اسم الناصرة ، هنالك يبكى الرهبان ايمانا وحنينا ، ويتأثر الشعب الساذج الطيب ، وتخفق ملايين القلوب بحب الجنرال حامى المسيحية وكم من شفاه ستردد : ما أطيب الجنرال بونابرت ان الرب سيباركه .

وفوق البقعة المقدسة فى الناصرة أقام بونابرت معسكراته وقيادته واشار عليه جينو أن يبدأ مع جنوده بداية تجعلهم يحسون بمغزى زيارة هذه البقعة وبقيمتها . فجمع الجنرال جنوده فى ساحة كنيسه واسعة، والقى عليهم موعظة من العهد القديم بصوت مختلج النبرات ، راعش المقاطع ، تسيل له اقسي القلوب المتحجرة .

ومضي الجنرال الى خيمته وترك مكانه لياوره جينو ليصلى بالجنود .

وانحنى جينو فى خشوع وقد جمع يديه يردد فى افتعال ملحوظ : « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، ولا تدخلنا فى تجربة .. لكن نجنا من الشرير . »

ومن وسط الجمع الحاشد الصامت ، المأخوذ الجنان بقدسية المكان ، وقف رجل فارع الطول وقال بأعلى صوته فى عصبية ظاهرة : اى شرير غيرك ينجينا منه المسيح ياجينو ؟ واى كفاف تطلب ايها الجشع ؟! وانتبه الجنود وتلفتوا مذعورين وتجمعت نظراتهم الزائغة حول ذلك الذى ازعجهم من الجو الروحى الذى سبحوا فيه معصلاتهم، واستولت الدهشة على جينو وعقدت المفاجأة لسانه فلم يرد وهنا واصل الرجل صياحه موجها خطابه للجنود :

— لماذا تنظرون الى شزرا ؟ ألا تعرفوننى ؟ أنا الضابط مونتى ، اشجعكم فى الحرب واكثركم فهما لروح الثورة المقدسة التى احالها هذا اللص الى قانون الغاب . انى اراكم تنظرون الى فى استنكار لتشعرونى باننى وحدى الذى اظن اننا مخدوعون هنا . وهنا صرخ جينو محنقا : اسكت . اسكت والا حلت عليك اللعنة ...

— بل تحل عليك أنت وجنرالك . أنسيتم مافعلتم بأسرتى وبهؤلاء الجنود الذين ضللتموهم بمجد زائف وسقتموهم الى هنا لتفتك بهم الثورات ؟!

ـ اسكت والا حاكمتك بالخيانة .

فقهقه الرجل فى جنون وهتف : ما أهونها من تهمة ان اخـــونك ولكنك تخون مبادىء الرب الذى تلوث كتابه الطاهر بيدك الدنسة .

فالتفت جينو الى الجنود وقال : انه مجنون ، منذ فقد امرأته تملكه الجنون . فهدر مونتى صائحا : هل تصدقون هذا الدجال ؟ لماذا تغررون بهؤلاء الشباب وتقتلونهم من أجل اغراضكم الدنيئة ؟ لماذا لم تقتل أنت وجنرالك بل لماذا لم يقتل جندى واحد من اللوفر ، ولم يأت أحد منهم الى الشام ؟ لانهم أبناء مدينتك وأنت تتعصب لهم ، تسرق الجيش وتعـــطى أمواله للمتعهد لانه من هناك ... هذا واضح وكان علينا أن نلحظه .

وهنا تقدم جينو وقد افلت زمامه ، وغادر المنصة متجها نحـــــو مونتى ، ولكن بعض أبناء طولون بعــــــدما سمعوا من تحيز لابناء اللوفر ثارت نخوتهم ووقفوا الى جانب ضابطهم .

وقبل أن يتعقد الامر أكثر من ذلك كان بونابرت قد علم بالحادث. وافاق الجمع على الجنرال الواقف بينهم فلزموا الصمت وكأنهم فقـــدوا الحياة .

وبعد ساعة كان الجيش يأخذ طريقه بلا توقف الى عكا .

اشتعل الجنود فى عكا بالحماسة والحمية ، وواصلوا الليل بالنهار فى تجديد الأسوار وتقوية القلاع وانشاء أبراج الحراسة وسد الثغرات فى مداخل المدينة ، وتعميق الخنادق أمام أسوارها ، واستجلاب الاسلحة والجنود من كل مكان ، وتخزين الاطعمة والادوية العلاجية واتخاذ التدابير اللازمة لحماية السكان بعيدا عن مرمى المدافع ، وقد استغرق ذلك نحو اسبوعين وصل بعدهما الجنرال يقدم جيشه الضخم ، وكان طبيعيا أن يجد ابواب الاسوار مغلقة وان يقابل موكبه بطلقات مدافع القلاع التى تحاول نسفه ، فتحلق جيشه حول المدينة من ثلاث جهات ، وترك جهة البحر ، واعلن حصارها حتى تستسلم . وأمام أسوار عكا تحولت مدفعية بونابرت التى طالما باهى بها ولم ترتد عن غايتها فى معركة ، تحولت الى شيء اشبه بلعب الاطفال التى تقذف الحصي أمام الدفاع المجيد الذى قامت به حاميات الاسوار .

وبعد بضعة اسابيع من الضرب المتواصل استطاعت المدفعية أن تحدث ثغرة صغيرة فى اسوار المدينة العتيدة ، ولكنها كانت ايضا ثغرة فى عضد العدو وقلبه ، فما لبث رجال عكا أن تدافعوا الى تلك الفتحة فى اعداد ضخمة يسدونها بأجسادهم غير عابئين بالطلقات الضخمة التى تنفجر من حولهم وتنهمر عليهم مثل المطر . ومن خلف الجزء المنهار بدت جحافل الرجال بأسلحتهم كاملة متوثبين للقاء من تسول له نفسه تخطى الاسوار ؟ من اجل ذلك لم يستطع مشاة بونابرت أن يقتحموا ثغرة السور برغم حماية المدفعية لها .

عند ذلك عقد الجنرال مجلسا حربيا حضره أركان حربه من كبار الضباط وياوره الخاص . لاول مرة تصدر بونابرت جلسة ولم يجد مايقوله ، اذ ارتكز بكوعيه على حافة المنضدة الطويلة التى جلس الضباط حولها، وتعانقت أصابعه وانعقدت تحت ذقنه ، وقد أغضي ببصره حتى ظن بعضهم انه نام فى الاجتماع .

وكان ضباطه يحبونه ، ويؤمنون بعبقريتـــه ، ويشفقون عليه من الارهاق ويشتد حزنهم لما أصابه من اخفاق مستمر أمام أسوار عكا ، وما صار اليه حال الجنود عقب تلك الصدمة غير المتوقعة .

وبعد أن طال الصمت قال كليبر : اذا أذنت لى ياسيدى فى الحديث فأشار له الجنرال دون أن يرفع اليه بصره ، فمضي كليبر يقول : ان كل ما عرف سببه سهل علاجه ، وعكا متينة التحصين ، وجنـــودها أقوياء مدربون ، ولكنها ليست أول مدينة محصنة نواجهها ، وليس هؤلاء الرجال أشجع من قاتلنا ، واخوانى الضباط المجتمعون هنا يعيشون بين الجنود كما نعيش ويلمسون أحوالهم ، والآن يضع كل واحد منا تقريرا عما يرى من نواحى النقص أو أسباب تخاذل الجنود ، ويكتب .

وهنا دق الجنرال بيده على المنضدة فى عصبية وقد فتح جفنيه عن عينين محتقنتين وصرخ :

لا أريد كتابة .. من كان عنده اقتراح فليقله الآن . ليس لدينـــا وقت للتقارير .

فقال كليبر بعد فترة صمت : ليس هناك داع للثورة ياسيدى ، ان جيشنا بخير ، أننا لم نفقد شبرا واحدا ، وليس من الضرورى أن نتقدم كل يوم .

فشحب وجه الجنرال وقال وهو ينتفض : اتعترف بالهزيمة وتريد أن تهون مذاقها على ؟!

— عفوا يا سيدى الجنرال ان بونابرت لن يهزم .

فعاد يصرخ : لا أريد مجاملات ، لماذا يجبن جنودنا عند الهجوم ؟

— ان هناك من سمم افكارهم .

— من ذلك اللعين ؟

— انهم يتساءلون .. اين مونتى .

فصرخ الجنرال : هؤلاء الكلاب ، هل يتدخلون فى أوامر القيادة ؟ هذا تمرد .

— معذرة يا سيدى الجنرال ، ان نيتى حسنة ، لكن ما العمل ؟ هناك بعض الدلائل على وجود وباء بدأ ينتشر بين الجنود ، وهم من أجل ذلك راغبون فى العودة .

ـ وباء . اى وباء ؟ انه وباء الجبن والتخاذل ، ســـأعرف كيف اشفيهم من دائهم .. سأعرف بطريقتى !!

وقبل ان يغادر الجنرال مكانه نظر الى كليبر نظرة ثاقبة وقال بثبات نادر : هل ترغب فى تولى قيادة الهجوم ؟

ـ اذا كان هذا أمرا فاننى أتقبله .

فتدخل جينو فى الحديث قائلا : ان تغيير القيادة فى هـذا الوقت سيعطى الجنود فكرة سيئة عن وضعنا وأرى أن نقوم بمحاولة أخرى بعد تحسين حالة الجنود بالأموال وزيادة مقررات التغـذية واتاحة بعض الفرص للهو .

فقال كليبر معقبا : اننى أوافقك .

فقال الجنرال وهو يتنهد فى ضيق : كما تشـاءان . ثم انصرف .

وترك الجنرال جيشه امام الاسوار ومضي الى قاعدته فى الناصرة ، عله يجد فى ديرها المقدس حيث كان المسيح الأمجد شفاء لنفسه . ولم يكن الجنرال عميق الايمان بالمسيح بل لم يكن يفكر فيه ، لكنه الآن فى حاجة الى المواساة .

ودخل الى الدير بأعصاب مشدودة ، وتلهف على سماع كلمـات الاب ، وكأنه سيمنحه الحياة حتى اذا رآه نظر اليه بضراعة واستجداء ، وقال هامسا فى صوت كسير : باركنى يا أبتاه .

فقال الأب فى صوت خاشع ندى : ليباركنا الرب جميعا يا بنى .

واجرى الاب راحته الحانية فوق شعر الجنرال ، فأحس براحة عميقة ، وبأعباء الحرب ترتفع عن كاهله ، كأن فى كف الكاهن الشيخ . مغناطيسا يلتقط الشوائب من عقله ونفسه فى سرعة خارقة . وتنفس الجنرال بارتياح ، ونظر الى الأب فى اشفاق وسأل .

ـ هل ينصرنى الرب يا أبتاه ؟

قال الكاهن دون أن يغير حركة يده أو نبرات صوته الخاشع الندى اذا كنت منفذا لتعاليمه فانه ينصرك ، ويحبك ، فى الناس المحبة .. وعلى الارض السلام .

فارتجف قلب الجنرال لهذه الكلمات وكأنه لم يسمعها طول حياته ، وهمس لنفسه : المحبة والسلام !! يالها من مبادىء تردنى الى باريس

مخذولا مدحورا . وعاد الجنرال الى مواقع جيشه وهو اكثر ضيقا وتعاسة وما كاد يدخل حجرته حتى نادى مستنجدا : جينو .

— ســـــيدى .

— تعال اجلس الى جانبى ، لقد سئمت كل شيء .

فنظر اليه ياوره فى حنان وحب وقال محاولا التسرية عن قائده : كانت أمى تسمينى فى طفولتى «البعوضة» ذلك لأننى كنت شديد الجمال وكانت تخشى على الحسد وترى ان ذلك تعويذة لى .

فابتسم الجنرال ابتسامة صغيرة حزينة . فواصل جينو حديثه : وقد توالت انتصاراتنا وخشينا على الجيش عين الحسود ، وهذه الوقفة القصيرة تعويذة للجيش ، واذا لم تسأم الهجوم فان عدونا سيســـــأم الدفاع .

فقال الجنرال مغيرا مجرى الحديث : هل تم ترحيل مونتى ؟

— نعم ، وشددنا عليه الحراسة .

— لو لم نكن فى فترة حرجة لاعدمته ثمنا لما تفوه به .

— سيلاقى فى سجنه ما هو أشد من الاعدام ، وقد كتبت بذلك الى حاكم دمياط وشرحت له امره .

— اننى اعتقد أن ما أصابنى هنا من نحس هو من فعل ذلك الوغد .

— ان عقله مختل ، فهو لم يقصد أن يصيبنا بهزيمة عامة ، ومع ذلك فاننى ضد تنحيك عن القيادة الآن . ان الجنود ما زالوا يؤمنون بك .

— لكنى قد تملكنى احساس بالتعب .

— ولو .. تستطيع أن تقود هجوما شديدا اليوم . بتعبئة عامة لكل قواتنا بعد خطبة نارية تذكر فى نهايتها انك كنت فى زيارة مقر المسيح وان الآباء هناك ذكروا لك انك ستنتصر وان المسيح بشرهم بذلك .

فتفكر الجنرال مليــا ثم قال : اترى ان ذلك سيترك فى نفوسهم اثرا طيبا ؟

— اننى لا اشك فى ذلك .

فقال الجنرال ممتعضا : أنحارب بالوهم والتضليل .

— اذا كان الوهم سبيلا الى حقيقة رائعة فانه مباح ، واذا كان

التضليل مثمرا فلا بأس به . فهز الجنرال رأسه فى غير اقتناع ومضى . وقبيل الفجر ، وعلى نور الأنجم ، قاد الجنرال هجوما كبيرا كاملا محاولا تخطى الاسوار أو تدمير جزء منها . وركز مدفعيته كلهاتجاه أحد الأبراج ، واخضع المنطقة المحيطة به لضرب رهيب ، فانهار البرج على من فيه .

وتقدمت بعض المدافع الخفيفة تكشف الطريق ، تتبعها كتائب المشاة شاهرة البنادق ماضية الحراب ، وتخطت منطقة الســـــور فى ارتياب وحذر ، ولكنها وجدت الطريق ممهدا ، ومضت فى طريقها نحو مائتى متر ، ففوجئت بوجود خندق أمامى واسع بعيد الغور ، فتوقف القائد ليبحث المشكلة . ولكنه حين نظر ناحية السور راى أشباحا كثيرة لا عدد لها ، تبرق اسلحتها ويملأ حفيفها الهامس الأفق بصوت غامض . راى هذه الاشباح تأتى من جانبى السور من الداخل وتتلاقى قريبا من الفجوة التى صنعتها المدافع الفرنسية . وسريعا مافطن قائد الطليعة الى الفخ الذى سقط فيه فأمر جنوده بالتراجع السريع ولكن الفرصة كانت أفلتت اذ واجهتهم نيران حامية .

وهكذا أشرقت شمس هذا اليوم على مائتى جثة ملقاة بين الخندق والسور ، والجنرال يرمقهم من بعيد والهم يمزق أحشاءه . وما كاد يصل الى خيمته حتى القى بنفسه فوق الفراش فى انهيار تام وقال فى صوت مثل حشرجة الذبيح : كليبر قائد الهجوم ، لن اغادر هذه الخيمة انه ذو كفاية ، ومحبوب .

فقال جينو يائسا ودمعة توشك أن تنحدر من عينه : ياســـيدى . هل هو فى كفاية بونابرت ؟ أو محبوب اكثر منه ؟ . فقـــال الجنرال : دعه يا جينو ، ونفذ أوامرى دون مناقشة ، انك لا تعرف ما تنطوى عليه قلوب البشر . ان الجنود أصبحوا يكرهوننى منذ تحدث اليهم مونتى ، انهم يعتبرونه ضحيتى .. نفذ أوامرى .. أرجوك .

وذهب جينو ليبلغ الاوامر الجديدة .

وصدقت ظنون جينو .

وبعد أن قاد كليبر أكثر من هجوم فاشل ، وبعد أن صـــــار عدد القتلى والمطعونين والجرحى يصيبه بالفزع ، وبعد ان دام الحصار أمام المدينة العنيدة سبعة وثلاثين يوما ، بعد هذا كله اغمض الجنرال عينيه فى يأس وأمر جنوده بالانسحاب . حينئذ فقط تذكر بونابرت الحلم المزعج الذى رآه أثناء مبارحتهم مالطة .

تذكر المسمار الذى برز من بين المخمل ومزق ثيابه فى لحظة النصر :
وكان المخمل دمشقيا . !!

***

وقطع الجيش رحلة تعسة فى انسحابه قدم فيها من الضحايا مثلما قدم أمام الأسوار ، فقد اخفى اهل القرى مواشيهم وخيولهم . فعانى الجيش المدحور من الجوع والجهد ، وخرج جلال الدين العايدى من بين الأسوار بفرقة خفيفة تتبعت الجيش طوال تراجعه فى الشـــام تنغص عليه انسحابه وتقتطع من رجاله ، وتحطم اسلحته ومتاعه .

وبعد اربعة أشهر فى جهنم عاد الجنرال الى القاهرة ، وقد ادرك ان أنباء الهزيمة لابد أن تحدث أثرا قويا مباشرا قد يودى به وبجنوده . فلجأ الى اصطناع مظاهرة ضخمة محاولا أن يموه بها على المصريين ، ويظهر فى هيئة القوى الظافر ، فكان الجنود يدخلون من باب ويخرجون من باب آخر ليعودوا من جديد ، فيتكاثر عددهم فى انظار الناس .

وقبل أن ينتهى الاستعراض الخادع كانت الحيلة قد كشفت بطريقة مؤكدة . وصار الجيش الفرنسي موضع تندر تلك الجمـــوع الواقفة لمشاهدته فانصرفوا عنه . وقبل أن يدخل آخر جنـــدى مقر الجيش فى الأزبكية كان المتفرجون قد دخلوا بيوتهم يتسلون بما راوا .

***

ووقف الجنرال امام ديوان القاهرة ليقول للمشايخ : ان الجيش قد أحرز انتصارا عظيما فى الشام ، وقد فكرت فى ان أظل هناك فترة اطول ، ولكنى وعدتكم أن أعود ووعد الحر دين عليه .

وبعد أسابيع قليلة ، وكانت ذكرى المسمار البارز من المخمـــل الدمشقى لا تزال تلح على الجنرال ، وفى ليلة مظلمة ، تسلل من مصر عائدا الى بلاده تاركا جيشه بلا وداع .

—*—

- ٣٢ -

ما كاد نظر سماح يقع على الجنود الثلاثة يتقدمهم الضابط الفرنسي والى جواره الرجل النحيـــل ذو العمامة الكبيرة حتى ارتجف قلبهـــا ، واكتسي وجههـــا بصفرة الموت ، وهى تراهم واقفين فى اصرار يدقون البـــاب .

ونزلت مهرولة فى تعثر الى الدور السفلى فقابلتها درية مولولة وهى تضرب بيدها على صدرها .. فقالت سماح وهى تتمالك بجهد : انهم لم يأتوا من اجل الجنديين . ألا ترين ؟ انهم قادمون من باب الغورية . فنظرت درية الى الباب فى جزع شديد ، وقالت وعينـــاها تدوران فى محجريهما من الرعب : ولكنهم سيفتشون البيت ، والجنديان مازالا فى ثيابهما العسكرية .

ـــ لن يحدث ذلك ، اطيعينى وتجلدى .

وهتفت ســـماح فى قوة غريبة : سراج .. اذهب وافتح الباب . واسألهم عن سبب قدومهم . وذهب سراج ليفتح الباب ، وانصرفت سماح لتغطى وجهها بخمار لانها قدرت انها لا بد أن تواجههم .

كان الرجل ذو العمامة الكبيرة نحيلا ضئيلا رفيع الصوت صغير الراس مستطيل الوجه ، وكان الضـــابط الفرنسي يقف من ورائه طويلا عريضا مكتنز الملامح دموى الوجنات تضطرم عيناه بالاشتهاء لشتى المتع ومن خلفهما وقف الجنود الثلاثة ومعهم بنادقهم وحرابهم . وعندما فتح سراج الباب تقدم الرجل ذو العمامة ليدخل ، ولكن سراجا اعترض طريقه ووقف فى فرجة الباب قائلا : الى اين ؟

فتنبه الرجل الى انه لم يستأذن فقال مرتبكا :

ـــ انا المعلم عدلى .

ـــ تشرفنا ، ماذا تريد يامعلم عدلى .

فقال الرجل : انا صراف الغورية وهذا البيت يقع فى منطقتى . أليس هذا قصر بكير بك ؟

— بلى .

— فنحن لم نخطىء اذن ، ادعنا للدخول لنأخذ من اهل القصر الضريبة . فانزاح سراج عن الباب وهو يقول : تفضلوا .

وتقدم سراج آخذا طريقه الى بهو الاستقبال يتبعه الآخرون ، وجلس الرجل ذو العمامة والضابط ، ووقف الجنود الثلاثة بباب البهو .

وسأل الرجل : أين سيد القصر ؟

فقال سراج فى اقتضاب : تستطيع أن تعرف كل شيء من سيدتى .

— نرجو الا نتأخر ، ان وراءنا مشاغل كثيرة .

— انها قادمة حالا .

ولم تمض دقائق قليلة حتى اقبلت سماح واضحة المفاتن فى اعتدال قامتها واكتناز صدرها ، وفى جديلة الشعر الطويلة النافرة من تحت النقاب والتى تنبىء عن كثير من الحسن المستور ولم يخف هذا الجمال الخبىء عن عين الضابط فما كاد يراها قادمة حتى وقف باحترام ومد يده مصافحا . وبغتت سماح للحركة التى لم تكن تتوقعها . وهنا قال الرجل ذو العمامة : صافحى حضرة الضابط فهذه علامة أمان .

وتقدمت سماح متعثرة ، ومدت أطراف أصابعها للضابط الذى تقدم قليلا واحتضن اليد البضة الصغيرة ، وظل قابضا عليها ، وانحنى انحناءة كبيرة وهو يقول : أسعد الله مساء سيدة القصر .

فقالت سماح وهى تسحب يدها برفق : اسعد الله مساءكم .

وظلت سماح واقفة فاستمر الضابط فى وقوفه ، فقال الرجل ذو العمامة : لتتفضل سيدتى بالجلوس حتى يجلس حضرة الضابط .

فتنبهت سماح الى ارتباك تصرفاتها واخذت تلوم نفسها وتقوى من عزيمتها ، فألقت بنفسها على أقرب مقعد ، وهنا جلس الضابط .

وتكلم الرجل ذو العمامة بصوته الراعش : انا المعلم عدلى .

— تشرفنا .

— شرف الله مقدارك ، انا صراف الغورية ، واوامر الديوان جرت بتفتيش منازل المماليك واخذ الضريبة .

فقالت سماح دون أن تفقد ثباتها : ليس عندنا اعتراض على شيء من ذلك .

فقال الضابط متلطفا : انها مهمة ثقيلة على نفسي لأنني لا ارغب فى ازعاج الناس وخاصة السيدات ، ولكنها الأوامر .

— اننا جميعا نطيع الاوامر ، ولكن لماذا تفتشون المنازل ؟

فقال الضابط : اننا نبحث عن المماليك الهاربين ، ربما تسلل بعضهم الى داخل القاهرة فقالت بصوت مختنق بالبـــكاء : أنت تعرف تقاليدنا ، فلو كان فى البيت رجل غير خادمنا هل كنت اخرج للقائكم ؟

فطافت براس الضابط والمعلم عدلى فكرة خبيثة اذ قالا فى وقت واحد : اليس فى القصر احد سواك ؟!

— لم اقصد هذا ، فى القصر ثلاث نســــوة . وانا الرابعة ، كنا زوجات البك وقد قتل فى المعركة أو هرب لا ندرى عن مصيره شيئا .

فقال الضابط بأسف مصطنع : تجلدى يا سيدتى فهذا حال الدنيا .

ثم أضاف بعد قليل من الصمت : اننى آسف لاثارة هذه الذكريات .

— الأمر كله لله .

— ومن اين تحصلين على النفقات ؟

— فى القصر بعض الأموال .

— بكم تقدرينها ؟

— عشرة آلاف ريال .

— وهنا قال المعلم عدلى فى خبث : ان البك استبدل منى قبيـــل نزول الجيش ببضعة أيام مائة الف ريال ، وممتلكاته كثيـــرة ، والقصر ربنا يزيد ويبارك ملىء بالتحف الرائعة .

فقالت سماح فى سخرية خفيفة : وهل سنأكل التحف ؟

فقال الضابط مهدئا : اسكت يا معلم . ثم اتجه الى سماح قائلا : اننا لم نأت لاغضابك يا سيدتى ، انت سيدة لطيفة ، جديرة بكـــل شيء حسن ، ونحن طوع اشارتك . لكننا ننفذ الاوامر .

— كم تطلبون منـــا ؟

ـــ اننا لانطلب منك انت شيئا سوى العطف والرضا ، ولكننا نطلب من أموال البك فدية زوجاته الأربع .

ــ وكم يبلغ ذلك ؟

ــ أربعة آلاف ريال فقط .

ــ هذا كثير !!

فتجاهل الضابط حديثها قائلا : وهـــذا مبلغ معقول بالنسبة لأموال البك الكثيرة وربما احتجنا الى سلفة بعد بضعة أيام ، ولكنها ستترك لاختيارنا ، وأرجو أن أتمكن من حمايتك منها . فهممت : شكرا . . شكرا .

ــ أما التفتيش .

فقالت مقاطعة فى حماسة : تفضل فتش . تفضل . .

فقال الضابط : أفضل ان ارجئه لفرصة اخرى ، ليس هنا ما يدعو للاشتباه .

وعادت سماح الى صويحباتها الخائفات ، وعلى شفتيها ابتسامة قلقة وقالت : لقد كنت هناك أكثر منكن خوفا ، لكننا لا نستطيع ان نتراجع وعلينا الآن ان نستعد للخطوة التالية .

فقالت درية فى رعب : ماذا بقى ؟

فقالت سماح ضائقة الصدر بخوفهن الـــــذى يزيدها خوفا : ان الضابط الفرنسي سيعود ، لقد رمانى عند انصرافه بنظرة خبيثة صادفتها مرتين فى حياتى ، كان فى الاولى قتل حبيبى ، وفى الثانية ضياعى من اسرتى . واجهشت سماح ببكاء مر لهذه الذكريات الاليمـــــة ، واحست ببعض الراحة بعد ما أفاضت من دموعها . ومالت الى النوم ولكنهـــــا ما كادت تهم بالانصراف حتى استأذن سراج معلنا أن المعلم عدلى قد عاد منفردا ، وانه يطلب مقابلة السيدة .

واسدلت سماح النقاب على وجهها وذهبت للقاء المعلم الذى بادرها ضاحكا فى فحيح مخيف :

ــ ان ذكاءك سيدلك على سبب عودتى .

فقالت فى حدة : اننى لا اقرأ الكف .

فقال الرجل فى لهفة : عفوك يا سيدتى . هل اغضبتك . ما انا الا وساطة خير .

ـــ قل ما تريد بلا دوران .

فتقدم الرجل قائلا فى تلعثم : ان البلاد يا سيدتى تجتاز فترة قلقة ، والجيش فى حاجة كثيرة لنقود : وهو لذلك يتعـــــل بالبحث عن مماليك ليفتش البيوت ويجردها من النفائس والأموال .

ـــ ليس لدينا نفائس ولا أموال والحمد لله قد جردتمونا من كل شيء مرة واحدة .

ـــ حلمك يا سيدتى ، ليس هذا كل شيء ، ان الجنـــود ينتهزون الفرصـة ويخربون البيوت ويهينون السيدات الكريمات .

قالت وقد تأكدت ظنونها : فماذا تقترح علينا يا معلم ؟ أنت رجل مجرب ونحن نسـاء ضعيفات لاحول لنا ولا قوة ؟!

ـــ هذا هو الحق وعين العدل . انتن فى حاجة الى حماية ، وفى امثالنا لايخرج المسمار الا مسمار مثله .

ـــ فيجب ان نحتمى بالفرنسي من عدوان الفرنسي .

ـــ ياسلام !! هذا هو الحق وعين العدل .

ـــ والآن .

ـــ والآن .. تتكرمين بالسماح لحضرة الضـابط بزيارة القصر فى اخريات الليل وتيقنى أن جنديا واحدا لن يتخطى عتبته بعد اليوم .

فاقتربت سماح من الرجل محاولة اشعاره باقتناعهـــــا وقالت : ولكننا اربع نسـاء يا معلم فكيف اقنع الاخريات .

ـــ انه ليس بحاجة للأخريات .. الآن على الاقل . ليكن دخوله بعد أن ينمن وهذا يقتضي رشوة الخادم ليسهر قرب الباب .

وصمت قليلا ثم أردف : هل يستطيع أن يحضر غدا .

قالت بقسمات جامدة : نعم يامعلم .

***

وعند الفجر سمع طرق خفيف على باب القصر ، وفتح سراج الباب والظلام حالك والليل ساكن . وتقدم الضـابط على ضوء مصباح صغير يحمله سراج ، وقاده الى بهو الاستقبال الخاص فى الـــدور العلوى . وبعد لحظات كان الضـابط جثة هامدة .

كانت مواقف الليل الماضية قاسية على نفس سمـــاح ، فأصبحت مريضة ولم تغادر فراشها . ومضت ساعات اليوم بطيئة ثقيلة ، وهى تحس بصداع دائم وبفتور فى جسمها كله ، ورأسها يدور لما كابدت من أهوال ، وما آل اليه أمرها ، وتختفى المعالم أمامها حين تنظر الى المستقبل فلا تجد لها فيه طريقا واضحا .

وقرب العصر سمعت سماح ضجة تملأ القصر كله ، وأقداما ثقيلة تحطم الاوانى والتحف وتمزق الفرش . فنهضت من فراشها مذعورة ، فوجدت الجنـــود الفرنسيين يملأون القصر والشرر يتطاير من أعينهم ، وروح التحطيم مستولية عليهم ، وكان المعلم عدلى يقف بينهم يشير هنا وهناك ولا يكف عن الكلام ، وما كاد بصره يقع على سماح حتى أشـــار اليها صارخا : هذه السيدة هى التى قتلته ، لقد دخل هنا ولم يخرج .

وأقسمت سماح أن الضابط لم تقع عليه عينها بعد أن انصرف . ولكن المعلم عدلى أقسم أن الضابط دخل هنا ولم يخرج .

وجرت حملة تفتيش فى كل حجرات القصر الصغير وأبهائه ، وفى نقطة معينة سقط جندى فى الفجوة صارخا من الرعب . وهنـــا اكتشف السرداب وظهرت الفجوة وأخرجت جثة الضابط والجنود منه .

واقتيدت الشابات الاربع وقد غلت أيديهن الى أعناقهن بالقيود ، وسراج يتبعهن فى قيد منفرد . وما كدن يغادرن القصر حتى وجدن شارع الغورية يغص بالبشر والمشرفيات مزدحمة بالنساء والاطفال ، وانطلقت الزغاريد تحييهن بالرغم من الجنود ، وسالت دموع سماح ورفيقاتها وهن يرين الرجال عاجزين عن حمايتهن ، ولا يملكون الا الدموع والزفرات .

واستمر موكب الاســـيرات تحرسهن الجنود حتى بلغ بهن السجن فى بولاق انتظارا لمحاكمة عرف الحكم فيها مقدما .

وعندما مر الموكب بضجته من ميدان الحســـين أطل رجل وامرأة عجوز من مشرفية فى الطابق الثانى ، وتعجبت المرأة للمنظر الغـــريب فنادت عم حنفى وقالت له : ما خطب هؤلاء النساء ؟

— كن يقتلن الجنود الفرنسيين فى منزلهن .

ـــ يا للجسارة .

ـــ ان فيهن واحدة بثياب النوم . لقد باغتوها فى فراشها .

فقالت العمة فى تأثر عميق وقد ترقرقت عيناها بالدموع : يا كبدى يا بنتى . كان الله فى عونهن .

وكان سليمان العايدى يمسح دموعا تسيل برغمه ، ويواريهـــا براحته ، وينظر الى السماء .

---*---

- ٢٣ -

همس الخادم فى اذن السيد عمر مكرم قائلا : الاجتماع الثالث الليلة .

— أيـــــن ؟

— جاء رسول من منزل الحاج البشتيلى ، واسر الينا بالخبر .

فقال الشيخ باسما : لك الله ياحاج بشتيلى ، ان بيته لا يبعد عن
المعسكر الفرنسي اكثر من مائة متر ! أيريد أن يضعنا تحت أنوفهم .

— ربما كان ذلك داعيا لعدم مراقبة المكان .

— كفاك الله السوء ياولدى ، انهم منذ غادرهم بونابرت إصبحوا
مثل الأطفال اذا غادرتهم أمهم .

— فى استطاعتهم أن يرحلوا يا سيدى .

— هيهات !! ليس بمثل هذه البساطة ، ان هزائم عكا اظهرت عيوبهم
وجاء دور القاهرة لتطيح بهم ، ناولنى عباءتى فقد حان وقت الصلاة .
وقام الشيخ فصلى فى نبرات خاشعة واثقة ، ثم لبس مركوبه وانسل من
الدار دون أن يفطن له احد ، وظل يضرب فى شوارع القـــــاهرة حتى
أشرف على بولاق ، فبدت له من بعيد ثكنات الجيش الفرنسي متتابعة
يبعث منها الضجيج والصراخ والغناء والنداءات . وضحك الشيخ لنفسه
وهو يسير فى الظلام وقال : هــــذه علامة اليأس .. اقتربت الســاعة
وانشق القمر .

وانعطف الشيخ الى اليسار قليلا ودخل زقاقا ضيقا ، على جانبيه
قامت بيوت الصناع والحمالين والصيادين ، صـــغيرة هزيلة . وأشرف
الشيخ فى سيره على نهاية الحى الشعبى الفقير لينتهى الى ساحة واسعة
يقوم فى صدرها بيت البشتيلى وأمثاله من كبار التجار والاعيان . وقــد
استقبلت دورهم مدخل المدينة . وولت ظهرها للحى الفقير .

وما كاد يلتقى بالحاج حتى قاده الى حجرة عـــــلوية فوق المنزل

الكبير ، قد امتلأت بالرجال الذين جلسوا على حشايا مســـــتديرة فى جوانب الحجرة يتحدثون فى شتى الشئون .

واكتملت الجلسة بحضور السيد عمر مكرم الذى بدا يتحـــــدث قائلا : لقد دلتنا التجربة انه عند النصر تغتفر أشياء كثيرة ، ولكن عند الهزيمة لا يغتفر اى شيء .

وأحس السيد أن حديثه لايزال غامضا ، فلوح بيده يريد اكمـــــال الحديث ، ولكن رجلا من الجالسين تساءل مستوضحا : الا نكون مغالين مى تقدير أهمية رحيل بونابرت ؟ أخشي أن نضع الناس فى موقف حرج .

صمت الجميع ، وداعب النسيم ستائر النوافذ ، وشق الســكون صوت المطرب الشعبى فى المقهى فى الجانب الآخر من الساحة ، جاء يسرى فى سخرية مرة من الجنرال الجميل الابيض المعتز بقوته ومجده .

حـــــلو وجميـــــل والنبى	يابو قصـــــة يا ابيـــض
قـــلت البـــلاد ملكـــنا	وأنا أصـــل بختى ابيــض
طلعـــت منهـــا فى ليلـــة	لا اســـود ولا ابيـــض

فتبادل الجالسون البسمات وقد اعجبوا بصوت الرجل ، وسخريته، وقال السيد عمر مكرم :

— ان الناس الآن ممتلئون بالثقة ، وأرجو الا تفلت الفرصـــــة .

قال البشتيلى بحماسة : من اجل ذلك اجتمعنا هنا .

— يجب أن نعطى ثقتنا كاملة للناس ، للعوام ، انهـــم هم الذين ضحوا يوم امبابه ، وهم على استعداد لذلك كل يوم .

فعاد شيخ يسأل : اخشي على الناس عواقب الانكسار .

فقال السيد عمر : الهزيمة امتحان ، والنصر نجاح ، دع الناس يجربون .

فقال البشتيلى بهمس يدل على اهمية ما يدلى به : عندى اخبار اكيدة ان القائد الجديد كليبر بدل كثيرا من اركان حربه ، وعزل بعض من لايرضي عنهم ، ورقى بعض صغار الضباط ، هذه فرصتنا حقا .

فقال السيد عمر : ولا اكتمكم سرا أخيرا يعرفه الحاج البشتيلى .

ونظر الى البشتيلى وكأنه يستأذنه ان يبوح بسر لايعرفه سواهما ،

ثم عاد يقول : عندما كنت فى الشام تركت هناك بعض شبابنا ينظمون المقاومة ويفسدون عنصر المفاجأة على الجنرال ، وسيقدمون بعد أسابيع مع فرقة شامية من المتطوعين ، وسيدخلون الى القاهرة بطريقة سرية .

فأكمل البشتيلى باعتزاز : والمدافع التى أسقطت عند « بارود » بدأ ترحيلها سرا الى هنا . وعقب ذلك بدا الاقتناع على وجوه الجميع ، وتحرك كل منهم فى مكانه يهم بالانصراف وقد أوشك الليل أن ينتصف .

فى تلك الآونة التى كانت تعيش فيها القاهرة بين مظاهر الفرح لهرب بونابرت والخوف من احتمالات المستقبل ، كان جلال الدين العايدى يحيا فى عكا حياة قوية حافلة بالجهاد العنيف ، فهو بعد أن قاد مطاردة الجيش الفرنسي حين انسحابه لم يتركه الا بعد أن دخل حـــدود مصر وتصدت للمطاردين حامية العريش ، وهنا عاد جلال الدين يجمع المتطوعين ويدربهم ، وقد كان يظن أن مهمته عسيرة شاقة ، ولكنه ما كاد يعلن عن غايته حتى حرمه المتطوعون النوم !! فقد كان باب الدار الصـــــغيرة فى عكا التى يقطنها يطرق من الراغبين فى الانضمام اليه صباح مساء .

وفى هذا الجو الحافل بالعمل والقوة قضي جلال الدين سبعة أشهر كاملة وهو يتراسل مع القاهرة بطريقة سرية ليعلم الموعد الذى يبدأ عنده الزحف . وكان سليمان الحلبى يقف مع رفيقه فى النضال ملتهب الاشواق للمعركة ، جياش الفؤاد لليوم الكبير الذى يمكنه الله فيه من عنق بونابرت نفسه .

وفى الليلة التى علم فيها بهروب بونابرت صر على اسنانه مغتاظا وقال فى غضب : لقد افلت الوغد منى .

فقال جلال الدين : صبرا يا سليمان .. اذا كان الوغد قد هرب فقد ابقى لنا ثلاثين الف وغد

فقال بغيظ : كنت اريد الوغد الاكبر .

ــ كلهم وغد أكبر !.

ــ لا . ان ذلك المجرم العتيد ترفعه درجة جرمه الى مرتبة شيطان مريد ، وكم كنت اريد أن اخضب يدى بدمائه تقربا الى الله تعالى .

ثم أردف منفعلا : أين أهدافه ؟ لقد هادن المماليك وترك الشاطىء للانجليز وخربت بيوتنا وخدع جنوده !!

فقال جلال الدين بعد تفكر : انت حسن الظن بجنود فرنســــــة

ياسليمان ، ان كلا منهم بونابرت صغير يعيش على امل اذلال العــرب وامتلاك بلادهم ومحو معالم شخصيتهم .

فقال الشاب الحلبى ضاحكا فى عصبية وهو يسحب الغطاء على وجهه لينام : كنت أريد ان ادخل الجنة طائرا بجناحين من نور ، وان يكون ذلك بسبب بونابرت الكبير .

— أو تشك فى أن هذا جزاء كل شهيد يدافع عن وطنه ؟

وسرت بين الرفيقين لحظة صمت عاد بعدها جلال الدين يقــول : لقد صرت تردد حديث الاستشهاد والجنة كثيرا يا سليمان ، واخشي أن يورطك حماسك فى حماقة ، ولعلك تذكر اننى قلت لك يوم يافا : ليس المهم أن تموت ، ولكن الاهم بكثير ان تعرف متى يجب أن تموت .

— نعم يا جلال الدين ، لقد سمعت هذا وأعجبت به ، وأود لو أعتنقه ولكن حبى للقاء الله شهيدا ينسينى حكمتك التى علمتك الحرب اياها .

— نم يا سليمان .. أنت فى حاجة الى النوم لتجدد نشاط جسمك المنهك بالتدريبات .

— وهل تظننى أخلد الى الراحة ان اغمضت عينى ؟! اننى حين أنام أخوض معارك رهيبة وأغرق الى اذنى فى دماء الاوغاد . آه لو جربت ذلك .

— ماذا تعنى ؟

— لو شممت رائحة الجنة بعد رائحة البارود والدماء .

— فكر يا سليمان فى الارض والواقع ، ودع ما عند الله حتى نلتقى معا فى رحابه ، لاتدع حب الجنة يشغلك عما يجب أن تفعله من أجلها . فكر الآن فى النوم ، وفى الصباح نبحث الامر .

— لا أستطيع . انك تتوانى فى الجهاد . وربما رحلت بمفردى غدا .

— الا يشق عليك فراقى وقد صرنا رفيقين .

— اذا أردت لقائى فى القاهرة فابحث عنى عند الشيخ السويسي صاحب محل العرقسوس فى مدخل الغورية .

وفى الصباح جاءت رسالة سرية عن طريق البحر الى جلال الدين بأن يقسم مالديه من جنود الى فرق صغيرة . وأن يسلك بها الطريق

الجانبية ويتسلل بين نقط الحراسة الفرنسية دون أن يشـــتبك معها . ومكان التجمع فى بولاق .

وعلى الفور بدأ جلال الدين فى تنفيذ ماورد اليه من أوامر ، وقـــد رغب فى أن يصحب آخر فرقة .. واللقاء فى القاهرة .

وقد عارض سليمان فى ذلك معلنا أنه يرفض أن يكـــون آخر المجاهدين ، ولكن جلال الدين ترفق به فى عطف على شعوره الوطنى الدينى الجارف وقال متلطفا : أنت عالم أزهرى فاضل ، وشاب مخلص صالح ، وطريق الجهاد طويل ، ليس له آخر . لاتتعجل فلن يحرمك الله ما تصبوا اليه نفسك . انك الآن تجاهد ، والتدريب جهاد ، والحرمان من الاهل جهاد .

حينئذ سكتت نفس سليمان وبان الرضا فى عينيه ، ولانت قسمات وجهه ، وقال لجلال الدين وهو يودعه :

ـــ صحبتك السلامة . الى لقاء قريب فى الجنة .

فقال جلال الدين باسما : الى لقاء قريب تحت راية النصر أولا !!

—*—

« ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

هكذا ودع جلال الدين رجال فرقته عند الحدود المصرية ، بعد ان ظل تجمعهم قائما طوال مسيرهم فى ارض الشام . وعندما اقتربوا من العريش وزعهم الى وحدات صغيرة كل وحدة اربعة او خمسة ، يسيرون فى ازياء مختلفة ويسلكون طرقا شتى حتى لا يتنبه الى سعيهم الحثيث أحد ، ثم تواعدوا جميعا على اللقاء فى الساحة الخلفية لبولاق .

بين احدى هذه الجماعات سار جلال الدين وقد استبد به الحنين الى اهله ، وغمره شوق فياض عند ما لمح مظاهر الطبيعة المصرية التى عاش بينها عمره ، والقرويون منصرفون الى أعمالهم يتصايحون فى الحقول ويرددون الآهات عند السواقى .

وخالط قلبه شوق شديد لزيارة القباب . تلك القرية الوادعة التى قضي فيها اجمل ايام حياته والتى خفق فيها قلبه اول خفقة حب اين أولئك الاحباب الآن ؟ أفى الاحياء هم أم اكلتهم الاحداث المفترسة ؟ سماح وامى وابى وسليمان .. وايضا .. مرجريت وجوليا !! ما اقسى الحرب — عم

وأفاق جلال الدين من استرساله مع خواطره فوجد يدا تلمس كتفه من جانب ، فنظر الى صاحبها ، فوجده رجلا لا يتناسب سنه ولا هيئته مع مناداته له بعم ، كان يلبس ثياب الدراويش ، فتوجس منه جلال الدين والقى عليه نظرة ثاقبة ، وخيل اليه انه رآه من قبل فقال : ماذا تريد ؟

— أريد أن أعرف من أين أنت قادم ؟

— وما شأنك بهذا ؟

— اننى اقرأ الكف ، ولو اخبرتنى فاننى سأذكر لك الى اين انت ذاهب ..

فابتسم جلال الدين فى استخفاف وقال فى نفسه : « لعله شيخ معتوه ان لم يكن جاسوسا ، وهو على اى حال تسلية طريفة نستعين بها على طول الطريق » .

ــ أتعرف فى الكف حقا ؟

ــ نعم . وبشرط .

ــ ما شرطك ؟

ــ أن تقول من أين قدمت .

ــ انا قادم من المنصورة ، وفى طريقى الى القاهرة .

ــ انت تكذب وهذه بداية غير طيبة .

ــ ما أدراك اننى أكذب ؟

ــ ذلك الشوق المطل من عيونك وهذه اشياء لاتظهر على العائد من بلده .

ــ ومن قال لك اننى من المنصورة ؟

ــ قالت لى عصفورة من مالطة .. اسمها .. اسمها .. يا الهى لقد نسيت اسمها لقد ذكرته ..

اسمها سماح .

وما كاد جلال الدين يسمع هذا الاسم حتى خفق قلبه بشـــدة، وجذب يده من يد الرجل فى عنف بينما أطاحت يده الاخرى بعمامة الرجل وهو يقول : من انت ؟ واطلق الشيخ ضحكة طويلة ساخرة وقد انبسطت اساريره وهو يشير الى صاحبه قائلا : البحر واحد لكن السمك الوان .

ــ عطية الدمنهورى .

ــ نعم .. ياعم !!

وتعانق الصديقان فى شوق ولهفة ، والذكريات القاسية فى مالطه والاسكندرية ووكر السالمية ، وفى بحيرة المنزلة تقفز فى خواطرهما . وانفصلا من عناقهما الطويل ، وقال عطية : ولكن أين ذهبت بعد ذلك ؟

ــ بعد ماذا ؟

ــ بعد صحبة طوبار .

ــ الشام .

ـــ وكيف حالك ؟

ـــ على ماترى .

ـــ هل التقيت بأسرتك ؟

ـــ كثيرا جدا . فى المنام !!

ـــ ولماذا فى المنام وانت قريب منهم ؟

ـــ لانى لا أعرف لهم مكانا ، فبعد صعودى الى القباب يوم أسرنا المراتين الفرنسيتين لم اسمع عنهما اى شيء .

ـــ هذا طبيعى ما دمت قد رحلت الى الشام .

ـــ ربما رحلت الى الشام يأسا من لقـــائهم ، من يدرى ماذا فى القلوب ، اننى أكاد لا أعرف ما أريد ، ان كل ما افعله ينتهى دون أن يثمر لقائى بالأحباب

ـــ هذه النغمة اليائسة غريبة عليك يا جلال الدين ، لقـد طال حنينك واغترابك ولكنك شجاع وصبور .

ـــ وأنت . كيف حالك ؟ . لقد شغلتك بأحزانى الخاصة التى اطوى عليها صدرى .

ـــ أنا !! وابتسم فى غير مبالاة وقال : انا من أكبر اسرة فى مصر.

وهز جلال الدين رأسه وانتظر ايضاحا ، فقال عطية ولا تزال النغمة الساخرة المرة تغلف كلماته : عند ما تفرقنا فى المنزلة عدت الى دمنهور ريثما اتبين طريقى واستريح من عناء القتال ، ولم يكن معى فى الدنيا كلها سوى أمى وأبى وأخ وحيد . وأنت تذكر اننا رددنا الفرقة التى بعث بها كليبر الى دمنهور خائبة مدحورة .

ـــ نعم اذكر ذلك .

ـــ ان كليبر لم ينم عن ثأره فهاجم دمنهور وقتل الآلاف ، فى هذه الآلاف امى وأبى واخى الوحيد .

واطلق عطية ضحكة هستيرية وعيناه تفيضان بالدموع رغما عنه . وضمه جلال الدين فى حنان خالص وهو يشد على ذراعيه مشجعا . فقال عطية : هل تظن أن الصدمة أطارت صوابى ؟ كلا .. لقد عـــددت نفسي عضوا بين اكبر أسرة فى مصر ، هى أسرة المصريين كلهم .

واختنق صوت عطية بالعبرات فتوقف عن الكلام . وعاد جـــلال

الدين يشجعه ويعزيه ويناظر بين ما حدث لكل منهما تسلية له وتخفيفا لوقع الفجيعة على نفسه ، وأراد ان يشغله عن خواطره الدامية فسأله على البديهة : ولكن ماهذه الهيئة الغريبة ؟

فجفف عطية دموعه وقال فى ابتسامة فيها حزن وتسرية : لزوم الشغل .

ــ وماذا تشتغل الآن ؟

ــ اتذكر ونحن نصطاد السمك ؟ كنا نطرح الشبك ونقبل ما يزج فيها حتى لوكان ثعبانا .

ــ جميل جدا . ولكن ماذا يشغلك الآن ؟

ــ كل هذه الأشياء . . معى رسالة سرية لحلوانى فى طنطا ، وفى الوقت نفسه اتجسس وانشر الشائعات التى تهز اعصاب العدو .

ــ انت بطل يا عطية .

فقال باستخفاف وكأنه لا يعنى مايقول : بطل على طريقتى . . والبحر واحد لكن السمك الوان ، سلام عليكم . الآن افارقك الى طنطا ، والى اللقاء فى بولاق .

***

ظل سليمان العايدى فى « بارود » فترة طويلة بصحبة ذلك الشيخ الغامض الذى لايعرف احد اسمه ويكتفون فى الاشارة اليه بقولهم : « الريس » وقد أصيب سليمان بالحمى من اثر الجرح الذى أصابه ولزم الفراش اكثر من أسبوعين ، وما كاد يسترد صحته حتى انبأه ذلك الرجل العجوز أن المدافع قد تم استخراجها من قاع النهر ، وأنها قد فكت الى قطع صغيرة ، ووضعت بين بضائع وسلع مختفية للتعمية ، وأن الرجال سيرحلون بها الى القاهرة ، كل واحد فى طريق وبزى مختلف ، وأسند الى سليمان مهمة حمل بعضها معه .

وتنكر سليمان فى زى صغار التجار ، وقاد اربعة حمير محملة بغرارات البلح الجاف والشعير يعاونه رفيق آخر يلبس ثياب الفلاحين الاجراء ، وكان فى داخل كل غرارة وبين كميات البلح يكمن جزء من مدفع جهنمى .

وبعد أن استمر بهما السير يومين بلغا مدينة المنيا ، ونزلا فى خان

هناك حتى يمر الليل ، ولكنهما سمعا ان جيش مراد معسكر قبالتها ، وانه يقوم بحركات مريبة ، وانه جمع الضرائب عنوة من الناس معلنا أنه ذاهب ليعاون القاهريين على الثورة ، فيضرب الحصار على المدينة من خارج في حين يفتك المصريون بمن فى داخلها . وتلقى سليمان هذه الشائعات بتشكك وحذر ، وتأكدت مخاوفه حين عرف أن مرادا على علاقة طيبة بكليبر ، وواصل طريقه الى القاهرة فبلغها قبل جيش مراد ببضعة أيام .

وتسلل بغرارات البلح والشعير الى مصر القديمة ، وفى مسجد عمرو بن العاص فى ظلام الليل وسكونه ، فتحت حجرة الضريح ، وملئت بتلك المدافع انتظارا للحظة الحاسمة .

—*—

طالت اقامة مرجريت وابنتها جوليا فى القباب ضيوفا على العمدة ، وكانتا تريان المعارك تنشب بين قرى بحر أشمون وبين جنود فرنسا الصاعدين الى دمياط أو العائدين منها ، ولا تحركان ساكنا ، فلم تفكر احداهما فى اللحاق ببنى وطنها ، أو بمراسلتهم سرا . وطالت غيبة جلال الدين وتواترت الانباء عن ثورات القاهرة التى لاتهدأ ، فرجحت المراتان أن جلال الدين لم يجد الظرف ملائما بعد لاعادتهما ، أو — وهذا ما يبعث القشعريرة فى جسديهما — أنه عرف أن مونتى قد قتل وآثر الا يصدمهما بالنبأ فجأة فآثر لهما استنتاجه فى غيبته .

وعندما فر بونابرت الى فرنسا ، وترك قيادة الحملة لكليبر اشيع أن القائد الجديد لم يتسلم عمله الا ليقوم بترحيل الجيش الى فرنسا ، واعادة مصر الى تركيا . وانتظرت مرجريت أن تأتيها اخبار جديدة من جلال الدين ، ولكن الصمت قد طال ، ففهمت منه شيئا !! وحينئذ طلبت مقابلة العمدة مضيفهما الذى تركهما فى الحريم مع زوجته وبناته . وجاء الرجل عجلا ليلبى طلب السيدة التى لم تطلب مقابلته قبل اليوم .

قالت مرجريت فى ثقة : اننى أشكر لكَ سماحتكَ وكرمكَ ياحضرة العمدة :

— العفو . العفو يا ابنتى ... هذا واجب .. أنتم ضيوفنا .

— اننى أكن لكَ كل احترام لهذه الضيافة الكريمة الطويلة .

— لاتقولى لى ذلكَ يا ابنتى . أنت فى منزلكَ وأرجو الا تكونى مكدرة من شيء !!

— هذا كرم فوق التصور ياسيدى ... ولكنى أرجو ...

— رجاؤكَ مجاب فمرى بما تشائين .

— أرجو أن تسمح لى بالانتقال الى دار جلال الدين

قال العمدة العجوز دهشا : دار جلال الدين !

ـــ نعم .. أتراك نسيته !؟ الذى جاء بنا الى هنا .

ـــ ما لهذا أردت .. ولكن هل أزعجناك بشيء ؟

ـــ على العكس تماما .. ولكنى خجول من كرمكم .. ومن طول اقامتى ..

ـــ ان دار جلال الدين مهجورة منذ عامين ولا تصلح للسكنى .. وهذا منزلكما .. وصمت الشيخ برهة ثم أضاف : هل بلغتكما الاخبار الجديدة عن قرب رحيل الجيش ؟

ـــ نعم .

قال بعد تردد : اذا كانت بك رغبة فى الذهاب الى القاهرة عملنا مايلزم لوصولكما سالمتين ان شاء الله .

وهنا اضافت زوجة العمدة التى ربما استراحت لمغادرة المرأتين الجميلتين دارها :

ـــ فلعلكما تجدان رجلكما .. أو تعثران على من يعرف جلية أمره .

فقالت مرجريت بصوت مختنق بالبكاء : اننا لم نعد نفكر فى اللقاء بمونتى ، هذه حقيقة مرة ، واليأس راحة .. هاهو الزمن قد تطاول علينا هنا دون أن يأتينا جلال الدين بخبر ينير لنا الطريق اليه ، ولابد أن يكون مونتى قد لقى حتفه فى المنزلة أو دمياط أو عكا .. ان بونابرت رجـل حقود على الانسانية لا يفكر الا فى نفسه ، فقد غرر بجيشه وصيره حطاما ثم فر عنه فى لحظات محنته ، فلم يحرز له نصرا ولم يحفظه فى سلام .

فبادر العمدة قائلا : ياسيدتى .. اننا نحترم حزنك من أجل زوجك ومن أجل آلاف الجنود الذين يموتون .

ـــ اننى لا أحقد عليكم .. اننى لا أستطيع أن أرى دم زوجى على أيديكم .. تلك الايدى التى أكرمتنى وعاملتنى كأعز النـــــاس .. اننى احقد على الذى استدرجه الى هنا وملأ نفسه بالاوهام ثم هرب .

ـــ ومع ذلك ياسيدتى فما زال الامل قويا فى العثور عليه حيا .. من يدرى ؟

فعادت زوجة العمدة تقول : ان الانباء الصحيحة عنه لن توجد الا فى القاهرة ، ويجب قطع الشك باليقين .

فقالت مرجريت : لن اذهب الى القاهرة !! ان الجيش على وشك الرحيل .. كل مانسمعه يدل على ذلك ، ولو لم يكن مونتى حيا فانهم سيأخذوننا قسرا الى فرنسا ، ولن افعل ذلك ولو قتلونى . لن أعـــود الى فرنسا بدون مونتى ، كيف يمكننى ذلك !!؟

واخذت مرجريت تنشج ببكاء مكبوت .. وهى تقول :

ـــ اننى سأختنق ان نزلت مكانا سرت فيه مع زوجى ، وجـــوليا ستتشنج وربما تموت .. ولن نبارح هذه القرية حتى يأتينا جلال الدين او مونتى ، كل ما نطلبه منكم أن تعاونوننا على النسيان .

قال العمدة بأسف : نحن رهن اشارتك ياسيدتى .

ـــ اننى لا اريد منكم الا أن تعينونى على الاقامة بدار جلال الدين... انها مهجورة ولكنى افضل البقاء فيها .. سأصلحها ما امكننى وسأزرع حديقتها وردا .. وهو فن اتقنته قبل أن أتزوج مونتى . ان والدى صاحب اكبر محل زهور فى طولون ..

وابتسمت ابتسامة شاحبة لذكرى عزيزة مرت بخيالها حين تحدثت عن محل والدها .. لقد رآها مونتى تبيع الزهور فاقتطفها من بينها ...

ـــ ولكن ماذا تصنعين بالزهور يا سيدتى ؟

ـــ سأستخرج عطرها وابعث به الى المنصورة . ان لنا فى المنصورة ذكريات عزيزة .. ذكريات آخر لقاء . وبعد شهرين كانت دار العايدى قد فتحت ابوابها من جديد ، وجرى الهواء الطلق بين نوافذها وصـــاحت الديوك من جديد فوق سطحها ، وعاد الى الحديقة سياجها الساذج وبابها المصنوع من خشب الاشجار بلا تنميق ، وازيلت أشجارها الميتة الجافة وقسمت الى أحواض تعانقت فيها الزهور فصارت بهجة للعين وسرورا للنفس ، وفى الغرفة الجانبية للحديقة ـــ التى كانت تستعمل فى تخزين الفواكه ـــ أقامت مرجريت جهاز تقطير ساذج .

وعندما بعثت ببواكير انتاجها من العطور الى المنصـــورة جاءتها انباء مع حامل البضائع تقول ان الثورة قد أعلنت فى القاهرة .. ومصر كلها فى وضع الاستعداد .

فقالت وكأنها تؤكد خبرا تحققـــــت منه من قبل : يرحمك الله يا مونتى .. فلو كنت حيا فما أحسبك ستبقى بعد اليوم .

لم يكد مونتى يصل الى دمياط خاضعا لحراسة شديدة وتضييق اشد بعد أن ثار فى الناصرة وتهجم على سياسة بونابرت ، حتى عاد يفكر فى هدوء بعيد عن التوتر ، فى الداهية التى حلت به من موت امرأته وابنته مع حامية المنصورة . وانتهى الى نتيجة حاسمة هى أنه لم يعد يصلح محاربا ، فقد طوحت فعال الجنرال الذى أحبه بالمثل التى عاش لها ، ودفع ثمنها صديقه جوليان وأمثاله من الذين لم يلوث الحقد قلوبهم .. ودفع هو ثمنها امرأته وابنته وشقاء دائما لا يدرى غايته ، وانتهى ايضا الى انه لن يعود الى فرنسا ، فبأى وجه يلاقى أسرة مرجريت وماذا يقول لهم !! « قد يعود جيشنا او لا يعود فهذا أمر لا يهمنى ، أما انا فسألزم المدينة التى رأت مصرع ابنتى وامرأتى . ان الاحياء يزورون قبور احبائهم وينثرون عليها الزهور والدموع ، والمنصورة كلها قبر لابنتى وزوجتى ، وسأعيش مابقى من حياتى فى ذلك القبر الكبير » .

وقد تصادف أن كان حاكم دمياط الفرنسي جنرالا من طولون .. ومن ثم فقد اكرم وفادة مونتى وزاد عطفه عليه لما علم بمأساته فى فقد امرأته وابنته .

وبعد أن اطمأن الحاكم الى مونتى رأى أن ينتفع من وجوده .. فقال له يوما :

ــ أنت تعرف أننى لا أملك الآن حق اعادتك للعمل فى الجيش .

ــ اعرف ذلك .. وأنا أيضا لا أريد أن أعود .

ــ هذا شيء لا أملكه أنا ، ولا تملكه أنت .. وعلينا الآن أن نفكر فى ملء فراغك ..

ــ ان ذكرياتى وأحزانى تملأ فراغى كله ..

ــ من أجل ذلك أرى الحاجة ماسة الى ملء هذا الفراغ حتى لاتقضي عليك أشجانك . أنت طولونى ، والطولونى تاجر بالسليقة فما رأيك فى أن تتاجر هنا ؟ .

فأدار مونتى الحديث فى ذهنه وقال بارتياب : ليس معى مال أتاجر به ؟!

ــ وهل يعجز الطولونى الحصول على المال ؟! ومع ذلك .. تاجر باسمى ، والعملاء موجودون . ان الحامية هنا تستهلك كثيرا من الخمور وهى تجارة يرفضها المصريون . تاجر فى الخمور .. لحسابى .. فى السر .

وصمت مونتى برهة ليقول : اتفقنا .

وظل مونتى مستسلما لما يأمره به الحاكم حتى عاد بونابرت مدحورا من عكا ، وقبل أن يفيق من هول الصدمة ولى هاربا الى بلاده ، وتركت قضية مونتى معلقة دون كلمة حاسمة فيها . لكن مونتى — وقد رحل الجنرال — عاد يفكر فى حقه وفى خطته التى رسمها للحياة فى المنصورة ، فسأل الحاكم قائلا : أريد أن أعرف بأى صفة أنا هنا ؟

-- ماذا تريد أن تكون غير مواطن فرنسي ؟

-- أنت تعرف ما أريد ! هل أنا متهم مقبوض عليه ؟ أو اننى مسرح من الجيش ؟ أو مجند فيه ؟

— ولماذا تشغل بالك بمثل هذه الامور ؟ انك هنا معى وفى حمايتى وهأنت تتوسع فى تجارتك دون أن يتعرض لك أحد .

— أترى أن الارباح الطائلة هى كل شيء فى حياة الانسان ؟

— يالك من رجل عنيد يامونتى ، لقد صرت تتكلم بمنطق تلك البلاد .. الا يستطيع النسيان أن يطرق باب قلبك ؟

— وكيف أسلو وكل عمل صغير أو كبير أزاوله يذكرنى بهما ! حتى الزر الناقص فى قميصي يذكرنى بصغيرتى جوليا وهى تضع القميص على ركبتيها الجميلتين وتعنى به .

— فقال الحاكم باشفاق مفتعل : اننى أعطف على مأساتك وارجو أن أستطيع معاونتك .

فقال مونتى بعد تمهل : لقد صرنا شريكين فى التجارة ، لذلك أرجو أن توافق على خطتى .

— اننى لم أعرفها على وجه التحديد .

— سأترك الاشراف على تجارتك هنا ، وسأقيم فى المنصورة خانا لنزول المسافرين والحق به حانة صغيرة أزودها من خمورك ، والتجارة تستطيع انت الاشراف عليها بعد أن رحل بونابرت ، لانك على ود مع كليبر على ما أعتقد .

فقال الحاكم : ولكن .. الا ترى أن ذلك يثير حسد الضباط الآخرين ؟ انت تجنى الاموال وهم يقابلون الرصاص والحراب .

فقال مونتى متجهما : انهم لم يفقدوا نساءهم ولا بناتهم مثلى .. كفانى مالاقيت من جنرالكم ..

***

وفى الطرف الغربى من المنصورة .. على راس الطريق الممتد الى القاهرة ، أسس رجل فرنسي فى الاربعين ، حـــزين النظرات خفيض الصوت ، خانا صغيرا ، والحق به مشربا متواضعا بين بضــــع شجرات من الليمون والبرتقال ، وعلق لافتة صغيرة تحمل اسم الخان « خـــان جوليا » ..

ولم يمض على تأسيس الخان اكثر من شهر واحد حين وردت الى مونتى رسالة من صديقه حاكم دمياط يعلن له عزم كليبر على الجلاء الى فرنسا ، وأنهم يجمعون جنودهم للرحيل ، ويدعوه للحاق به ليسيروا معا الى رشيد . ولكن مونتى رد برسالة من كلمتين : « لن أعود .. أنا باق مع الذكريات !! » .

ولم تكن الرسالة قد وصلت بعد الى الحاكم حين بعث الى مونتى رسالة ثانية بعد أقل من أسبوع يطلبه للخدمة فى الجيش مرة أخرى لان الثورة قد نشبت فى القاهرة ، وأن الحملة مقبلة على عاصفة توشـــك أن تجتاحها .. فكانت رسالة مونتى ردا على هذا الاستنجاد أيضا .

فلما بعث اليه الحاكم يتهدده ويأمره بالحضور والا حاكمه بتهمة الخيانة ، قال مونتى فى سخرية ، دون أن يعبأ بالرد على هذه الرسالة الاخيرة : ذوقوا لوعة التمزق مثلى . لن أطيع لكم امرا ، ولا أخشي منكم محاكمة ، لانكم اما أن تطردوا من هنا ، واما أن تدفنوا كما دفنت مرجريت وجوليا . وسواء هذه أو تلك فلن يكون لديكم وقت لمحاكمتى !

عقد كليبر مجلسا حربيا مع قواد الفرق ليبحث معهم تطورات الموقف، وقد أقبل الجنرالات على مقر الاجتماع بقلوب واجفة اذ احسوا ببوادر تحرك البركان ، وبالموقف الذى يتأزم نتيجة ما أشيع فى القاهرة من اتفاقهم مع الاتراك . وقد بدأ كليبر حديثه بكلمة أيدت كل مخاوف القــــواد اذ قال : نحن فى هذا البلد بلا صديق !

فالتقت عنده النظرات الحائرة التى تبحث عن حل ، وصمت قليلا ليعود قائلا :

— لأكون واضحا سأستعرض موقفنا من الاتراك فى كلمات ، فنحن هادناهم أول الامر حتى لانفتح على انفسنا أكثر من جبهة قتال .

فقاطعه جنرال قائلا : واحتلالنا لمصر .. علام يدل ؟

فقال كليبر متعضبا : أعنى من الوجهة القانونية .. لم نعلن انفصال مصر عن سيادة تركيا ، وأعلنا اننا نؤدب المماليك لاعتدائهم على الفرنسيين ولخروجهم على طاعة السلطان . فعاد ذلك الجنرال يقول بالحاح : ولكننا لم نؤدب المماليك .. وانما صادقناهم .

فزمجر كليبر قائلا : هذا ما اقتضته طبيعة الوضع الحربى ، وتلك خطوة بونابرت وأنا أتممتها .. والآن تغير الموقف ..

فقال ضابط آخر : احترامنا لتركيا من اجل اقتناص المماليك ، فلنحترم المماليك ونقتنص تركيا !

فقال كليبر : المماليك صديق لايسر ، وعدو لا يضر .. مازالت رسلهم عندى تبدى استعدادها للتعاون ، ولكنى لا اثق بهم وان كنت أراوغ لاكتفى شرهم ، وقد اقتضتنى هذه المراوغة أن أســــمح لهم بالتجمع جنوبى القاهرة .

فعاد الضابط يقول : ارى أن تسمح لهم بدخول القاهرة ليعاونونا فى حفظ الامن ..

ـــ ان ذلك سيثير حفيظة المصريين الذين لايقبلون عودة المماليك ولا الاتراك ، ولولا اننى مضطر الى تسليم القاهرة للأتراك مافعلت ، ولعاونت المصريين حال انسحابى لأفتح جبهة على تركيا تنزف منها . ستسلم المدينة للأتراك ، وسنشترط حماية المماليك .. ونعود الى بلادنا وقد أشعلنا « الفتيل » بهذه الشروط .

وأجال كليبر نظراته بين الضباط المتحلقين حول المنضـــد الكبيرة فوجد فى نظراتهم معانى الاستسلام والرغبة فى انهاء الموقف ، فقال : سأوقع المعاهدة بعد ساعة توقيعا نهائيا ، ونبدأ الانسحاب عند الفجر ..

وقام مغادرا قاعة الاجتماع .. ثم التفت وراءه هامسا : اجمعـــوا جنودكم وتيقنوا من استعدادهم للرحيل ولكن لاتخبروهم بوقته .

***

لم يكن زعماء الشعب فى غفلة عن آيات التقـــارب الجديد بين أعدائهم ، وأمام هذا الاعتبار عاد السيد عمر مكرم من يافا وأخذ يعيد تنظيم الصفوف فى الخفاء ، وكان سقوط المدفعية الفرنسية عند بارود عاملا مشجعا فى توسيع دائرة الثورة ، أما وقد انضم المماليك الى فرنسا ثم اتحدوا مع الاتراك على شعب مصر ، فلا مانع من خوض معركة كبرى تنتهى بالخلاص من كل قوى الطغيان ..

وعند ما انتهى سليمان العايدى من وضع مدافعه فى حجرة الضريح بمسجد عمرو ، سعى الى لقاء السيد عمر مكرم وأفضي اليه بما علمه من جيش مراد عن موقفه المذبذب بين تركيا وفرنسا ..

فقال السيد عمر : ان هذا لا يدخل أى تعديل على خطتنا ، لاننا نعمل على أساس انهم جميعا أعداؤنا ولا نركن اليهم .

فقال سليمان : فما موقفنا من جيش مراد ؟ .

ــ ان مرادا قد أوضح لك موقفه ، فدعه فى تردده ولا تهاجمه .. وكل ما سنفعله أننا لن نحارب فى جبهة واحدة .. ستقف مصر القديمة تجاه مراد اذا مافكر فى مهاجمتها ، وسترد بولاق غزو الفرنســيين ، وتتجه القاهرة لطرد الاتراك القادمين من عين شمس .

ــ ومتى يبدأ العمل ؟

فقال الشيخ وهو يداعب لحيته بيد راعشـــة من الانفعال : ان

الحوادث تجد سراعا ، وقد علمت أن جيش فرنسا سيبدأ جلاءه غـدا ليخلى الطريق للاتراك ..

وسكت الشيخ لحظة ثم قال فى قوة حاسمة وكأنه أسـد يهم بالوثوب : فى لحظة تبادل المواقع .. يجب أن نعمل ..

ــ وهل تقوى بولاق على صد كليبر ؟

ــ فى بولاق بطل يركن اليه هو البشتيلى ، وقد وصـلت خفية فرقة شامية قادمة من يافا وعكا مع بعض شبابنا .

وتمهل الشيخ قليلا ثم أضاف مطمئنا : لا تخش شيئا يابنى .. ولا تدع للخوف على نفسك سلطانا . قال سليمان وهو يهم بالانصراف : والله ما أخشي الموت ، ولا الهزيمة وانما أخشي غدر الزمان . فقال الشيخ بصوت متهدج حنون : لقد غدر الزمان بنا طويلا ، وطالت غفلتنا عن حقنا ، ولكن التاريخ لايعود الى وراء .. انه يزحف بالرغم من كل شيء .

***

بعد أن انتهى سليمان من شواغل الحرب اسـتيقظ فى نفسه فجأة حنين شديد الى زيارة داره ، فهمس لنفسه وهو يأخذ طريقه اليها : ما أحوجك يا سليمان الى لقاء أسرتك ، تلك التى لاتدرى عن مصيرها شيئا منذ شهور طويلة !

واهتز قلبه برفيف مريح عندما وقعت عينه على بيته ، ورأى عم حنفى جالسا أمامه على أريكته الخشبية وكأنه لم يغادر مكانه منذ تركه يوم الرحيل !

والتقى سليمان بعميه ، وبعد حرارة اللقاء وتبادل الاشواق فطن سليمان الى أن ابهام عم حنفى فى يده اليسرى مكسورة ! وأنه لم يتلقه ببعض أبيات الشعر كما هى عادته ، فتغاضي سليمان عن الاولى حتى لا يجدد متاعب الرجل ، وقال معلقا على الثانية وهو يضحك بانفعال :

قد زرتكم لما جفوتونى ان المحب اذا مالم يزر ، زارا

ونغم الشطر الاخير فى البيت بطريقة مضحكة قائلا : والرواية عن عم حنفى رضي الله عنه .

وانطلق العايدى الكبير مع سليمان فى الضحك ، ولـكن عم حنفى

القى ببصره الكليل الى للسماء وعلى قسماته حزن مرير ، وقال جادا :
يابنى .. اعبث بغيرى .

فقال سليمان ولما يزل ضاحكا : معاذ الله أن أعبث بك .. لكن :

يجود علينا الخيرون بمالهم   ونحن بمال الخيرين نجود

فلا فضل لى فى ذلك .

فقال الرجل ، ولم يتخل بعد عن طابع الحزن الذى يغلف سحنته :
اننى لا احتمل الصيام فارحم شيخوختى .

ـــ الصيام !! اما انك غريب عجيب منذ اليوم !

ـــ لقد اقسمت الا اضحك او اقول شعرا حتى تسقط الراية الدنسة عن مئذنة جامع الظاهر ، وحتى تهدم حانة ميدان الحسين ، وتعود الصلاة الى مسجد الرويعى الذى جعلوه خمارة . ان الوقت لم يعد يصلح للضحك ، وقد أبطل المدفع مزاعم الشعراء ..

فقال سليمان جادا : ياعم حنفى .. اننى أحترم عواطفك النبيلة ، وان غدا لناظره قريب .

ـــ ولكن الليل قد طال يابنى .

ـــ لا ياعم حنفى .. لاتترك لليأس سبيلا على نفسك .. اننا سنملى ارادتنا عليهم جميعا ، وقد فعلنا ذلك شهورا طويلة ، وغدا نصليهم نارا .

وساد صمت ذهبت فيه افكار كل واحد من الجالسين مذهبا منفردا ، ولكن سليمان العائد من معركة والمقبل على معركة اخرى كبيرة بعد ساعات لم يكن يفكر فيما ينتظره .. كان يفتنم هذه اللحظات القصار لينعم بجلسة منزلية قصيرة تاقت نفسه لها طويلا . واغمض عينيه على صورة عميه فى جانب وعم حنفى فى الجانب الآخر ، وهنا تذكر الجانب المؤلم ، « سماح وجلال الدين ! هذان العزيزان .. » أفى الاحياء هما أم فى الاموات ؟ هل يسأل عم حنفى لعله قد وقع على شيء من أخبارهما وشغلته خواطره الحزينة عن الافضاء به ؟ من يدرى ؟ ولكن سليمان تردد طويلا أمام رغبته هذه فلو أن فى الجو شيئا جديدا لطفى على كل الأفكار وأعلن عن نفسه فى قوة .

وهنا رفع سليمان رأسه وقال فى همس يتناسب مع ماكان يدور فى رأسه من أفكار :

ـ سيأتى الغد بأحداث خطيرة .. ارجو أن تكونوا أخذتم أهبتكم .

فسارع عم حنفى قائلا : اننا على استعداد لكل احتمال .

فقال سليمان : لم أعن الدفاع عن البيت فاننا سنقاتل بنظام ولن نترك كل حى يواجه مصيرا منفردا ، ولكن ربما حوصرت المدينة فهل عندكم طعام كاف ؟

فرد العايدى قائلا : لدينا ما يكفى اسبوعين ، وما أظن أن الامر سيطول عن ذلك .

ـ انه دون ذلك بكثير .. نحن واثقون من قوتنا .

ـ الله معكم .. ولن يخذلكم .

وتسلل سليمان فى الظلام عائدا الى مصر القديمة حيث تكمن المدافع فى صحبةالرجال الذين سيعمل معهم ، ولم تمض ساعات من الليل حتى جاءت الانباء ببدء انسحاب الفرنسيين فأخذت الفرقة أهبتها للعمل وقبل أن ترد اليها أوامر الهجوم ، دلت التحركات على أن الامر قد اضطرب بين الفرنسيين والاتراك ، وأنهما اشتبكا فى معركة فى عين شمس وأن ميزان المعركة فى جانب الجيش الفرنسي . ولكن الشيء الذى هش له القاهريون هو انفصال الفرقة الشامية فى الجيش التركى عن معركة عين شمس ومسارعتها الى دخول القاهرة لتقف الى جانب أهلها ضد القوتين المتصارعتين .

فى لحظة الصراع هذه أعلنت المدينة الجهاد الاكبر .

—*—

كانت الحامية الفرنسية الرابضة فى الازبكية وما والاها الى بولاق، تعد اكبر موقع من مواقع الفرنسيين فى القاهرة ، ولم يكد الاتفاق يتم بين الاتراك وكليبر على تبادل المواقع حتى عاد الاختلاف والاضـــطراب ، ونشبت تلك المعركة التى انتصر فيها الفرنســـــيون . كل ذلك وحامية الازبكية وبولاق لاتحرك ساكنا لانها كانت مكلفة بحراسة مقر القيادة وقصر القائد .. ثم تكون آخر من ينسحب .

ولم يكن الحاج البشتيلى زعيم بولاق يعلم بهذا التغير فى الموقف ، ومن ثم فقد ظن أن الفرنسيين منسحبون بين لحظة واخرى ، وأنهم قرروا بيع المصريين للاتراك نهائيا .. فعز على الرجل أن يدعهم ينسحبون دون أن يثأر من أفكارهم الحاقدة .

وعندما قرر الحاج البشتيلى بدء الهجوم قال مشركا جلال الدين فى رايه : الا ترى أن الوقت قد حان ؟

ـــ نعم .. ويجب أن نبدأ .

ـــ قم فاطلق الصيحة .

ـــ اية صيحة ؟

ـــ الله أكبر .. لقد اتفقت مع رجالى على هذا النداء .

فقال جلال الدين متمهلا : ارجو أن نعدل عن مثل هذه الخطة .

ـــ اية خطة ؟

ـــ خطة الهجوم الارتجالى الذى يشعله الحماس وتصيبه الفوضي بالاخفاق . لقد أصابتنا عدوى المجتمع الفرنسي المنحل واولى بنا أن نفيد منهم فيما يفيد ، أن نقاتلهم بسلاحهم .

ـــ الى الآن .. لم افهمك .

ـــ يجب أن نقتبس النظام الفرنسي فى هجومنا .. أن نكون على

تعبئة ، وأن نرسم خطة متماسكة الجوانب تؤدى الى سـقوطهم فى ايدينا . لقد اصطدمنا ببونابرت اكثر من عشر مرات ورأينا كيف يعبىء قواته فى مربعات على جوانبها مدافع .

— ولكن هذا يابنى ليس ابتكارا فرنسيا .. انها الكراديس التى ابتكرها خالد بن الوليد فى حرب الروم .. وانتصر بها فى اليرموك .

— وهل كان لدى ابن الوليد مدافع ؟

— ترى لو كانت لديه .. أين كان يضعها ؟

— على أى حال لا أرى مانعا من اقتباس مبتكرات عدونا اذا كانت نافعة لنا .

فقام البشتيلى الى جلال الدين معانقا وهو يقول : انك تجمـع الى الشجاعة براعة الجدل ، لقد وقعنا على كنز ..

فقال الشاب فى حياء خجول : ان بلادنا هى الكنز الأكبر .

فربت البشتيلى كتفه باعجاب قائلا : فهل تقود الهجوم نيابة عنى ؟

— لا ياسيدى . ان تاريخك فى المعارك معروف ، وأنت تجمع الى فتوة الشباب حكمة الشيوخ .. وبعد وقت قصير من هذا الاجتماع التقى جلال الدين بزعماء الحارات وعرض عليهم خطته ، ونالت موافقـة واستحسانا .

ولم تمض ساعة حتى اندفع نحو خمسين رجلا الى مدخـل المعسكر الفرنسي العام بالازبكية ، واصطنعوا جلبة شديدة أفزعت الجنود فأسرعوا الى أسلحتهم وانطلقوا صوب الرجال المجتمعين ، وفى لحظة خـاطفة انسحبت الطليعة المصرية ليستهدف الفرنسيون للنيران تنطلق عليهم من كل جانب وتحصدهم حصدا .

وقبل أن يفيق الجنود من قسوة المفاجأة كانت الطليعة المنسحبة قد قامت بحركة التفاف بارعة وهاجمت المبنى الرئيسي واغلقت مداخله وبذلك عزلت الموجودين خارجه وحبست من بالداخل .

وقد لاقت الفرقة الموجودة خارج المعسكر مصيرا تعسا اذ أبيدت عن آخرها ، وغنمت أسلحتها . وكان البشتيلى قائد الهجوم يندفع الى ملاقاة الجنود مستعملا سيفه طالبا النزال وكأنه فى ميدان فروسية .

وبعد أن ابيدت الفرقة الفرنسية التى عزلت بعيدا عن معسكرها ، تحول المحاربون الى محاصرة الباقين فى ثكناتهم ، ولكن عددهم كـــــان كبيرا ، والذخائر فى حوزتهم كثيرة ، وقد أمدهم احساسهم بالفناء المنتظر بقوة اليائس وعدم مبالاته .. وبذلك استطاعوا أن يشــــقوا لانفسهم طريقا من خلال النطاق المضروب ، وان اقتضاهم ذلك عشرات الضحايا ، بعد أن تخلوا — فى انسحابهم — عن أمتعتهم وما ثقل من أسلحتهم .

وهناك اندفعت القوة الوطنية الى المعسكر تنظمه ، وتسد مسالكه، وتقيم عليه الحراسة ، وتتزود مما فيه من عتاد . وكان طبيعيا أن تسمع أصوات المعركة فى أنحاء المدينة جميعا ، وأن يصل نبؤها الى مســـامع السيد عمر مكرم الذى اصدر أمره العام باغلاق أبواب المدينة وبداية الثورة ..

وعند ما بلغت هذه الاوامر الحامية المختفية فى مصر القديمة كشفت عن نفسها على الفور ، وأخرجت المدافع من ضريح عمرو بن العاص ، وبعث سليمان بأربعة منها الى حامية حى الحسين ، وبأربعة اخرى الى البشتيلى فى بولاق ، واحتفظ بما تبقى لديه لحراسة طريق الصعيد .

***

قال كليبر وهو ينحدر من عين شمس عائدا الى القاهرة : لقد سمعت النكتة التى شاعت عنى بين الجنود ! فارتبك الجنرال المرافق له ، ولكنه قال : أية نكتة ياسيدى القائد ؟

— انك لا شك تعرفها .. لقد كنت أنا مثل الزوج .. آخـــــر من يعلم .

— اننى لا اتقبل الفكاهة بحرارة .. وربما كان هذا هو السبب فى أننى لم أسمعها مثلك ياسيدى .

— قالوا عنى اننى بومة الجيش ، وان أى قائد فى الدنيا يسمى قائد هجوم ، وأنا احتكر لقب قائد انسحاب !

— قائد انسحاب !

— هذا ماقالوا ، لاننى أشرفت على انسحابهم فى عكا ، ثم أمضيت انسحابهم الكامل فى المعاهدة الغادرة .

— الآن فهمت !

— نعم .. كان يجب أن أخوض معركة ظافرة والا فان هذا الاسم سيلتصق بى أبد الدهر ، وقد أتاح لى الاتراك هذه الفرصة .

— بل الانجليز !

— فى الحق .. انهما معا ، فالانجليز رفضوا مافى المعاهدة وأصروا على أن نسلمهم أنفسنا كأسرى ، وهذا لن يكون ، والاتراك مضوا فى احتلال القاهرة ورفضوا العودة الى بلادهم .

— ويجب أن نضيف نصرا جديدا ياسيدى ، فقد تغير الموقف بالنسبة لنا .

فأشرق وجه كليبر بفرحة النصر وأضاف : هذا أمر سهل .. عندما أعود لمقر قيادتى سترى .

ولم يكد الجنرال ينتهى من كلمته حتى رأى ضابطا يعدو نحوه لاهثا وعلى قسماته تعبير قاس مفزوع ، فانتفض قلبه قلقا وتوجسا حتى صاح بالضابط وهو لما يزل بعيدا :

— ما وراءك ؟

— القاهرة ياسيدى القائد .

— ماذا حدث ؟؟

— احتلت معسكرنا العام فى الازبكية وبولاق وفتكت بأكثر جنوده.

فصرخ كليبر كالوحش : سأقتحمها عليهم وأمزقهم .

فقال الضابط : انها ثورة عامة ياسيدى .. وجميع الابواب مغلقة.. وجنودنا فى العراء .

ونظر كليبر الى الجنرال الواقف الى جواره وهو يقول فى نفسه بأسى ، ولعل ذلك ماكان يجول بخاطر رفيقه أيضا : « هل تصدق تهكمات الجنود وأصير بومة الجيش ، واسمى قائد الانسحاب ؟ كلا .. بأى ثمن يجب أن أقتحم القاهرة . اننى الآن مجبر ، والا .. هل أسلم جنودى لاسر الانجليز ، أو لمدافع الاتراك .. لا مفر » .

وهكذا ضرب الجيش الفرنسي خيامه حول القاهرة مكونا سلسلة ضخمة من نقط الهجوم ، وحاول كليبر أن يقود جنوده فى هجوم عام ولما تزل معنوياتهم مرتفعة من تأثير الانتصار على الاتراك .. ولكن هجمتهم هذه ارتدت عن المدينة كما تتمزق الموجة على صلابة الشاطىء .

كان السيد عمر مكرم يجلس فى صدر القاعة الواسعة على حشية صوفية ، وقد تدثر بعباءة بيضاء ، وقد أحاط به بعض معاونيه فى تنظيم جهات القتال فى المدينة ، وقد رنا الى سقف القاعة مستغرقا فى تفكير عميق .

وقال خادم السيد عمر معلنا قدوم وافد : رسول من حامية بولاق .
فأشار له الشـــــيخ أن يدخله ، وما كاد الفتى يطل حتى هش له الشيخ قائلا : خير ياعطية ..

ـ خير ياسيدى . وابتسم ليطمئن مخاوف الشيخ ، ثم قال : هذه أول معركة نخوضها وليس السيف سيدها .. ولكننا فى رمى القنابل لسنا أقل كفاية منا فى حمل السيف .

قال الشيخ فى وجل : على ذكر القنابل .. كيف حال المصنع ؟

ـ ان المصنع ليس فى دائرة دفاعى ، ولكن ما أعلمه واتيقنه أن أكوام القنابل وراء مدافعنا لا نهاية لها ! وما فسد من بنادقنا يتم اصلاحه فى أقل من ساعة !

فنظر اليه الشيخ فى اغتباط مصحوب بتشكك ، وعاد يحك ذقنه ويقول وعلى فمه ابتسامة جسدتهـــا غضون وجهه : حدثنى بالارقام .. ما عدد قتلانا حتى الآن ؟ .

ـ فى دائرة دفاعى ؟

ـ نعم .

قال عطية فى ارتباك : لا أدرى .. انه على أى حال ليس كثيرا ..

ـ كم على وجه التقريب ؟ .

ـ على وجه التقريب .. تقريبا .. نحو مائتى رجل .. وأكثر من

ذلك قليلا فى النساء والاطفال .. فبدت الدهشة والاسي على وجه الشيخ، فاستدرك عطية قائلا : اننا مسئولون عن كثرة القتلى من النســـــــاء والاطفال .. انهم طول اليوم فى الشوارع يكبرون ويهللون ويحملون الذخائر ويطفئون الحرائق دون أن نطلب منهم ذلك . لقد اختفت غريزة الخوف من هؤلاء الناس .

ـــ وكيف حال متاريسك ؟

ـــ متاريسي راسخة مثل الجبل ، وخاصة بعد أن اضـــطر كليبر لسحب بعض جنوده لينهب الريف حتى يحصل على الطعام لجيشه .

ـــ الا يحتاج الريف لمعاونتنا ؟

ـــ كلا ياسيدى . انهم مشفقون علينا ويتسللون من جنوبى القاهرة لتعضيدنا بالسلاح والطعام . ويناوشون الجيش من الخلف .

فارتعدت اصابع الشيخ فوق حبات المسبحة وقال : كيف تزعم أن متاريسك قوية وانا أسمع تساقط قنابل العدو طول اليوم بلا انقطاع ؟

ـــ انه .. حتى الآن على الاقل ـــ ليس ضربا عنيفا .. لكنهـــم يواصلون الضرب حتى نحرم النوم ، والمحارب اذا لم يأخذ كفايته من الراحة اصيب بالجنون . لكننا أمكر منهم ، فأنا الآن فى راحة وذاهب لانام ، وعند الفجر تبدأ نوبتى ..

فابتسم الشيخ وقال مشجعا : بارك الله فيك يافتى ..

وهنا دخل خادم الشيخ وأسر له فى أذنه حديثا ، ظهرت على اثره علامات الاهتمام على وجهه وتفكر مليا . ثم قال لعطية : اذهب مع هذا الرجل وخذ ما يعطيك ، وحافظ عليه كحياتك .. ثم أوصله لصاحبنا ، واذهب لتنام . وفهم عطية مايراد منه فمضي مسلما .

***

ـــ لقد تمت المعجزة .

قالها كليبر وهو يزفر فى غيظ ، فغض أركان حربه ابصـــــارهم فى انكسار وحيرة دون أن ينبسوا ، فعاد يقول وهو يدق بقبضته على النضد : بسلاحنا يقتلوننا !؟ مدفعيتنا هى التى تطلق علينا .. ونحن هنا نموت فى العراء من الجوع ، ومن برد مارس اللعين .

فرفع أحد الضباط راسه ليقول بهدوء شديد : لقد التقط جنودنا بعض القنابل وثبت أنها صنعت فى القاهرة .

فقال كليبر صارخا : لكنها أطلقت بمدافعنا ، ولو استخلصناها منهم فان قنابلهم تصير أكواما من الحجارة كالتى قاتلوكم بها فى ثورتهم الاولى .

— لا ياسيدى الجنرال ان أحجام القنابل تدل على أنها أطلقت بمدافع أصغر من مدافعنا . لعلها صنعت حاليا بالقاهرة .. أو أنها قديمة وكانت مخبأة هناك .

فقال وهو يهدر : مخبأة .. مخبأة لعنة الله على المشايخ .. قاسمناهم السلطان وكرمناهم بالاوسمة ليخدعونا ! كما زعموا أن القاهرة وديعة ومستسلمة ، فى حين كنا نرقد فوق مخزن من البارود .

فاهتز الضابط فى عنف وكأنه يستيقظ من حلم مفزع : المشايخ !

واشرق وجه كليبر لهذه اللفتة وان قال للضابط : ماذا تعنى ؟

— لماذا لا نحاول الاتصال بهم ؟ انهم كبار السن وقلوبهم خوارة ، ولم يعتادوا النوم تحت طلقات المدافع مثل القائمين بالثورة ..

قال كليبر وكأنه يريد أن يطمئن نفسه : أتثق فى نجاح هذه الخطة ؟

— سترى ياسيدى أن النجاح الذى يحققه هذا العمل لا يتوقع ، سينقادون لمشايخهم بسهولة . انهم يقدسونهم ويعتبرون رأيهم من عند الله .. لايجسر شاب على عصيانهم .

— بقى أن نأخذ أصوات المجلس الحربى .

وهنا قال أحد قادة الفرق : ما آخر مواقف مراد ؟

فعاد الهياج الى كليبر الذى هب صائحا : لاتذكر أمامى ذلك الخنزير القذر . انه قابع هناك فى الجنوب لا يحرك ساكنا . انه ينتظر لمن تكون الغلبة ليقتسم معه الفريسة .

فقال ضابط آخر : انه غبى ، اذ انتصر المصريون فلن تكون هناك فريسة أبدا .

وعاد قائد الفرقة يهدىء الجنرال قائلا : يجب أن نقدر ظروف مراد ، وان نقنع منه بالصمت .

ــ وجنودى الذين يموتون من الجوع .. هل يســـــتحقون منه الصمت ؟ سأرى ! . لنأخذ الآن الموافقة على الاتصال بالمشايخ .

فسأل ضابط : ومن سيتصل بهم ؟

ــ ومن غير المعلم باروخ ؟ . انهم يكرهون اليهود ولكنهم يؤمنون بذكائهم .

وانطلق الجمع قائلا : موافقون .

***

قال البشتيلى وهو يهم بالجلوس ، ويفسح مكانا لجلال الدين ان المعجزة التى تمت توشك أن تعلن افلاسها ! .

فشمله السيد عمر بنظرة قوية ثم عاد الى مسبحته يداعبها وقال : وهذا احد عيوب البطولة !

ــ ما سمعنا أن فى البطولة عيبا !

ــ ليس فى البطولة ذاتها عيب ، ولكن لها رد فعل عنيف يكاد يصيب صاحبها أحيانا بالخور .. الا من عصم الله ..

ــ هل تسمى الصراحة خورا ؟ ان خططنا يجب أن تكون واضحة ، وامكانياتنا معروفة لنا جميعا ، لم تعد مصانع القنابل تجد ما تصبه من الحديد .

فرفع اليه الشيخ عينيه فى اعتذار وقال باسما : حسبتك تتحدث عما يشاع عن نوايا مراد ! فزمجر البشتيلى : القنابل أولا .. انها هى التى سترسم الطريق أمام مراد ، ان المماليك لايخضعون الا لمنطق القوة ، أعطنى حديدا أضمن لك موقف مراد .

وصمت الشيخ عاجزا امام الطلب المحير . من اين له الحديد ؟

وهنا قال جلال الدين : انكم تغفلون أكبر مخزن للحديد فى داخل القاهرة نفسها !

فقال البشتيلى دهشا : وهل أبقينا فى القاهرة على مخازن ؟ خمسة عشر يوما وقنابلنا تتساقط كالمطر .. واستنفدنا فى صنعها كل مايمكن أن يسمى حديدا حتى صنج الموازين جاء بها التجار والباعة عن طيب نفس ، وتوقف كل نشاط فى المدينة .

فقال جلال الدين وهو يركز نظراته على وجه السيد عمر ليرى أثر قوله : ما رايكما فى المساجد !؟ فرد السيد عمر والبشتيلى فى آن واحد بدهشة بالغة : ماذا تعنى ياجلال الدين ؟

— ان المساجد هى اكبر مخازن للحديد !!

ورفع السيد يده واخذ يمشط ذقنه فى قلق وتفكر ، ولكن البشتيلى قال فى عصبية : اتريد ان تنتهك حرمة المساجد ياجلال الدين ؟

— ان حرمة المساجد من حرمتنا ، واذا انتهكت حرمتنا فمتى نعبد الله ، ماقيمة المساجد بدوننا ؟

— انت شاب صغير .. ولا يجوز لك أن تتحدث فى مثل هذه الامور .

فقال جلال الدين فى ثقة ، ولكن فى احترام شديد : لقد ولى ذلك العهد . آن لنا أن ننظر الى الحقائق بشجاعة .. هل تنفعنا المساجد أو ننتفع بها اذا حلت بنا الهزيمة ؟ انظروا الى الامر على ضوء الحوادث .

— وهل يدعوك ضوء الحوادث ان تخرب بيوت الله ؟

— ياسيدى اننى أعمرها .. احميها .. أمزج حديدها بدمى لتصير لهبا على أعدائها . ماقيمتها ان سقطت كما هى فى أيديهم ؟ وما قيمتنا ان سقطت ومفتاح النصر فى أيدينا ؟

— انك تنصر وطنك .. وتهزم دينك !

كظم جلال الدين غيظه ، ولم ييأس من اقناع البشتيلى ، فقال فى هدوء : انت رجل وطنى وشجاع وكريم .. ولكنك لاتريد أن تكون متسامحا .

— نحن لا نتسامح فى الحرام .

كان السيد عمر يستمع الى الحوار العنيف الدائر بين الرجلين فى صمت واستغراق . وبعد لحظة صمت قصيرة قال السيد : ان الله يغضبه أن ننهزم والا يطمئن المؤمنون .. ليس الدين مساجد تبنى ولكنه عقيدة ويقين ، والله لا ينظر الى صورنا ولكن الى اعمالنا .. انزع من حديد المساجد ماتشاء ياجلال الدين ولكن لا تسرف ولا تهدم ، والله يسدد خطاك .

وانتظر السيد أن ينهض الرجلان ، ولكن البشتيلى قال : مازال هناك أمر يزعج الناس .

ـــ خير ان شاء الله

ـــ الطعام !

ـــ أيجود الناس بأرواحهم ويجزعون من أجل الطعام !؟

ـــ ان أرواحهم ملك ايمانهم يبذلونها متى دفعتهم حميتهم لذلك ، ولكن الطعام للطفل والرضيع ..

ـــ هل يتمردون على الارز والعسل !؟

ـــ كلا .. ولكن تحول موقف مراد يقطع عنا ورود العســـل من الصعيد .

ـــ ان مرادا لن يتحول . لقد وعد بذلك ، وذهبت بالامس فقابلته فى السر ، وأعلن لى أنه لم يلزم موقفه الا ليحرس طريق الصعيد ويسهل لنا مرور المؤن .

ـــ كذاب !! أنا أعرفه .

ـــ وأنا أيضا أعرفه ! انه مملوك وهذا يكفى . ولكن ماذا نفعل ؟ وقد علمت من مصدر سرى أن قطيعا من الماشية فى طريقه الينا مساهمة من أهل الصعيد ، وهأنذا ادعو الله الا يتحول مراد عن موقفه حتى يأتى القطيع . أن المدينة تختنق من البقاء على الارز والعســـل ليس غير . وصمت الشيخ قليلا ثم اتجه الى جلال الدين قائلا : أنت شاب .. وأقوى منا احتمالا ، والراية فى يدك .. والمستقبل لك ، والنصر بيد الله يعطيه من هم أكثر صمودا ، فانزع عن نفسك التردد وتقدم رجالك ، وبدد من أنفسهم سحب اليأس وكذب الشائعات واستق معلوماتك منى .. فاننى لن أخدعك .

قال جلال الدين وهو لا يملك نفسه من التأثر : معاذ الله ياسيدى .

وعندما سلم مودعا رأى على وجنة الشيخ دمعة حائرة .

—*—

وقف السيد عمر خلف احد المتاريس واخذ يتحدث مع الحراس ، في مطلع شمس ذلك اليوم من شهر ابريل ، وكان واضحا أن ثياب الحراس مهلهلة وأجزاء كثيرة من أجسادهم عارية .

قال السيد بأسى واعتزاز : اننى لا اعرف ماذا اقول لهؤلاء الرجال غير انى اربط مصيرى بمصيرهم . فرحب به جلال الدين واخذ يطوف به بين المدافعين .

وهنا اقبل شيخان من كبار المشايخ يحوطهما بعض المدافعين المسلحين ويفسحون لهما الطريق ويحوطونهما من ضغط التزاحم خلف المتاريس ، وما أن رآهما السيد عمر حتى قابلهما مرحبا مصافحا وهو يقول هاشا : خطوة عزيزة ياسادة .

— اعز الله نصركم .

— أهلا وسهلا .. نالنا الشرف الكبير .

قالها وهو يجول بعينيه بين الشيخين لعله يعثر فى وجه أحدهما على مادعاه للخروج من العزلة بعد الانطواء الطويل . وقال أحدهما معقبا :

— ان الشرف أن تصان الحرمات فتعود النساء الى خدورها ، وتعود الصلوات الى المساجد العامرة ، وينصرف الناس الى أرزاقهم .

قال السيد عمر وقد بدا يرتاب : وهل أردنا فى جهادنا غير وجه الله وعزة الوطن !؟

— ولكن الثمن غال والنتيجة غير مضمونة .. وقد رأيت ما نال حياة الناس من اضرار وعسر وتبدل ، النساء تملأ الطريق وتزحم الرجال بالمناكب ، والاطفال يهيمون على وجوههم فى الطرقات بلا رعاية ، والاعمال عطلت وحياة الناس فى خطر ، والمدينة تكاد تتقوض تحت قنابل كليبر وتخر من وطأة الجوع !

قال السيد عمر دهشا : ماهذا الذى تقوله ياشيخ خليل ! أتسمع ياشرقاوى ؟ أتسمع ياشرقاوى !؟ اننى لا أصدق . ليس من السهل أن يخرج هذا الكلام المثبط من فم شيخ السادة البكرية .

فقاطعه الشـــيخ خليل قائلا : ليس تثبيطا ولكنه نظرة واقعية للأمور .

— أى واقعية تلك التى تدعو باسمها عباد الله ليتجرعوا الذلة والهوان ؟ والعيش فى ظل الخنوع والفجور !؟ أفصح عن نفسك فوالله ان فى الامر لسرا .

فتريث الشيخ خليل قليلا ثم قال فى لهجة هادئة : ياعمر أفندى أنت سيد العارفين . ان المدينة لاتقوى على الدفاع طويلا ، وبعـــد أسبوع واحد من الحصار لم تجد من الطعام سوى الارز والعســـل الاسود . وغدا لن تجد !

فقاطعه السيد عمر صارخا : اننى لا أريد ان أسمع منك ما أعرفه ، حدثنى عما لا أعرف .. أم هى مؤامرة أردتم بها الانقسام ؟!

فتمالك الشيخ خليل نفسه وقال فى هدوء مصطنع : معاذ الله ياسيد عمر أن نسعى للفرقة بين ابنائنا واخواتنا ، ولكن كليبر بعث ..

— نعم .. حدثنى عن كليبر !

فعاد الشيخ يقول متغاضيا عن المقاطعة : كليبر بعث الينا من يعرض عليكم الصلح .

فقال السيد عمر ضاحكا وقد تكشف له الطريق : الصلح .. نعم ، وهل يأبى الصلح الا سفاك دماء ! ولكن شروط الصلح ! هذا هو مربط الفرس .

— شروط الصلح تستطيع أن تعرفها من القاء نظرة على الموقف الحربى داخل القاهرة وخارجها .

— اننى لا يعنينى الا موقف ابنائى داخل القاهرة .. وهذا ما أطمئن اليه .

— أريد أن أقول ان كليبر فى موقف حرج ، انه لا يستطيع أن يعود الى بلاده ، ولكنه — كما تعلم — يملك القوة التى يعود بها الى القاهرة الى أن تنقشع الغيوم ويعود الى وطنه .. ولكنه لايريد أن يفعل ذلك بطريق القوة فيصيب العباد بالخراب والدمار .

وهنا هتف جلال الدين وقد انفجر غيظا : يالقلبه الرحيم !! هـل جئت تساومنا على شرفنا ياخليل ؟ كانت هذه هى المرة الاولى التى يسمع الشيخ خليل البكرى اسمه مجردا من القاب السيادة والاكبار . ولقد ذهل الشيخ وارتاع لها وكأنه جرد من ثيابه . واستكبر السيد عمر هذا الامر الذى لم تسمعه اذنه قبل اليوم ، ولذلك فانه رمق جلال الدين بنظرة هى مزيج من الدهشة والخوف والانكار .. ولكن جلال الدين فى انفعاله الثائر لم يعبأ بما يرى .

واظلت الجمع لحظة صمت .. طالت .. تدبر فيها كـل متحدث موقفه ، وأخيرا رفع الشيخ خليل راسه قائلا فى ثورة مكبوتة : الا تعرف نسبى يافتى ؟ أم تراك تهزأ بشيخوختى !؟

فقال جلال الدين وقسماته جامدة لا تعبر عن شيء : اننى لا أهزأ بنسبك ، ولكن الاحفاد هم الذين يسخرون بالاجداد حين يخـــونون مبادئهم .

فقال الشيخ محتدا مزمجرا : اتتهمنى بالخيانة ياغلام ؟

فقابل جلال الدين تهجمه صائحا : لست غلاما .. اننى فتى رشيد يحمل السلاح ويسهر الليل ، لم الجأ الى جحور الارانب لاخرج منهـا داعية هزيمة ، واذا لم تعتبر قولك من الخيانة فتوجه به الى المدافعين خلف المتاريس واسمع رأيهم .

— انما الرأى .. رأى السيد عمر .

— لاتحاول الدس واشاعة الفرقة المقيتة بعقليتك المتأخرة .. اننا نحترم السيد عمر ، ولكننا الذين أقاموه قائدا عليهم . الشعب هو الذى يتحمل كل المغارم الآن ، فهو صاحب الرأى فى مصيره . بلغ الغضـب بالشيخ خليل مداه ، وفقد السيطرة على نفسه ، ومضي فى التحدى الى الغاية آملا أن يستجيب له من تلوح عليهم مظاهر الجوع والفقر والانهاك، فاتجه بحديثه الى بعض التابعين فى انتظار نوبة حراستهم قائلا : هل تسمون النصيحة خيانة ؟ انكم ان دافعتم اليوم فستعجزون غدا، وخير لكم أن يدخلها كليبر مصالحا ثم يمضي بعد أيام الى وطنه ، من أن يدخلها منتصرا يدوسكم بسنابك خيله ويفرض عليكم الغرامات .

وفى لمحة خاطفة انساب شاب حديث السن من بين الواقفين واندفع الى موقف الشيخ خليل ، ورفع سيفه فحمل عمامة الشيخ والقى بها على الارض دون أن يتكلم .

ارتاع الشيخ خليل — وكل الواقفين — لما حدث ، والجم لسانه فلم يستطع ان يقول شيئا ، ولكنه اخذ ينقل عينيه بين الواقفين وكأنه غريق يلقى على الشاطىء النظرة الاخيرة ..

وقال الفتى الذى حمل العمامة متحديا : لو عدت الى هنا مرة اخرى فلن يكتفى سيفى برفع عمامتك وانما سيريحك من حمل رأسك .

فقال الشيخ فى جزع : انك لا تتقى الله .. وسترى عاقبة عملك .

— اننى لا اتقى اى خائن .. ولا اخشي الا غضب الله الذى جندت سيفى فى سبيله .

***

ظلت سماح فى سجنها مع رفيقاتها عدة اشهر ، وكان السجن قريبا من ثكنات الجنود فى بولاق ، وبذلك صار تعذيبهن والسخرية بهن تسلية محببة لطلاب اللهو الوحشي من الجنود ، وقد عذبن طويلا بلا رحمة .

واخيرا عقدت لهن محاكمة عسكرية ، وجه اليهن القاضي تهمة اغتيال الجنود والضباط ، واصدر حكمه المنتظر عليهن بالموت بالطريقة نفسها وفى المكان الذى وجدت به جثث الجنود .

وفى الايام الباقية لهن على قيد الحياة ، حين فقدن الامل فى النجاة ، انهمكت الشابات الاربع فى صلوات طويلة كثيرة الضراعة والمغفرة ..

وقبل الموعد المحدد لانفاذ حكم الموت ببضعة أيام فتح باب السجن ، ودخل رجل من بنى وطنهن حسبته الشابات جاسوسا جاء لاغرائهن بالحديث واكتشاف سرهن ، ولم يضيع الرجل وقتا اذ حطم سلاسلهن وقال : لقد تم قتل الحراس .. هيا معى .

وتبعنه فى استسلام واعياء ، فمكث بهن فى بعض الدور قليلا حتى اتى رجل آخر فهمس له ببضع كلمات وختمها قائلا : سيكن عند صاحبنا حتى ينجلى الموقف ثم نرى .

وقادهن الرجل بين الحوارى والشوارع المزدحمة بالمدافعين والتى تناثرت فيها الجثث ووضحت آثار الحرائق بفعل القنابل ، حتى بلغن مداخل الغورية ، فالتقت نظراتهن بمنزلهن .. وقد تبدل حاله اذ تحطمت واجهته ، وانهارت شرفاته ، وبدا أثر معركة قريبة واضحا على نوافذه

وأبوابه ، فخفقت قلوبهن وان ارتبطت به أقصي الذكريات . من يدرى ماذا يحمل المستقبل !؟

ومضي بهن الرجل فى شارع الغورية قليلا ثم دخل بهن زقـــــاقا صغيرا ، وطرق أول باب فيه ، وسريعا ما انفتح واطل منه رجل عجوز قاسي الملامح ، خاطبه مرافقهن قائلا :

ــ افتح باب الحريم .

ثم ودعهن الرجل قائلا : أنا اسمى عطية .. اذا احتاجت احداكن لشيء من خارج البيت فاتصلن بى ، واحمدن الله كثيرا على سلامتكن ، وهذا منزل الشيخ السويسي .. رجل من المجاهدين .. وستبقين مع زوجته وأولاده الى أن يعود الامان الى البلاد فتنفذ رغباتكن ان شـــاء الله .

***

ومضت أيامهن فى بيت السويسي فى ضـــيافة كريمة مع زوجته وبناته .. وكن هدفا لاستطلاع الجارات من النساء اللاتى كن يتوسلن بمختلف الحيل لمشاهدة الفتيات اللاتى قتلن الفرنسيين ، وحكم عليهن بالموت .. ونجون منه دون قصد ، وأصبحن يتابعن أخبار الحـــرب من جديد .

***

وفى ليلة حالكة السواد ، دخل الحارس الى خيمة شاهين أغا فى معسكر مراد الجاثم جنوبى القاهرة ، معلنا أن أمراة مهلهلة الثياب تصر على مقابلته .

فقال الأغا دهشا : امراة !! تقتحم المعسكر فى تلك الســـاعة !! ماذا تريد ؟

ولمعت فى عينى الشيخ .. تلك العينان الناريتان بلا أهداب ، معانى الخوف والرغبة .

وقال الحارس : لقد أتى بها الحراس وحسبوها قارئة كف أو ضاربة رمل ، ولكنها تصر على المقابلة .

ــ أدخلها .

وبعد لحظات دخلت السيدة تتعثر فى أسمالها وسلمت فى صوت

خفيض راعش ، ورد شاهين أغا تحيتها فى جفاء قائلا : هل استطيع أن أعرف سبب قدومك ؟

ـ نعم .. اننى رسول سماح اليك .. هل نسيت (سماح) ؟

وهل ينسي شاهين أغا (سماح) !!

ـ لقد حملتنى رسالة اليك ..

ـ الى أنا ! وزوجها ؟

ـ نعم .. لقد قتل زوجها فى حوادث الحملة منذ زمن طويل ، وهى تذكرك دائما وفى حاجة الى حمايتك .

فقال فى تشكك : وماذا تريد منى ؟

ـ انها تريدك أنت !

ـ أنا !

ـ نعم .. ولكنها تعلق ذلك على شرط واحد .

—*—

قال شاهين اغا وهو يتمعن وجه التى تحدثه : ما هذا الشرط ؟

قالت الفتاة بحزم : الا تنضم الى مراد اذا قرر ان يناصر كليبر !

ـــ الا استطيع الآن ان اعرف أين تقيم سماح ؟

ـــ فى استطاعتك ان تعرف اذا وافقت على هذا الشرط ونفذته .

فقال على مهل : نفكر فى ذلك حتى الصباح . اما الليلة .. فأنت ضيفتى ..

فارتعد قلبها ، ولكنها تمالكت نفسها سريعا .. وبادرها الشيخ قائلا فى تظرف : لم أعرف اسمك

ـــ اننى سأنصرف الآن .. لا استطيع البقاء فى معسكر جنودك ..

ونهضت فاعترض الشيخ سبيلها قائلا : اننى لم أعرف اسمك !

ـــ انه لن يجديك شيئا .. ويجب أن أنصرف .

فقال الشيخ مزمجرا فى لهجة قاطعة : لن تنصرفى الا برد نهائى .. والرد فى الصباح .. ثم لانت قسماته وقال فى تودد : اما الليلة فأنت ضيفتى .

قالت وقد بدأت تخاف : اننى أعتذر عن هذه الضيافة .

ولكن الشيخ لم يسمع اعتراضها اذ ناداه بعض الفرسان ، ووقف يتحدث معهم على باب خيمته الكبيرة .

وهنا ظهر لدرية موقفها المر بعد ان ذهبت فورة الحماس . لم يعد أمامها الا ما تستهدف له من خطر يتهددها ، لقد استمعت جيدا لما يشاع حول موقف المماليك من ثورة القاهرة ، ففرت من منزل السويسي خفية ، وحسبت أن مغامرتها لن تدوم اكثر من ساعات ، وظنت انها تستطيع أن تغرى ذلك الرهيب الذى أحرق بلدها بلبيس منذ سنوات ، وحطم أسرة سماح فى المنصورة ، ظنت انها تستطيع أن توقظ فيه رغباته الكامنة حين

تمنيه بلقاء سماح وأن تقع الفرقة بذلك بين المماليك .. لكن .. بعد ان قابل حديثها باستهتار وتطلع اليها هى . هل تستطيع ان تدافع عن نفسها !؟

عاد شاهين اغا الى الخيمة ، وحاول ان يبدو لطيفا وهو يقول لها : انزعى عنك ثيابك الممزقة ليبدو جمالك الخبىء .

— لقد تأخرت ويجب ان انصرف .

— لكنك ضيفتى .. وفراشي فى انتظارك .

قالت مرتاعة : اننى لست زوجتك .. فكيف تحدثنى فى هذا الامر ؟

فقال ساخرا : دعى عنك هذا فانت جارية مصرية وليس لك ان تتحدثى عن زواجى .

— لست جارية لاحد .. ولا تطمع فيما لارجاء فيه .

قالت ذلك وهمت بالسير نحو باب الخيمة ، ولكن الأغا كان اسرع منها اذ أمسك بسوط كان معلقا فوق جدران الخيمة واعترض طريقها قائلا فى وحشية : كلمتك الأخيرة .

قالت بانفعال : لقد جئت من أجل غرض .. لا اتجاوزه .

— اترين ماينتظرك ؟

— لا فائدة !

وهنا رفع الاغا سوطه وهوى به على رجليها فصرخت فى رعب. ولكنها وضعت كفيها على فمها لتكتم الصرخات .. لقد وطنت نفسها على قبول اى شيء حتى الموت .. وبعد بضع سياط لم تعد تحس بشيء .

***

فى الصباح افاقت درية من اغمائها ، فوجدت نفسها موسدة فوق حشية فى جانب الخيمة الواسعة ، وسمعت حركة شديدة تتجاوب أصداؤها بين جوانب المعسكر الواسع ، فتذكرت ماحل بها ، ففكرت قائلة : لقد وقعت بين براثن هذا الوغد ، ولم اكن اعطى هذا الاحتمال اهتماما لكنه الذى تحقق ولا سبيل الا ان اقوده باللين ، عسى ان أخدم الغرض الذى من أجله غامرت .. أو اهرب .

وبعد ان اغمى عليها قال الأغا فى نفسه : تحسب هذه الحمقاء أنها تستطيع ان تملى ارادتها على .. لقد طال حرمانى ، وقـــد أتت فى موعدها .

وعلى اثر ذلك جاءته دعوة عاجلة من مراد الذى كان ملتزما خيمته لمرضه ، وما كاد يراه حتى حاول أن ينهض من فراشه فى اعياء وقـــال بصوت خافت : كأنى بك يا شاهين بك خارج من معركة .. ان سحنتك مقلوبة .

ــ اذا لم نكن خضنا المعركة بالسلاح فانى اخوضها طول اليوم فى فكرى ..

فنظر اليه مراد فى حـــيرة ، قائلا : ان كليبر سينتصر .. ويجب ان ينتصر .

فقال الأغا وهو يفكر فى شيء آخر : اخشي ألا ينتصر كليبر ، وأرى ان تنضم انت اليه ، وأنضم انا الى المصريين حتى نحتفظ بخط الرجعة .

قال مراد فى شيء من الغضب : لقد قلت يجب أن ينتصر كليبر ، ان الانتصار عليه انتصار علينا ، وقد بدات اتخذ الخطوات لذلك .. لقد احتجزت ثلاثة آلاف رأس من الماشية أتت من الصعيد للثوار .

فقال الأغا : هذا حقنا قد وصلنا ! نحن حكام الصعيد بمقتضي اتفاقنا مع كليبر .

ــ انت لاتفكر الا فى نفســك ! انى افكر فى اهـــداء الماشية لكليبر .

ــ نعم مافكرت .. ان هذا يضمن لنا حقنا فى حال اقامتهم .

ــ ويضمنون رفاهيتنا اذا رحلوا .

***

لم تكد أنباء تحول المماليك عن موقفهم واستيلائهم على الماشـــية تسرى بين المقاتلين حتى ازدادوا قوة وضراوة فى القتال ، لانهم أيقنوا أن المدينة ستموت جوعا ان طال أمد الحصار مع تحول موقف المماليك ، ومن ثم فقد صمموا على انتزاع النصر فى أسرع وقت ممكن .

وبعد ايام ثلاثة تحولت المدينة من الدفاع الى الهجوم ، وصـــارت تفتح أبوابها بين حين وآخر لتنطلق منها فرق القناصة فتخطف من تجده

هنا أو هناك ، وتشعل النار فيما تصل اليه فى تسللها من الخيام او العتاد .

وفى اليوم الرابع — وكان ابريل اوشك ان ينتصف ، وقد مضى على الحصار خمسة وعشرون يوما — حدث مالم يكن فى حساب أى من الفريقين ..

لقد أمطرت السماء كما لم تمطر فوق القاهرة من قبل ، وظلت فوهات القرب التى تتدفق من فوقها مفتوحة طول الليل . وكانت تلك الليلة مظلمة رهيبة ، فاذ ارعد رعدها ولمع فى افقها البرق زادها رهبة ووحشة .

فى تلك الليلة ، وتحت سيل المطر ، اجتمع كليبر بهيئة أركان حربه وقال : هذا وقتنا الذى ترقبناه طويلا .. انهم لم يتعودوا القتال فى الجو الموحل ، وهو جونا المفضل .

فى تلك الليلة كان الثوار قد نال منهم البرد الذى تحالف مع الجوع والاجهاد الطويل ، وظنوا فى أثناء سقوط المطر ان عدوهم لائذ مثلهم بما يحميه من شر الأوحال والصواعق . ولكنهم فوجئوا من خلال الظلمة القاتمة بأشباح ينشق عنها الظلام تقفز فوق الاستحكامات وتطلق النار حول المتاريس ، ومن أجل الاحتماء بها ، دارت معركة رهيبة .

وفى تلك المجزرة تناسي الجنود والثوار كل قواعد الحروب أو تخطيطات المعارك فاستعملوا كل سلاح ، حتى كان الجندى منهم فىحلكة الليل يصيب من يقابله فلا يدرى مانوع ضحيته .

وفى ظلمة الليل ، وفى أثناء الاشتباك الرهيب ، زحف بعضهم متسللا الى الدور القريبة واشعل فيها النيران . ولم ينصرف الرجال عن المعركة لمقاومة الحرائق ، وظلت نار المعركة مشتعلة تفور منها الدماء ، والنار الاخرى تلتهم مساكن الحى ولا تجد من يوقفها ، وتدمر فى زحفها كل ما تصادف من أمتعة أو أطفال أو جرحى تحت العلاج .

ولم تلن قسوة القتال بل ازدادت التهابا مع انتشار ضوء الصباح ، واستطاعت المدفعية المصرية ان ترى اهدافها فانطلقت تهدر فوق رءوس العدو فتحطم صفوفه الزاحفة ولكن المشاة..أولئك الجياع .. لم يصمدوا طويلا أمام تدفق جيش أكل ثلاثة آلاف رأس من الماشية ! وبدءوا يتخلون عن مراكزهم فى بطء تاركين على كل شبر مئات الضحايا .

ظلت معركة بولاق دائرة ثلاثة أيام كاملة .. السلاح الابيض غدا

احمر يقطر دما ، والمدافع تجرى فوق ركام من الجثث ، والنار تأكل البيوت والقصور دون ان يعترض سبيلها أحد ، وجثث القتلى على جانبى الطريق وحول الاستحكامات المنهارة ، انتشر العفن بفعل الرطوبة والاوحال .. وصارت رائحة الجو لا تطاق .

ودار كليبر حول القاهرة وفطن الى ما تجمع خلال مسارب جبل المقطم — المشرف عليها من عل — من مياه الامطار والسيول ، وحينئذ أمر رجاله بازالة السدود التى اقامها القاهريون لحماية مدينتهم من غائلة السيول .

وفى هداة الليل ، والظلام الضارب يغمر كل شيء ، انحدرت المياه فى قوة عارمة وسرعة مذهلة لتكتسح استحكامات حى الازهر وما حــول تلك الاستحكامات من اسلحة واقوات للجنود ، وتدهم البيوت ، وتجعــل التحرك فى الشوارع أمرا عسيرا .

واشتبك القطاع الثانى مع الفرنسيين فى قتال مرير .

واستطاع الفرنسيون أن يشقوا لهم طريقا بين بولاق والازهر ، وبذلك فصلوا بين الجناحين ومنعوا انتقال الجنود والاقــوات بينهما ، واصبحت مصر القديمة هدفا اخيرا للفرنسيين .

ونظر سليمان العايدى الى موقفه ومسئوليته الخاصة تجاه المدافع فعقد مجلسا حربيا ، بدا فيه تصميم الرجال على الدفاع مهما كــان الثمن .

فقال سليمان : ان الثمن هو فناؤنا .

فقالوا : انه الثمن الذى دفعه اخواننا .. ولا نرضي غيره .

قال سليمان : اننا لن نستطيع أن نحرز نصرا ، ولن نقتل من العدو عددا ذا قيمة .

فقال احدهم : اننا نخون العهد اذا لم نخض المعركة .

فقال سليمان : بل اننا نخون العهد اذا لم نأخذ بثأر قتلانا الآن أو غدا ..

فقال الرجال : هل تنصحنا بأن نتفرق مثل الحريم ؟

— ليس مثل الحريم !! تفرقوا لتعودوا اكثر قوة وثقة بالنصر وبذلك نتفادى ضياع المدافع التى حصلنا عليها بشق الأنفس .. يجب أن نحتفظ بها لساعة جديدة تشرق بالامل .

فقال الرجال فى ثقة وعاطفة جياشة : اننا نقبل أن تختفى المدافع ، ولكن دعنا نواجه عدونا يدا بيد .. لقد طال شوقنا .

قال سليمان وهو يتوقد حماسا:اتركوا حراسة خلفية ، وامنوا طريق النيل حتى لا يأخذه عليكم المماليك .. وهيا .. فوالله ان ثأرى مضاعف .

***

لم يطل أمد القتال بعد ذلك فقد صارت المدينة تحت وطأة الحرائق ركاما ، ونفقت فيها الحيوانات من الجـــوع ، وامتلأت الشوارع بجثث الحيوانات والبشر ، والروائح الكريهة تتصاعد منها ومنظرها البشـــع يملأ القلوب بالانقباض والتقزز .

***

فى آخر أيام المعركة قال السيد عمر لجلال الدين وهو يستطلع مدى احتماله : هل هزمنا وانتهى الامر ؟

فقال جلال الدين فى اصرار : على العكس .. انه النصر ! مدينة وحيدة صمدت شهرا وثلاثة أيام ، وتركيا لم تصمد يوما ، والمماليك لم يصمدوا ساعة من نهار !

فقال الشيخ باسما فى أسي : اننى لا أســـتطيع البقـــاء . ان شيخوختى لا تحتمل لحظات الانكسار وقد ولى الصـــحاب الى الحياة الاخرى .. مات البشتيلى شهيدا وفيك كل الامل .. أنا عـــائد الى الشام .

— وأنا باق هنا .. وبعد الشدة الفرج .

ان أروع ما فى الانسان أن يستطيع دائما أن يبدأ من جديد.. تذكر ذلك ياجلال .

وتذكر جلال الدين فى الوقت المناسب أن صديقه عطية الدمنهورى كان يلبس ثياب الدراويش فقال فى نفسه : أين هو الآن .. من أهـــل الدنيا أو الآخرة ! ما أجمل حكمته : البحر واحد لكن السمك الوان !! ان ثياب الدراويش تنفعنى الآن .

ولبس جلال الدين ثياب الدراويش وجلس أمام مسجد السيدة زينب يتمتم وفى عنقه مسبحة طويلة وعيناه النافذتان تتصفحان الوجوه العابرة فى الطريق .

لم تكد جنود العـدو تقتحم القـاهرة ، وتجوس خلالها ، وتملأ الحانات — التى كانت أغلقت — بالعربدة والصياح ، حتى استسلمت المدينة لصمت عجيب وكأن الامر لا يعنيها .. كأنه يجرى فى عـالم آخر .

وكان الجنود فرحين بالنصر الذى واتتهم به ظروف الطقس وبانتهاء الخلاف بصفة قاطعة — بينهم وبين مراد ، الذى وقع مع كليبر — والقاهرة تحترق — معاهدة الصلح والتحالف . ولم تمض أيام على دخولهم حتى انطلق الجنود يستأجرون الحمير أو يغتصبونها وينطلقون بها فى شوارع المدينة أو يقصدون الاماكن الاثرية التى تحيط بها .

وقد عاد باروخ الى حانته فى حى الحسين ، واعاد اليها زينتهـا وقواريرها .

وكان سليمان العايدى قد خلع سلاحه فيمن خلع ، وواراه فى ارض غرفته للحظة حاسمة ، وتظاهر بالعودة الى حياته العادية .. فكـان يضع الاريكة كل يوم أمام باب البيت ويفتح كتابا من كتب الفقه أو التفسير ويسلط عينيه عليه ولكن فكره كان دائما يجرى وراء المصير المجهول الذى شاق اليه بلده ، وكان يلحظ الاثر السيء العنيف الذى تركته الهزيمة فى نفوس مواطنيه فيهتف فى أعماقه : لابد من عمل !!

وما يكاد ينتهى من حديث المصير المجهول لوطنه حتى يتذكر مصيرا مجهولا آخر مايزال يبتلع أخته الحبيبة وابن عمه ! « ترى بعد هذه الاحداث الجسام التى أتت على كل شيء .. هل يعقل ان يظلا على قيد الحياة ؟ وما وجه حياتهما الآن ؟ . كم أتوق الى رؤية وجهك ياسماح » ..

***

ماكاد كليبر يفض غلاف رسالة سرية حملها اليه ياوره حتى صرخ مهتاجا : اين ضباط الأمن ؟ هل ابتلعتهم جهنم ؟

وفى أقل من ساعة اجتمع ضباط الأمن وصرخ فيهم الجنرال : ماهذا الذى حدث ؟ . ولم يستطع أحد النطق . ولما عاد يردد السؤال صارخا ، قال أحد الضباط :

— ربما كان ذلك بفعل السكارى ياسيدى الجنرال .

فقال متنمرا فى هياج : السكارى ! السكارى يمزقون وجهه حتى تختفى معالمه ؟ .

فقال الضابط : ربما قتله جنودنا .

— ولماذا يقتله جنودنا ؟

— ربما بسبب ثمن مشروبات مثلا !!

— هل يصدق احدكم ذلك ؟ انه لم يفتح حانته الا منذ يومين .

وعاد يصرخ : ان شوارع هذه المدينة التعسة لم تخل من جثث القتلى الا امس .. واليوم تصبحنا جثة باروخ .

فقال الضابط مهونا : انه على اى حال يهودى قذر .. قد استنفدنا غرضنا منه .

فعاد الجنرال يهدد : يهودى قذر لا غرض لنا فيه ، لكنه قتل بفعل المصريين ولهذا دلالته .. انه أول من تعاون معنا من غير الفرنسيين ، وقتله تهديد لكل من يتعاون مثله ، ودليل على تكوين عصابات للمقاومة والاغتيال .

فقال الضابط : يجب ان نقوم بحركة تفتيش شاملة لنعثر على نواة المقاومة .

فقال كليبر : ليس الآن .. ان بيوت المصريين مملوءة بالاوبئة والعفونة وانا أخشي على الجنود ، وهذا أمرى اصدره لكم : لايسير الجنود بلا سلاح حتى فى أوقات النزهة ولا يسير جندى منفردا .

ومع ذلك ظلت البلاغات تصدر حاملة أسماء جنود مفقودين .. كل يوم تقريبا .

وكان سليمان يستمع الى هذه الاخبار فى ارتياح شديد ويتوثب للالتقاء بمنظمى المقاومة ليضع نفسه تحت تصرفهم .. الى أن كان يوم .

كان جالسا كعادته أمام البيت يقرأ كتابا ، وكانت الشمس قد

غابت منذ قليل ، وأصبحت القراءة غير ممكنة ، فطوى كتابه استعدادا للقيام ، ولكنه فوجىء بعمه يقبل مستندا الى ذراع عم حنفى ، وارتاع سليمان لما يرى ، ولكن عم حنفى أشار اليه محذرا أن تصدر منه اية اشارة . وما كاد باب البيت يواريهم حتى سارع الرجلان فحملا العايدى على أيديهما الى الدور العلوى . وعند ما اضجعاه على سريره بدت طعنة فى جنبه الايسر والدم يسيل منها على ثيابه . وكان كم الثوب الذى يرتديه عم حنفى ممزقا من الكتف وتبدو منه طعنة صـــــغيرة تجمد عليها الدم .

لم يستطع سليمان أن يفهم شيئا مما يرى ، وشغله عن السؤال ما يعانيه عمه من آلام تعجزه عن التأوه . وســـــارعت عمته وهى تكتم شهقاتها الى احضار الماء الساخن لغسل الجرح ، واغلاق النوافذ لتدفئة المكان . وكانت قسمات العايدى منقبضة حادة ، ودلائل الالم المبرح واضحة فى عينيه الجامدتين . وفى لحظة اخيرة .. قرأ آية من القرآن ، ثم قال بصوت متحشرج : لاتنس جلال الدين وسماح .. لا تنس عمتك .. انها أمك الثانية . وأسلم الروح .

وحكى عم حنفى ماحدث ، وقال من بين دموعه وشهقاته : انا وعمك اللذان قتلا باروخ آخر الليل وهو منصرف من الخمارة ، واتفقنا مع الحمارين أن يؤجروا حميرهم للجنود ويستدرجوهم لمشاهدة الآثار البعيدة وهناك كنا نغتالهم .. واليوم كنا نتبع جنديا الى مصر القديمة ولكنه نزل من فوق الحمار ليعترض طريق سيدة ، فلم نطق صبرا واشتبكنا معه ، وكان مسلحا بخنجر فضربنا ، وهربت السيدة مذعورة .

وانصرف عم حنفى ليحضر الاكفان . ولم يكد يخرج حتى دهـــم الجنود بيت العايدى ، وقال رئيسهم : لقد شاهد رجالنـــا جريحا يدخل هذا البيت .

وتقدم فرأى الجثة المسجاة ، ورفع الغطاء فرأى الجراح والدم . ودون مناقشة القى القبض على سليمان العايدى ووضع فى السجن .

***

قال المحقق لسليمان : انت متهم مع آخرين باغتيال الجنود .

ــ أنا لم أقتل .. هذا عمل قد يكون ارتكبه عمى رحمه الله دون علم منى .

ــ ليس من المعقول أن يتم هذا العمل العنيف دون اشتراكك ،

وقد قال الجندى الذى وقع عليه الاعتداء ان مهاجميه كانا اثنين وقد تعرف على جثة عمك .. وعليك .

ـ انه يكذب ولا دليل على جرمى .. فقد كنت فى البيت حين قدم عمى من الخارج .. فحاكموا الاموات ان شئتم .

وهنا تقدم شيخ من آخر قاعة المحاكمة ، ووضع يده على عاتق سليمان وقال : دع لى ذنبه ياسيدى المحقق ، انه كما ترى هزيل لايقدر على الوقوف .

ـ ولكنه قاتل !

ـ ان عمه الذى قتل .. وهو برىء بضمانتى .

ـ سنرفع رغبتك الى الجنرال وهو صاحب الراى النهائى .

كان سليمان مأخوذا بالمفاجأة التى لم يكن يتوقعها من وجود شاهين اغا فى القاعة .. ولذلك فانه لم يتدخل فى الحديث بينه وبين الضابط المحقق .

وانتحى الاغا بسليمان جانبا وسأله : هل تعرفنى ؟

ـ نعم .. وقد اوشكت يوما أن أقتلك !

ـ ولماذا لم تفعل ؟

ـ لأنك كنت تتجه الى انقاذ جريح فى ثورة أكتوبر .

فقال الأغا ساخرا : كنا نضللكم ، ولكننا الآن نعرف أنفسنا ونعرفكم ، ومع ذلك أنقذتك .

فقال سليمان فى غيظ : وقد انقذتك ايضا .

ـ آل العايدى فيهم شهامة وحمية أعرفها . هل تعرف شيئا عن جلال الدين ؟

ـ مثل ما تعرف أنت !

ـ الم يعد الى زوجته وبيته ؟

فانفجر سليمان حانقا : أعرف انك تداور لتسأل عن سماح ، لقد خربت بيتنا .. سماح لا نعرف عنها شيئا ، وجلال الدين لا يمكن أن يكون حيا بعد ما رأيت .

قال الشيخ وعلى فمه ابتسامة شامتة : أنا أعرف مكان سماح .

ـ فلم سألتنى عنها اذن ؟

قال ساخرا : لاختبر ذكاءك ، ومع انك لســــت ذكيا كما ينبغى ، سأسعى لاستبدال الحكم الذى تعرفه بالنفى الى قريتك . اذا التقيت بسماح .. لا أوصيك .. اننى مازلت أحترم آل العايدى .

وكظم سليمان غيظه حتى ينجو من القتل .

وتحت الحراسة حمل سليمان ما خف من متاعه ، واصطحب عمته عائدا الى القباب بعد أن غاب عنها أكثر من عامين ، وقلبه يمور بذكريات أليمة .. عن بيت تركه فى القاهرة ، وبيت يقبل عليه فى القباب .

كان قلبه يفيض بالحقــد وهو يجبر على اعتزال القتال فى ايامه الحاسمة ، وكان يفكر فى وسيلة يعود بها من منفاه الى القاهرة من جديد وكان يحلم بمفاجأة يراها مستحيلة : ان يجد (سماح) فى القباب .. أولها ذكر على السنة من هناك !

وعندما اطل على الدار من بعيد ، ورأى سياج الحديقة قد عاد الى سالف عهده ، والنوافذ مفتوحة ، والحديقة تموج بالزهور الضاحكة فى ذلك الفصل العطر من السنة .. عند ما وقع نظره على كل ذلك خفق قلبه فى فرح وخياله يرسم لحظة لقاء اسطورى يحلم به ..

ولكنه عند ماهم بأن يعدو نحو الدار ، رأى سيدة شقراء طويلة تقف فى وسط حوض الزهور وترتدى الثياب الاوربية وتحمل سلة فى يدها .

والتقى سليمان وعمته بمرجريت وابنتها جوليا ، وعرفا منهما بعض اخبار جلال الدين ولكن .. لقد مضي على لقائه بمرجريت وجوليا اكثر من عام ونصف العام ، فهل ظل بعد ذلك فى الأحياء ؟ .

***

ظل سليمان فى القباب شهرا كاملا .. كانت الزهور ســـــلواه الوحيدة .. وكانت جوليا تتقرب اليه وتحاول أن تحمله على الاهتمام بها ومشاركتها فى الاعتناء بالزهور وغير ذلك من أعمال الحقل . وكان بعد ان زالت الكلفة بينهما يقص عليها من الاحداث العنيفة التى مرت به ، ومن بطولات قومه فى المعارك ، وكانت جوليا لا تدارى اعجابها به وبقدرته على الحديث القصصي .

وتوقف مرة فى أثناء حديثه قائلا : جوليا .. الا تشعرين بالحقد على وأنا أمجد كفاح قومى ؟

فقالت فى أسي حزين : اننى مثلك موتورة من جنودنا . أنسيت ما عرفته عن أبى .. وعنا ثم .. يا الهى ..

وتضرج وجهها بحمرة فاتنة وقالت فى ارتباك : لقـــد صرت أفكر مثلك .. هناك شيء ما يجعلنى أتوق الى سماع حديثك .

كان سليمان يشعر باتجاه عواطفه نحو جوليا ، ونمو حبه لها وكان يخشي أن تسكب ماء باردا على واجباته الاخرى . ومن ثم فقد صـــــمم على العودة الى القاهرة خفية ، ولكنه قبل أن يفعل وصله نبأ مروع جعله يتريث حتى يتبين طريقه .

—*—

ظل جلال الدين ملتزما مكانه أمام مسـجد السيدة يداعب حبات المسبحة وتتصفح عيناه الوجوه الغريبة التى بدأت تتدفق فى شـوارع المدينة ، فهمس حانقا : « من كان يصدق ؟ لكنها تجربة » .

وبعد أن أظل الليل المدينة وهدأت الحركة فيها قام جلال الدين متجها الى شارع الغورية . وهناك سأل عن محل الشيخ السويسي تاجر العرقسوس ، وأمام دكان صغير تفوح منه رائحة المشروبات الشعبية كان الرجل جالسا فى انطواء وعلى وجهه آثار حزن دفين ، وكـانت النارجيلة ترسل ومضات من نارها بين الحين والحين والشيخ يسحب انفاس الدخان منها ويرسلها من بين شفتيه قاسية مندفعة كـأنها قذيفة . وتقدم جلال الدين من الرجل قائلا : الشيخ السويسي ؟ .

ـ نعم .. أهلا بك . وقام فصافحه وهو يشمله بنظرة ثابتة . وتلفت جلال الدين حواليه فلما اطمأن الى خلو المكان قال : هل سليمان عندك ؟

ـ أى سليمان ؟!

ـ فتى حلب .

ـ حسبتك تسأل عن سليمان آخر ذكرتنى به عيناك وقـامتك المديدة .. لا أدرى أين هو .. يرحمه الله ان كان فى الشهداء .

ـ ليس عن هذا أسأل .. ولكنى أريد الحلبى .

فتجاهل الشيخ السؤال ومضي يقول مسترسلا مع ذكرياته وكأنه يجد فيها العزاء لواقعه المر :

ـ كان فتى نبيلا .. تحمـل المسئولية فى شجاعة . أزهرى شجاع ..

قال جلال الدين وقلبه يخفق بقوة : هل تذكر اسمه ؟

ـ سليمان العايدى .. نعم . كان اسمه العايدى .

— يا الهى .. انه ابن عمى .. أين التقيت به ؟ اية مفاجأة هذه ؟ هل تعرف مكانه ؟

— لا يا بنى ! انه لا يعرف حتى اسمى .. كان لقاؤنا منذ شهور طويلة على ظهر مركب فى النيل وخاض معى معركة بارود ، وعاد بعدها الى القاهرة ، ولا أعرف عنه شيئا بعد ذلك .

— الم يكن معه احد آخر ؟

— كان وحيدا .. بلا سلاح !

— الا تعرف السبيل الى احد كان معكما ربما هدانا فى الوصول اليه ؟

— كلا .. لم يكن أحدنا — اذا التقينا لخوض معركة — يهتم بمعرفة أسماء الآخرين ..

— أية نار اشعلتها فى قلبى ياسيدى ، لقد شغلتنى الحوادث عنه .. وتضعنى فى حيرة لا أرى لها نهاية ..

فهز الشيخ رأسه فى تمهل وقال مرددا وكأنه يحدث نفسه : غدا تشغلك احداث أعظم .. نعم .. أحداث أعظم .

وجلس جلال الدين الى جانب الرجل ، واخذ يرتشف كوب العرقسوس الذى قدمه اليه . وبعد أن فرغ منه قال : أما آن لك ان تخبرنى عن مكان سليمان .. الحلبى ؟ .

— سيأتى حالا .

— هل تشك فى نزاهة قصدى ؟

فقال متلهفا : معاذ الله يافتى .. ان الشهامة تتضح من قسماتك. انت قريب العايدى وصديق الحلبى ولا تسل عن المرء واسأل عن قرينه .. ثم همس : انه فى مهمة وسيأتى حالا .

وأخيرا جاء سليمان الحلبى وعانق صديقه فى شوق وهو لايصدق انه بقى على قيد الحياة بعد أحداث بولاق الدامية . وقاده من يده الى غرفة سرية فى آخر المحل تتصل به عن طريق باب صفير تتراكم امامه صفائح المشروبات والاوعية .

كانت الغرفة ضيقة رطبة ليس فيها من ضوء غير شعاع ضئيل

ينساب اليها من خلال كوة علوية تشرف على المحل ، وكـــانت مملوءة بالبنادق والحراب وعلى حائطها علقت مجموعة من الخناجر .

جلس الصديقان متقابلين ، وكان الحلبى قد تخلى عن ثياب المعركة وعاد الى عمامته وعباءته ، وحمل فى يمينه كتابا وظلا صامتين لحظات كان كل منهما يملأ عينيه من منظر صديقه ويحاول أن يقرأ ما مضي من حوادث على صفحة وجهه ، ويحاول أن يستشف مشـــاعره حيال ما سيأتى ، وتحرك جلال الدين فى مكانه استعدادا للحديث ولكن الشيخ السويسي طرق لوحة الرخام ثلاث طرقات بحافة قدح ثم نادى وكأنه يوجه الانظار الى مشروباته : « ياكريم » .

فقام سليمان وفتح الباب وهنا أطل وجه عطية الدمنهورى . واهتز قلب جلال الدين وبادر الى صديقه يعانقه فى لهفة وشوق وهو يقول : اذن .. لقد افلت من الموت .

فقال عطية ضاحكا : عمر الشقى بقى !

فعلق جلال الدين مجاريا صديقه : سأعيش الف سنة لا شك فليس هناك من هو اكثر شقاء منى .

فقال عطية وقد اختفت ضحكته : أنا .. ياصديقى .. فقـــدت اسرتى ، وبيتى .. و .. يا الهى .. كيف لم يلحظ جلال الدين ذلك ؟ هل شغلته حرارة العناق وجيشان الذكرى !؟ لقد كان عطية بيد واحدة !!

قال جلال الدين بصوت مختنق بالاسي : هل تألم لذلك ؟

— اننى احتسبها عند الله .. ثم .. ماذا يجدى الحزن ..

وران صمت حزين ، وأراد عطية أن يغير مجرى الحديث فقـــال متضاحكا فى افتعال : وهل وجدت الشلبية الجميلة التى كنت تبحث عنها ؟ كم فكرت فيكما .

— كلا . اننى يائس من لقـــائها ، بل يائس من بقـــائها على قيد الحياة .

— ما اسمها ؟ اننى أذكره وانساه .. ولكنك به ضنين .. انه اسم جميل .

— دعه آمنا فى قبور الذكريات .

وهنا قال الحلبى محاولا تبديد أحزان الجلسة : مالك تتحدث عن

اليأس والقبور وكأنك تنعى نفسك ؟ اما يسعدك أن نلتقى هنا على غير موعد ؟ حتى عطية لم تسألنى كيف التقيت به ، وكيف تحدثنا عنك ؟

ـــ ولم أسأل عن ذلك ؟ كل شيء ممكن فى الحرب الا ان تكون سعيدا حتى ولو كنت المنتصر .

ـــ رجعنا لاحاديث الاسي .

ـــ كيف أتحدث وانا ارى كل شيء جميل يهوى محترقا .. كالنجم يلمع ثم يخبو ويتلاشي .. أين كريم وطوبار والبشتيلى ومشايخ الثورة الاولى .. والرغد وحياة أمينة يظلها السلام ؟ .

فضرب سليمان بقبضته الحائط قائلا : هكذا علمتنا أن نفكر .. لقد غلبك حبك المفقود فاهتزت الدنيا أمام عينيك .

ـــ لا والله .. انما هى كلمة عابرة ولكنى أعرف طريقى .

فقال الصديقان على الفور : هل قررت شيئا .

ـــ نعم .. سأقتل كليبر .

لم يظهر اى اثر للمفاجأة وكأن هذا ماقدره كل من الصديقين .

وتلاقت نظراتهم ذات البريق الوحشي ، وعاد جلال الدين يقول : انه الشيء الوحيد الذى يعيد أمانى النصر للناس ويهز العدو هزا .

قال عطيه : لا مفر من ذلك .

فزحف سليمان وهو يرمق خنجرا وقال : اذن .. اتركا لى هــذا الامر .

قالا : ولماذا نتركه لك !؟

ـــ لحاجة فى نفس يعقوب .

ـــ وماذا فى نفس يعقوب ؟

وبلع سليمان ريقه فى انفعال وقال هامسا : انتما تعرفان الحراسة القوية المضروبة حول كليبر . أريد أن أقول : ان احتمال نجاة قــاتله ضعيف جدا ، بل يكاد يكون معدوما . لو أننا بدأنا باغتيال بعض الجنود لكان الافلات سهلا .. اما كليبر فلا بد أن ندفع الثمن .

ـــ ولماذا لا ندفع نحن الثمن ؟

ـــ أمهلانى حتى أتم حديثى ..

وازداد زحفا ، واتسعت عيناه وهما ترميان ببريق وحشي وقال :

اذا اقدم مصرى على قتل كليبر فان القاهرة كلها ستدفع الثمن ، وجراح المدينة مازالت تسيل .. أما عند ما يكــون القاتل من حلب فان الامر يختلف .

كان سليمان مندفعا فى حديثه الخافت المتفجر بجنان ثابت ووجه مشرق باليقين ، وفى نظراته تصميم لا يقهر . وقد لاحظ جلال الدين ذلك فقال : أرجو ألا تندفع وراء رغباتك القديمة . تريث حتى لاتودى بنا جميعا .

وقام الاصدقاء الثلاثة وقد تواعدوا على اللقاء فى المكان نفسه بعد ثلاثة أيام .

***

وتلاقى الاصدقاء الثلاثة فى الحجرة الخلفية . وقــال ســليمان : بشرى .. حدثت منذ نصف ساعة فقط .

قال الصديقان فى لهفة : ماذا حدث ؟

ــ قتل باروخ

ــ باروخ !

ــ نعم .. اليهودى .

وهتف عطيه : الله اكبر .

وقال جلال الدين : لقد تأخرنا فى القيام بنشاطنا وبدأ غــيرنا العمل .

فقال سليمان : أرى أن نتصل بهم لنوحد الجهود .

فقال جلال الدين : انك ياسليمان شاب ذكى لا ينقصه الحماس .

قال وقد أغضي ببصره الى الارض : لكنى لم اقدم دليلا عمليا .. اننى لا اصلح لخوض المعارك فقد افسدت الكتب على ذلك .

ــ علينا اذن أن نبحث عن الجماعة التى قتلت باروخ ، ونلتقى هنا للتشاور بعد ثلاثة أيام . وانطلق الاصدقاء الثلاثة كل فى سبيل وهم يحاولون العثور على القائمين بحوادث الاغتيال المتكررة .. وفى اليوم الثالث وفى الموعد المضروب ذهب جلال الدين الى محــل الشــــيخ السويسي فوجده جالسا أمام المحل محتقن الوجه جامد النظرات ، وأشار لجلال الدين فى حدة دون أن يلتفت اليه : اذهب . انصرف .

— لماذا ؟

— ربما هوجم المحل بعد لحظات . اذهب

— لماذا ؟

— الآن .. قتل سليمان كليبر .. وقبض عليه .

اختلطت صور المرئيات امام عينى جلال الدين ، واضطربت المعانى والعواطف فى نفسه .. واجهش ببكاء حاول أن يكتمه .. انه لا يدرى هل يبكى فرحا بالنصر العظيم أو رثاء لصديق الجهاد الذى تمنى الشهادة وتحققت له ؟

***

وعند ما بلغ نبأ مقتل كليبر مسامع سليمان العايدى فى القباب تمهل فى ازماع الهرب من منفاه ليتبين طريقه قبل أن يرحل . وليسير الى هدف واضح لا يكتنفه أى غموض . ترى .. هل هذه هى الحقيقة أو أن حب جوليا قد جعله ينتحل المعاذير للتخلف عن المعركة فاستراحت نفسه لمقتل كليبر ورأى أن النهاية قد اقتربت ولا معنى لذهابه ؟

—*—

قضت سماح أيامها فى منزل الشيخ السـويسي بين امرأته وبناته اللاتى كن يبالغن فى اكرام الشابات الاربع صاحبات العمل المجيد ضد الاعداء

وكانت سماح تقضي ايامها بين الصلاة ، تلتمس فيها السلوى لقلبها الجريح .

وفى زحمة المشاعر وتوالى أنباء الحصار غابت درية عن البيت وارتاعت سماح لغيابها .. فالطريق غير مأمونة ، والقنابل تفتك بمنيقترب من الاسوار ، والعدو يحيط بالمدينة من كل اتجاه .. « لكن لماذا ذهبت ؟ هكذا سألت سماح نفسها فى حيرة : » انها لم تخرج بمفردها مطلقا !! ما أغرب تفكيرك يادرية .. ان قلبك الحزين دائما بمأساة فراق أهلك قد جعلك تفكرين على نحو غريب .. قد يكون هو الجنون أحيانا ! » .

***

قال شاهين أغا لدرية : هل تخليت عن عنادك ؟

ـــ اذا تخليت عن خيانتك !!

قال وهو يكبح غيظه : أى الحلين يرضيك : أن تدلينى على مكان سماح ، أو تبقى معى ..

ـــ كلاهما ابعد من عصفور فى السماء .

قال ساخرا : انت لست عصفورا فى السماء ، أنت عصـفور فى يدى .

وقبل ان تجيب درية ، اقبل أحد الحراس يستدعيه لمقابلة مراد ، فأوصي حارس الخيمة أن يراقب الفتاة مهما طال غيابه ..

* * *

قال مراد : لقد دخل كليبر القاهرة .

فقال الاغا بخبث : لا يعنينا أن يدخل .. ولكن ماذا سيصنع بعد ذلك ؟

— لقد أملى عليه القاهريون الجواب ، انه لن يستطيع الحياة بينهم الا والسيف مصلت على رقابهم

— هذه ليست طبيعة الفرنسيين ولكنها طبيعة المصريين . لقد كانوا معنا كذلك ! لا يعيشون الا والسيف مصلت على رقابهم .. عندى امراة مصرية تثبت ذلك كله .

— نحن ضيوف كليبر .. لقد بعث الى اليوم .

— مجرد ضيوف ؟

— نعم .. ضيوف . وسنمضي معاهدة الصلح معه .

وبقى مراد وشاهين اغا فى ضيافة كليبر خمسة أيام تم فيها توقيع الصلح النهائى وتفويض مراد فى حكم الصعيد . وعند ما عاد الرجلان واستقرا ليلة واحدة فى المعسكر لحقت بهما المفاجأة المذهلة : قتل كليبر!

وهنا قال شاهين أغا بغيظ : ليتك استمعت الى رأيى .

فقال مراد فى أسف : لقد تهاوى كل تدبيرى .. ولم أكن أملك الا ذلك .

— لو اننى انضممت الى المصريين لكان خط الرجعة مفتوحا فى اى وقت .

— لقد ولت الفرصة ولا مجال للندم .. وعلينا أن نتدبر الموقف .

— لن نستطيع ذلك حتى يستقر الوضع بين الفرنسيين انفسهم .

قال مراد بخوف : انهم لن يجدوا قائدا مثل كليبر ، كان شجاعا ولكن يد المصريين وصلت اليه وهو القائد العام .. ولن يجرؤ خلفه على البقاء . وليتهم يكتفون بقتل القادة الفرنسيين !

قال الاغا هامسا : هل تخشي شيئا ؟

— ولم لا !! اتراهم يلعبون ؟ ان ذلك لا بد أن يحدث ! انى أرى شبح الموت . وسقط مراد فريسة الحمى،واعلن معسكره حالة الطوارىء، وظل فرسانه يمتطون خيولهم فى انتظار ما تأتى به الاخبار .. لكن القاهرة بعد مقتل كليبر سيطرت على أعصابها ودارت فرحتها وشماتتها . وظلت أمور الحياة العادية تجرى فيها وكأن شيئا رهيبا لم يحدث .

وظلت حوادث اختفاء الجنود تتكرر برغم سيرهم جماعات مسلحة ، وتحولت بعد أيام الى اشتباكات صغيرة وسريعة بالخناجر والحراب .. وكانت الكمائن تترقب الجنود المذعورين فى منحيات الشوارع ومداخل الحارات .

واجتمع « منو » — القائد الجديد — بأركان حربه ، وقال : اننا مقبلون على موقف لا نحسد عليه .. ويجب أن نتصرف على أســاس ذلك .

فقال قائد الفرسان — وكان لا يحب منو ولا يؤمن بكفايته : لا يجوز ان نتصرف بخوف والا فان العاصفة ستقتلعنا ..

فرمقه منو بغيظ وقال : مم اخاف ! اننى اخاف عليكم ..

فقال القائد : بل نحن الذين نخاف عليك بعد ماحدث !

— انتم الذين وصلتم بالموقف الى هذا الوضع السخيف .. كانت خطتى غير ذلك من بادىء الامر .. وقد رأيتم عواقب اعمالكم . والموقف الآن يتغير لغير مصلحتنا .. الاتراك على الحدود الشــامية والانجليز يحاصرون الشاطىء ، وعند المصريين خبرة ثورتين وحرب ثلاث سنوات .

فقال قائد الفرسان : الذى أعرفه عن جنودى انهم يعانون نقصا فى العدد ، ومصابون بانهيار لمقتل القائد الذى أحبوه .

فقاطعه منو صارخا : أنا لا أسمح بمثل هذا الكلام . هل نحن فى مرقص ! الذى لا يحبنا يستطيع أن يقدم استقالته ..

وصمت القادة على مضض ، فعاد يقول : أنتم هنا لتلقى الأوامر ، وقد أمرت باخلاء القاهرة واقامة معسكر واحد لجميع الجنود فى الروضة حتى تتوافر لهم الحماية اللازمة .

قال قائد الفرسان : أنا لا أوافق على هذا الاجراء الذى يقــربنا للهزيمة ..

فقال منو حانقا : أنت مستقيل ..

وغادر الاجتماع غاضبا .. وانصرف الآخرون لتنفيذ الأوامر .

***

كانت أنباء التقهقر عند الفرنسيين تترك أثرها السريع عند المماليك وكان أشد مايخشاه مراد ان يتخلى الفرنسيون وأن ينسحبوا دون أن

بقيموا اعتبارا لصلته بهم .. من اجل ذلك لازم شاهين اغا القائد العام الجديد . وقد انعكس القلق على صحة مراد ، فطال مرضـــه ووهنت صحته . وانقلب من الحمى الى آلام الصفراء .. واخيرا وبعد أن صار شبحا وخيالا أصيب بنزلة رئوية جعلته يلازم الفراش بصفة نهائية . ولكن هل تجدى الامانى ويتغير المقدور ؟؟

وعند ما اشتد المرض بمراد قال لشاهين اغا : لقد حدثتنى أن عندك جارية جميلة .

— انها ليست جارية .

— زوجة ؟

— لا . . .

— اذن .. دعها لى . انك تقضي أكثر أيامك فى الروضة ، اجعلها فى خدمتى ربما غيرت طعم الدواء .

— سأبعث بها اليك .. ولكن احرص منها لان لها مطامع ، واحرص عليها لانها تريد أن تهرب . فعاد مراد يقول فى اعياء : ان كل تدبيرى فسد بموت كليبر وانى لأخشي عليكم بعد انسحاب منو .

— منو يحلف لى كل يوم انه لن ينسحب ، ويتعجل ما وعدنا به من نقود ، ويقول ان العون فى طريقه الى مصر .

— لاتصدقه .. انه جبان . لقد قـــابلته مرة واحدة وادركت من مبالغته عن شجاعته انه يدارى جبنا شديدا ، انه يخشي مصير كليبر ، ويتمنى مغادرة مصر . لولا خوفه من ان يتهم بالخيانة .

— أنا معك فى ذلك .. انه ينتقم من أصدقاء كليبر ، ويمزق صفوفه فى حين يتجمع المصريون للانقضاض عليه من جديد ، وتحـــاصره تركيا وانجلترا .

— أرجو ان تأخذوا من موقفه عبرة فلا تفترقوا من بعدى .

فقال شاهين اغا فى اسف مصطنع : اذا عهدت الى بالرياسة فلن تقع فرقة !! ثم استدرك : لكن لاتفكر فى ذلك ، ستشفى ان شاء الله .

وانتقلت درية الى خيمة مراد ، وكانت تشعر بالاشمئزاز والضيق حين عرفت الشخص الذى ستقوم على خدمته ولكنها حين رأته شـــيخا عجوزا واهنا نسيت حقدها عليه وثأرها عنده ، لم تفكر الا فى شبح

الموت الذى يرف فوق راسه وقد انهد كيانه . واخذت تسهر على راحته وتقدم له الدواء فى انتظام وتلبى اشارة أصبعه ، وتفهم مايريد من اغضاء جفنه .

وكانت تخلو الى نفسها وتفكر : « اليس هذا هو الرجل الذى جمع من حوله ذئاب البشر يسرقون وينهبون ويذلوننـــــا ؟ اليس هو السبب فى مأساتى ، وفى ضياع سماح .. وحرماننا جميعا ؟ اليس هو الــذى ساعد على تدمير القاهرة ؟ فما بالى اعطف عليه ؟ الأنه عاجز عن أن يدفع عن نفسه عوادى الموت ؟ لو أننى قابلته فى غير ظروف مرضـــه لما توانيت عن قتله » .

كان مراد يلحظ مدى عناية درية به ، وحرصها على راحته فى ارتياح شديد ، وكان يحن الى جمالها الوديع ويتمنى لو يستمتع بذلك الجمال .

وطالت أيام بقائها فى خيمته حتى الفها وتعلق بها ، وكان فى أيام صحوه يسألها عن حالها وعما قد تحتاج اليه . وفى مرة قال لها : ان فيك اخلاصا شديدا ، واعاهد الله أن استخلصك لنفسي وتصيرى لمراد بعد أن كنت لأغا صغير ، هذه مكافأة تليق بمكانك عندى ..

فقالت وهى تدارى غيظها واشمئزازها الذى أيقظته كلمات الرجل : انا طوع يمينك يامولاى ، واذا أطال الله فى عمرك فانك ستنال كـل ماتحب .

فقال مستدركا : اذا اصبح الصباح ذكرينى بأن استدعى شاهين اغا لأمر هام .

قالت وهى تتظاهر بالاشفاق بعد أن رات بوادر خطة جديدة : ربما تأخرت فى النوم .

ـــ ايقظينى مع الشمس .

ـــ ان ذلك يؤثر فى صحتك . اذا لم يكن سرا فخبرنى وأنا أنقله اليه فى الصباح .

ـــ انه ليس سرا عليك .. اننى أئتمنك على حياتى ..

والتقط أنفاسه المتقطعة وقال: قولى له ان يسير بثلاث كتائب لمؤازرة حامية القاهرة لقد توتر الجو ووقع « منو » فى حصار جديد .

ـــ هل تحرص على منو الى هذا الحد الذى تقلق فيه راحتك ؟

— اننى لا احرص على احد .. غير رجالى .. يجب أن يظل مثو قويا ..

« لقد حكم على نفسه بالموت » !!

هكذا قالت درية فى نفسها حين انتظرت حتى نام الرجل ، ثم فتحت منافذ الخيمة فتدفق فيها الهواء .. وأصبح مراد جثة هامدة .

وما كاد النبأ يشيع فى أنحاء المعسكر عن وفاته حتى اعلن كل امير أن مرادا قد عهد اليه بالرياسة او وعده بها .. وأسرع الرجـــــال الى السلاح !

فى تلك اللحظات انسلت درية من بين الخيام واخذت طريقها الى بيت الشيخ السويسي وهى تطير شوقا الى لقاء صاحباتها .

—*—

جدت الحوادث فى مسيرها بسرعة مذهلة ، فقد انقسم المماليك على أنفسهم وظهرت بينهم زعامات كثيرة ذهبت كل منها فى اتجاه تخطب وده .. حتى لقد سعى بعضهم الى أن يحالف المصريين فرفضوا ..

أما الفرنسيون فقد رحبوا بمن انضم اليهم وحرضوهم على الابحار معهم الى فرنسا ، وكذلك فعل الانجليز مع من اتصل بهم .

واصبحت أيام الفرنسيين فى مصر معدودة اذ احاط بهم اعداء من كل لون ، فالمصريون يتخطفونهم من كل جانب ويغيرون على مواقعهم كل ليلة . وانجلترا تجرد جيشا لسحقهم ، وتركيا تتحفز لتدرك ثأرها منهم .. فسلموا بالأمر الواقع ورأوا أن البقـــاء فى مصر حلم لا ســـبيل الى تحقيقه .

وادرك المماليك أن ايامهم فى مصر مرتبطة ببقاء حلفائهم ، فأخذوا يعدون أنفسهم لرحيل نهائى .. وبذلك كثر تجوالهم فى القاهرة يجمعون ما أخفوا من كنوزهم ويبيعون ما يعجزون عن حمله من أمتعتهم وقصورهم .

***

فى تلك الآونة عادت درية الى منزل الشيخ السويسي ، وقصـــت على سماح ما قامت به حيال مراد العجوز المريض ، وكانت تعانى من وخز ضميرها وتعذيبه لانها قتلت رجلا مريضا !! واخذت سماح تهدهدها وتلطف قسوة الاحساس بالذنب عليها . وأخيرا قالت لها : لو اننى ـــ أنا سماح ـــ وشيت بك الى العدو ليقتلك .. فهل كنت ترددين فى قتلى ؟

فغامت الدنيا فى عينى درية ودار رأسها والقت بنفسها على سماح تعانقها وتقبلها وهى تبكى فى انفعال شديد .

وسقطت درية فريسة الحمى بضعة أيام لم ينقطع فيها هذيانها ، وكانت سماح تسهر عليها وتسرى عنها اذا افاقت وترسم أمامها صورة

جميلة لمستقبل حلو حين يعود الرجال من المعارك التى اوشكت أن تنتهى ، ثم يحملون كل فتاة الى موطنها الصغير بين اهلها واحبابها . وكانت درية تبكى من التأثر وجيشان ذكرياتها ، وكانت تقول لسماح وهى لا تملك دموعها : انها اما أن تذهب مع سماح الى القباب ، واما أن تذهب معها سماح الى بلبيس .. لانه من المحال أن تنفصل عنها !

وبعد أسبوعين اقتربت درية من الشفاء ، ولاح لها ذات صباح أن تخرج للسير بعض الوقت لعل المشي فى الشمس بين الناس يعيد اليها رونقها وصحتها . والتفت فى عباءتها واخذت طفلة من بنات الشيخ السويسي فى يدها وخرجت .

لم تكد درية تسير الى مدخل الغورية ثم تنحرف الى اليمين لتزور مقام الحسين ، حتى قابلتها عربة صغيرة مغطاة النوافذ بستائر تحمل شعار جيش مراد ، فارتعب قلبها وارادت أن تميل عن طريق العربة ، ولكن وجها رهيبا تعرفه جيدا رفع الستار عن الشباك واشار اليها أن تحضر ، فأرادت أن تولى هاربة ، فامتدت يد من بين الستائر وانطلقت رصاصة استقرت فى ظهرها .. فى حين واصلت العربة عدوها .

لم يفت أهل القاهرة ما يصحب انسحاب الجيوش من فوضي السطو والنهب وانتشار الجواسيس ، لذلك الف أهل المدينة فرقة حراسة كبيرة تنتشر فى كل القطاعات ، وهذا مالم يفطن له شاهين اغا حين أطلق الرصاص على درية وهو لا يعبأ بالاهالى الذين يملأون الشارع . ولكن بعض هؤلاء انطلق وراء العربة بملء قوته ، واعترض آخرون سبيلها .. فانبرى لهم شاهين بك يطلق عليهم الرصاص فى جنون .. فانهمر عليه سيل من طلقات البنادق صعقه فى مكمنه .

واسرع آخرون الى الضحية يحاولون انقاذها ، وكانت قد استلقت على جنبها والدم يتدفق بغزارة من ظهرها فى اتجاه القلب ، والطفلة التى كانت معها تمسك بيدها وتصرخ فى ذعر .

كلمة واحدة قالتها درية قبل أن تموت .

كانت عيناها غائمتان بالدموع،وعلى وجهها علامات ارتياح شديد.. ارتياح من ادى دوره كاملا ، وكانت يدها تشير الى محل الشيخ السويسي وقالت : سماح . ورجل واحد بين الواقفين هو الذى عرف ما يعنيه الاسم اذ تذكره على الفور .. عطية الدمنهورى .

وجاء الشيخ السويسي مع عطية وحملا المراة القتيل .. ودخلا بها الى البيت .

وقال عطيه لسماح : ان جلال الدين بعثنى اليك .. ولكن القـــدر شاء أن اكون صاحب الملمات .

بكت سماح صديقتها بكاء مرا ، وكذلك بكت صاحباتها ، ولم يترك عطية لهن فرصة التمادى فى البكاء فقاطعهن قائلا : مايحق لكن أن تتركها هكذا لترضين شجونكن !! انها شهيدة ومصيرها خير من مصيركن .

ارتجفت سماح لوقع الكلمة وكأنها لم تتخيل أن صديقتها ســـيكون مصيرها أن تدفن ، فقالت فى نحيب وأسي : هل يأكل التراب هذا الجمال ؟

قال عطية : انه مصـــيرنا المحتوم !! ترى .. هل نحب الوطن لانه تراب الاجداد ؟

فقالت سماح : لقد دفعنا ثمن الوطن غاليا . ودرية آخر ضحاياه .. واغلاها عندى . ثم صمتت لحظة وقالت : اين جلال الدين ؟

ــ انه فى الاسكندرية انه لا يريد أن يعود حتى يرى آخر أجنبى يغادر الوطن .. وسيعود قريبا . أما أنا فقد عاقنى ذراعى عن متابعته فبقيت مع فرق الامن هنا .

ــ وبماذا تشير على ؟

ــ لا بقاء لك فى هذا البيت ، سنؤدى الشكر الى الشيخ السويسي، ثم نمضي من الغد الى القباب . سنجد هناك جلال الدين ، ومن هناك نعرف مصير الآخرين .

***

كان لقاء ثائرا اختلطت فيه دموع الاسي على العم الشهيد بدموع الفرح بحياة جلال الدين وعودة سماح . كانت جوليا أشدهم فرحا بعودة سماح !! لقد تأثرت بقصتها ومدى ما احتملت من تضحيات وآلام ، وهى عروس جلال الدين الذى انقذها مع أمها من الموت . وأخيرا .. انها اخت سليمان الذى يعز على نفسها أن يتألم قلبه .

لكن .. هل تسعد جوليا ومرجريت يوما بعودة مونتى ، كما سعدت أسرة العايدى بعودة الابناء ؟

***

كان طريق العودة من الاسكندرية الى المنصـورة شاقا بالنسـبة لجلال الدين ، فقد خرجت جموع الفلاحين وانسابت من قراها فى حماس شديد تهتف على الطرق بحياة مصر وتسقى العابرين ماء وسكرا ، وتنحر الذبائح أمام المواكب .. واخذ بعضهم طريقه الى العاصمة ليشـترك فى احتفالات النصر .

وعاد جلال الدين الى نفسه فلم يجد فى ذكرياته شيئا مفرحا : المملوك الذى اوشك أن يقتله امام بيته فى الخيامية ، وفراره أمام عدوان شاهين اغا ، وسقوطه فى أسر قرصان مالطة . ثم ضياع سماح ومحنة الوطن كله بنزول الحملة ، وخراب بيته حين عاد اليه مع مرجريت وجوليا . وهنا تذكر مونتى وراح يتساءل « ترى هل التقى بأسرته ؟ وهل انضموا الى جيشهم قبل الانسحاب ؟ على اى حال ماكان باستطاعتى أن اترك الدفاع لأعمل مرشدا لامراتين . !! اننى لا اخشى عليهما شرا .. ولكنى اخشى منهما على القباب كلها .. آن ان تعود الحياة الى دارنا بعد أربع سنوات من الخراب . »

وأخيرا بلغ جلال الدين المنصورة ، وكان منهكا ، وعلى رأس الطريق لمح لافتة صغيرة ورجلا اشقر يجلس تحتها ، فمال الى الراحة ، وجلس قريبا منه قائلا : اريد كوبا من الليمون .

وقام الرجل فأعد القدح وقدمه فى صمت . ووقعت عين جـلال الدين على اللافتة ، فحدث الرجل ممازحا : اذا كان هذا خان جوليا فأين مونتى ؟

وانتفض مونتى فى فرح هاتفا : يا الهى .. اتعرفنى يافتى ؟

***

ماكادت انفاس الصباح تتردد حتى انطلق سائق العربة على بحر اشمون ، وكان ركاب العربة خليطا من ركاب المنصورة وركاب قادمين من القاهرة ولكن اعجبهم جميعا كان ذلك الشيخ الذى لم يستطع جمال الجو أن يجذبه ، وكان يتدثر بعباءة صوفية فضفاضة ، ويخفى رأسـه كله خوفا من نسمة الصباح فلا يظهر منه الا عينان تحملقان فى سـقف العربة وهو يتغنى بصوت حزين :

الجسـم فى بلد والروح فى بلد	يا وحشة الروح بل ياشقوة الجسد
ان تبكِ عيناكَ لى يامن شغفت به	من رحمة فهما سهمان فى كبدى!!

كانت تلك الكلمات العذبة التى يرسلها الشيخ حزينة راعشــة تتجاوب فى قوة مع خواطر جلال الدين ، ولعله أراد أن يتحــدث مع العجوز ، ولكن مونتى قال له : انكم بلد عجيب ! فقال جلال الدين باسما : لو لم يكن عجيبا لما قلم اظافرك وانساك الحروب والدماء .

ــ ان فيكم شيئا غامضا جذابا .

ــ انه ليس غامضا الا بالنسبة لكم معشر الغربيين .. لانكم بعدتم عنه ..

انه الايمان بالله ، وبالانسان .. وبحقه فى أن يعيش حرا .. وسعيدا .

وتوقفت العربة عند القباب ، ونزل رجال ثلاثة .. لايتحدثون . ورأى جلال الدين تموجات الزهور تلوح له من بعيد فهتف من قلبه : أى ايام أنا مقبل عليها ! ؟

* * *

وكان لقاء ثائرا .. عاصفا .. فيه دموع .. وابتسامات وآهات أشواق وحرمان .. وقبل أن تهدأ ثائرة الأحباب طرق رجل عجوز باب الدار فقابله سليمان العايدى .. بالاحضان وهو يقول بفرح : عم حنفى !

وبكى العجوز وهو يحتضن سليمان ، وقال فى صوت متهدج : لقد سقطت الراية ياسليمان .. عاد الآذان الى مسجد الظاهر ، ودخل المصلون مسجد الرويعى .. ليتك ترى ذلك ..

فقال جلال الدين : لقد عاد كل شيء فى مصر الى مكانه الطبيعى ..

فقال عم حنفى : لم تركتنى أضل طريقى الى الدار ياجلال الدين ؟

فقال معتذرا : اننى لم أعرفك .. لقد غيرتنا الايام .. وكذا لم تعرفنى انت !!

فقال عم حنفى وقد عاودته طبيعته المرحة : أين سماح !؟

ــ انها فى الداخل مع عمتها .

فانطلق العجوز منشدا بصوت يرعشه التأثر : الم اقــل لك يا سليمان !!

وقد يجمع الله الشـتيتين بعد ما يظنان كل الظن الا تلاقيــا

فهتف سليمان من أعماقه : لقد اســتجاب الله لك .. ويجب أن تنشدنا مع كل كلمة بيتا جميلا .

فقال الرجل فى أسي وعبراته توشك أن تتحدر : لم يعد فى العمر بقية ياسليمان .. لقد ذهب الاحباب وأصبحت الضحكات باهتة .. من طرف اللسان .. لقد انتهى زمانى .

فقال سليمان مواسيا له ومشجعا : ليس لك أن تأسي فى يوم النصر الذى تمنيناه .. ولست أقلنا جهادا من اجل ذلك اليوم .. انك الخير والبركة دائما .

وقال جلال الدين مداعبا : نعم ياعم حنفى ، كم ضايقتك واعترضت على شعرك .. ولكننى سأسمعك من الآن بقلب خلى سعيد .

كان وجه جلال الدين مستغرقا فى ابتسامة عريضة ، وعيناه لامعتان بالفرحة .. فرمقه عم حنفى باعجاب . ثم تغنى بصوت فيه رنة حزن عميق برغم ما ينطوى عليه من معنى القوة والفرحة :

تمر بك الابطال كلمى هـــزيمة ووجهـــك وضـــاح وثغرك باسم

وضحك الصحاب واخذوا يداعبون عم حنفى ، ويقولون فيه الشعر المرح .. وقاموا الى طعام دسم اعدته العمة بمعاونة سماح ومرجريت وجوليا ..

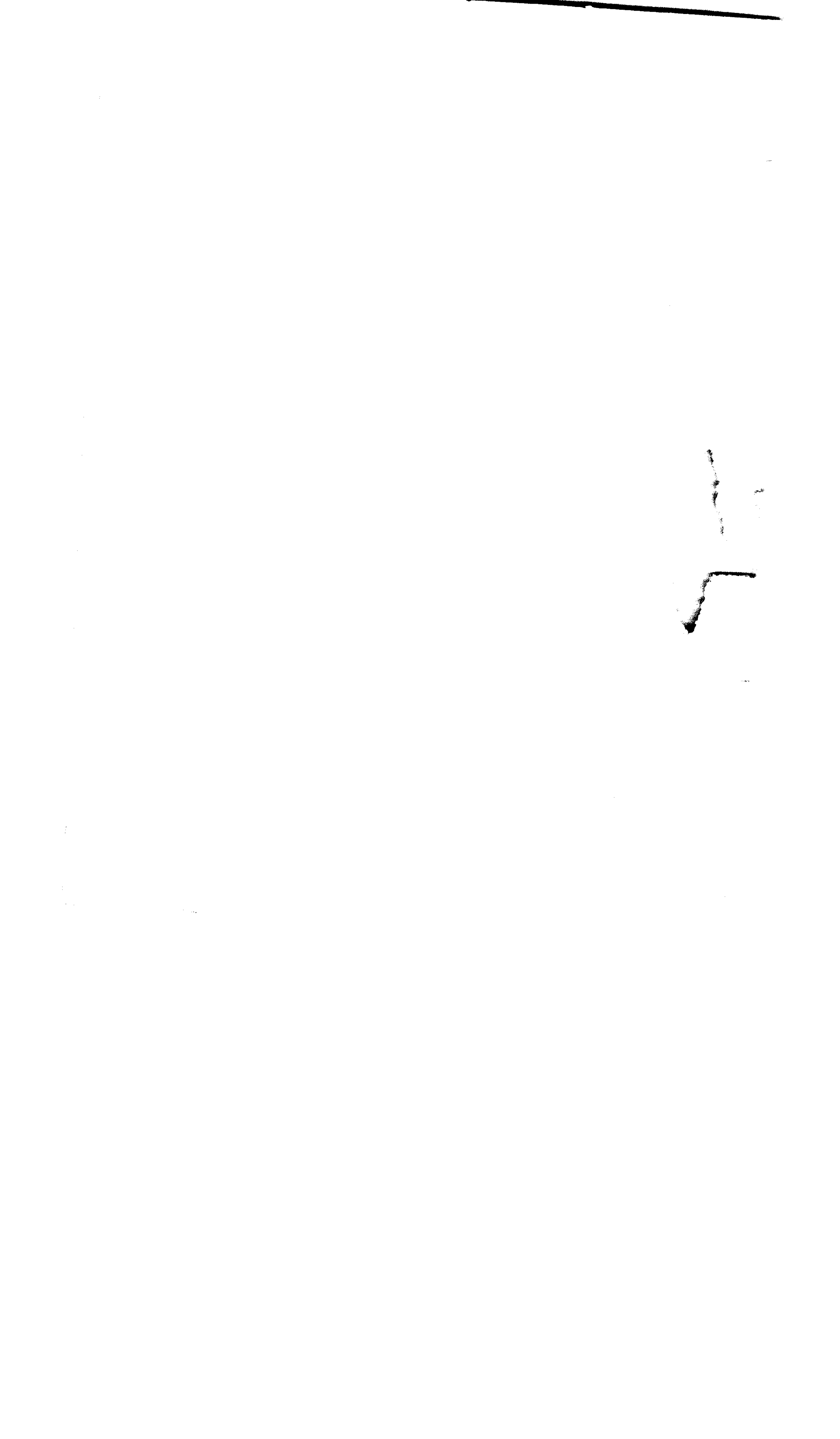
***

ولكن جلال الدين قبل ان يأكل لقمة واحدة تذكر شيئا هاما أوشكت الفرحة أن تنسيه اياه ..

لقد قصد الى الحقل .. الى تلك الارض التى تكونت منها عضلاته وعظامه .. وارتبطت بها أحاسيسه وذكرياته ، وفيها ماضيه ومستقبله .

وهناك .. انحنى عليها فى صمت ، وقبل حفنة من ترابها ، وعيناه دامعتان ، وقلبه يخفق بالحنين .

ترى .. هل أحس جلال الدين — وهو يفعل ذلك — انه ينفذ أمرا تمناه أبوه ، ودفع حياته ثمنا له !؟





الدار القومية للطباعة والنشر
« فرع الساحل »